في تاريخ المغرب والأندلس

الدكتور
أحمد مختار العبادي

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص. ب

في
تاريخ المغرب والأندلس

في

تاريخ المغرب والأندلس

الدكتور

أحمد مختار العبادي

أستاذ التاريخ الإسلامي

بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص. ب ٧٤٩

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ المغرب والأندلس ، وهو مما ألقيته من محاضرات على طلاب جامعات الاسكندرية ، وعين شمس ، والرباط ، وبيروت العربية •

ويلاحظ القارىء من خلال هذا الكتاب أن العالم الاسلامي في الشرق والغرب ، يمثل وحدة تاريخية مهما بعدت بين أجزائه المسافات، وفرّقت بين أطرافه المذاهب والسياسات • فالفرقة السياسية بين العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة ، لم تحل دون لقائهما على الصعيد الحضاري والثقافي والاقتصادي •

هذا ، وسوف يلاحظ القارىء أيضا أن اهتمامنا بالتاريخ السياسي لهذه البلاد ، لم يكن مقصورا لذاته بقدر ما كان مرتبطا بدراسة مقارنة لما بين الشعوب الاسلامية وثقافاتها وأنظمتها وحضاراتها من تداخل وتبادل وترابط •

ولقد سرنا في ترتيب موضوعات هذا الكتاب وفق التقسيم التقليدي المعروف للتاريخ في العصر الوسيط • بدأناه بتعريف عام لبلاد المغرب والأندلس ، ثم الفتح العربي لهذه البلاد ، يليه عصر الولاة ، ثم عصر الدولة الأموية بقسميها : الامارة والخلافة ، ثم نهاية هذه الدولة وسقوطها وتفككها الى دويلات طائفية ضعيفة مهددة بالزوال • وختمنا هذا الموضوع بدخول البطل المغربي وقائد المرابطين يوسف بن تاشفين الى الأندلس ، وانقاذه لها من سقوط محقق بعد انتصاره على الاسبان في موقعة الزلاّقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) •

والله ولي التوفيق .

احمد مختار العبادي

الفصل الأول

التعريف ببلاد المغرب والاندلس

أولا : المغرب :

ثانيا : الأندلس

ثالثاً : صلة المغرب بالاندلس قبل الفتح العربي

التعريف ببلاد المغرب والاندلس

اولاً : المغرب

المراد بلفظ المغرب هو كل ما يقابل المشرق من بلاد . وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله ، فجعله البعض يشمل بلاد شمال افريقيا بالإضافة إلى اسبانيا الإسلامية (الأندلس) وجميع الممتلكات الاسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مثل صقلية ، وجنوب ايطاليا ، وجزيرتي سردينا وقورسيقا ، وجزر البليار أو الجزر الشرقية وهي ميورقة ومنورقة ويابسة Ibiza ويذهب فريق آخر مثل المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي إلى اعتبار مصر أيضاً ضمن مجموعة البلاد المغربية باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة الغربية في الفترة الاسلامية الأولى . وقد يؤيد ذلك ما يرويه ابن عذارى من أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك قلّد عبد الله بن الحبحاب ولاية مصر والمغرب والأندلس ، فكان له من العريش شرقاً إلى المحيط الاطلسي غرباً إلى جبال البرتات Pirineos عند الحدود الفرنسية شمالا [١] . وهي مساحة شاسعة تبلغ في مجموعها نصف مساحة الدولة الاسلامية .

وفي أيام العباسيين زاد مدلول المغرب اتساعا ، فصارت الشام أيضا ضمن

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ـ ٢ ص ٤٠ .

المغرب ، إذ يروي المسعودي أن العباسيين قسموا مملكتهم إلى قسمين وهما : المغرب ويشمل الشام ومصر وافريقية وما يليها غرباً ؛ والمشرق ويشمل بلاد فارس وما يليها شرقا . وعلى هذا الأساس قسم هارون الرشيد مملكته على أبنائه الأمين والمأمون والمؤتمن .

ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السالفة ، فإن جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضي الإسلامية الممتدة غربي مصر إلى المحيط الأطلسي . فهناك المغرب الافريقي ، وهناك المغرب الأندلسي . ولهذا فإن كلمة مغرب أو مغاربة قد تعني أيضاً الأندلس وأهله .

وعلى هذا الأساس كانت مدينة الاسكندرية هي الحد الفاصل بين المغرب والشرق ، ولهذا عرفت باسم «باب المغرب» ، لأنها كانت معبرا لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين إليه سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج . وهذا الموقع الجغرافي قد أعطى مدينة الاسكندرية طابعاً مغربياً ما زلنا نلمس آثاره حتى اليوم .

وهكذا نرى أن مدلول لفظ المغرب في العصور الوسطى كان أوسع من مدلوله اليوم خصوصا بعد أن خرج منه القسم الأوربي وأصبح قاصرا الآن على بلاد شمال افريقيا فقط أو ما يسمى بالمغرب العربي الكبير .

ولقد اصطلح على تقسيم المغرب إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق وهي :

١ — المغرب الأدنى : ويسمى ايضا افريقية ، وكان يشمل جمهورية تونس الحالية وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر . وكانت عاصمته مدينة القيروان أيام حكم الأغالبة ، ثم المهدية أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس منذ عهد الحفصيين إلى اليوم .

٢ — المغرب الأوسط : ويشمل بلاد الجزائر ، وكانت عاصمته مدينة تاهرت في عهد الدولة الرستمية الخارجية الاباضية ، وتقع تقريبا في مكان تيارت

الحالية Tiaret في ولاية وهران Oran غربي الجزائر . وفي أيام الدولة الزيريه الصنهاجية التي خلفت الفاطميين في حكم المغرب صارت العاصمة مدينة أشير التي تسمى حاليا بنيه Benia بالقرب من مدينة الجزائر . ثم انتقلت العاصمة إلى مدينة تلمسان غربا ايام دولة بني عبد الواد أو بني زيان في القرن السابع الهجري . وأخيراً صارت جزائر بني مزغنّة وهي مدينة الجزائر الحالية هي العاصمة حتى اليوم .

٣ ــ المغرب الأقصى : ويعتبر امتداداً للمغرب الأوسط لميوعة الفواصل التي بينهما ، ولذا نجدهما في معظم العصور التاريخية يكونان دولة واحدة . ويعتبر نهر ملويه Moulouya هو الحد الفاصل بينهما ، وهو حد غير ثابت كما ذكرنا ، ولهذا كثرت مشاكل الحدود بين البلدين إلى اليوم .

والمغرب الأقصى يعرف اليوم باسم المملكة المغربية أو المغرب ، ويطلق عليه البعض خطأ اسم مراكش على غرار التسمية الأوربية Maroc أو Marruecos وهو خطأ شائع ، لأن اسم مرَّاكُش (بتشديد الراء وضم الكاف) لا يطلق هناك إلا على مدينة كبيرة على سفح جبال أطلس في الجنوب تعرف أيضا بالحمراء لاحمرار تربتها ولون بيوتها . وعاصمة المغرب الأقصى ترددت بين مدينتي فاس (البيضاء) ، ومراكش (الحمراء). فالأدارسة العلويون أسسوا مدينة فاس سنة ١٩١هـ واتخذوها عاصمة لهم . ثم جاء المرابطون وبنوا مدينة مراكش سنة ٤٦٣هـ واتخذوها عاصمة . ثم اتبعهم الموحدون في اتخاذ مراكش عاصمة كذلك . ثم جاء بنو مرين أو بنو عبد الحق في القرن السابع الهجري ، فاتخذوا مدينة فاس قاعدة لحكمهم ، وتبعهم في ذلك أبناء عمومتهم بنو وطاس في القرن التاسع الهجري ، إلى أن جاء السعديون في القرن العاشر ، ونقلوا عاصمتهم إلى مدينة مراكش . وعاصمة المملكة المغربية اليوم هي مدينة الرباط التي اختارها الجنرال ليوتيه ايام الاحتلال الفرنسي لتكون مركزا اداريا للمغرب سنة ١٩١٢ فظلت عاصمة إلى الآن . ويرجع تاريخ بناء هذه المدينة إلى عهد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي في القرن السادس الهجري وكانت تسمى برباط الفتح ، لأن مكانها في الأصل

كان رباطا على أعداء الاسلام من قبائل برغواطة المارقين عن الدين الحنيف .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن هذا التقسيم السالف الذكر لبلاد المغرب ، مجرد تقسيم اصطلاحي أوجبته الضرورة السياسية أو الإدارية ، لأن المغرب العربي الكبير وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في شتى النواحي الجغرافية والبشرية والاقتصادية والاجتماعية . فالمغرب عبارة عن جزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب (حوالي ٤٠٠٠ ك.م) يحيط بها البحر المتوسط شمالا ، والمحيط الأطلسي غربا . كذلك تحدها من الشمال سلسلة جبال الريف [1] التي تمتد من المحيط غربا إلى قرب تلمسان شرقاً . أما في الجنوب فهناك سلسلة جبال أطلس التي تمتد من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى . ويليها جنوبا الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب عن السودان . وكانت هذه الصحراء تعرف باسم العرق (بكسر العين وسكون الراء) ومعناها في اللغة الأراضي الرملية القليلة المياه . وفي الجزء الغربي من هذه الصحراء أي في المنطقة المتاخمة للمحيط الأطلسي جنوبي المملكة المغربية ، توجد صحراء شنجيط أو شنقيط — ومعناها بالبربرية عيون الخيل — وهي بلاد موريتانيا الحالية التي ما زالت عاصمتها الروحية تسمى باسمها القديم شنجيط ، أما عاصمتها السياسية الحالية فهي مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسي . وقد عاش في تلك الصحراء من قديم قبائل صنهاجة اللثام البربرية أو الملثمون ، كما هاجر إليها من المغرب في القرن السادس الهجري جماعة من عرب بني هلال وهم بنو حسان الذين عربوا تلك المنطقة بلهجتهم الحسانية التي ما زالت موضع دراسة المستشرقين وعلماء اللغة .

والتسمية القديمة لسكان المغرب هي أمازيغ ، وهي كلمة بربرية معناها الرجل الحر الخشن . أما كلمة بربر التي اطلقت على سكان المغرب فهي كلمة

---

(١) تطلق كلمة ريف في مصر على الأراضي الخصبة الداخلية الممتدة على ضفتي النيل . أما في المغرب والأندلس فتطلق على الأراضي التي تحف بالبحر أو المحيط . وكلمة ريف أيضا اسم علم للمنطقة الجبلية الممتدة في شمال المغرب الأقصى كما هو مبين في المتن .

دخيلة Barbaros أطلقها عليهم من غلب عليهم من الأمـــم كالرومان والاغريق والعرب . أما السكان الأصليون فلا يسمون أنفسهم بالبربر ، فلكل قبيلة اسمها الخاص بها ولكن لا يوجد لهم اسم علم عام . والظاهر أن كلمة بربر اسم صوت جاء من أن البربر يحدثون أصواتاً غير مفهومة تغلب عليها الراء والباء حينما يتكلمون أي بمعنى انهم يبربرون في كلامهم ، وقد عبر عن ذلك أحد القدماء بقوله «ما اكثر بربرتهم»!! وتوجد عدة لهجات بربرية في المغرب ، فهناك الشلحة لهجة الشلوح سكان بلاد السوس وجبال أطلس الكبير في أقصى المغرب ، ولهجة تمازرت وهي لغة سكان الأطلس المتوسط ، ثم اللهجة الزناتية لغة سكان جبال الريف في الشمال . وسكان المغرب يشبهون العرب من حيث النظام الاجتماعي القبلي في السلم والحرب ، وقبائلهم كثيرة جدا ، وكان اخضاعها يتطلب حروبا كثيرة من الحكومات التي تداولت حكم المغرب . والحكومة في المغرب تسمى بالمخزن ، ولهذا سميت البلاد الخاضعة لسلطانها ببلاد المخزن ، بينما سميت البلاد الخارجة عن طاعتها ببلاد السِّيبه .

ويرى علماء الاستشلاح أن البربر عموما من أصل حامي اختلطوا من قديم بأصول سامية . أما مؤرخو العرب والبربر الذين عنوا بأنساب البربر وأحوالهم فيرجعون نسبهم إلى أصول عربية سامية ، ويقولون إنهم من أبناء قيس عيلان ويقسمونهم إلى قسمين كبيرين هما :

١ ــ البربر البرانس : وهم البربر المستقرون الذين يعيشون على الزراعة

٢ ــ البربر البُتْر : وهم البربر الرحل سكان البادية الذين يعيشون على الرعي والتنقل .

ولم يحاول مؤرخو العرب والبربر تفسير كلمة برانس ولا كلمة بتر ، ولكنهم يقولون إن البرانس انحدروا من رجل عربي اسمه برنس بن بر بن قيس عيلان . وكذلك البتر انحدروا من سلالة أخيه مادغيس بن بر بن قيس عيلان الملقب بالأبتر . ثم يسوقون في ذلك قصصا تبر ر سبب عجمتهم وهجرتهم إلى المغرب ،

وهي أن جدهم الأعلى بر بن قيس خرج من الحجاز مغاضبا لأبيه واخوته إلى جهة المغرب ، فقال الناس بَرَّ بَرْ أي توحش في البراري ، فسموا بربرا . وفي ذلك يقول أحد شعرائهم :

وشطَّت بِبَرٍّ دارُه عـن بلادنا وطوح برٌّ نفسَه حيث يَمَّما
وأَزْرَتْ ببرٍ لُكْنَةٌ أعجميــة وما كان برٌّ في الحجاز بأعجما

ولا شك أن هذه الروايات موضوعه ، وهي كلها محاولات لتقليد العرب في انسابهم ، واثبات أن البربر عرب أصلا ، وأنهم ينتسبون إلى جنس عربي صميم ، وهذا رأي لا يزال موضع جدال بين علماء السلالات والمؤرخين . ومن الغريب اننا نلاحظ ان تقسيم البربر إلى مجموعتين من البدو والحضر أو البتر والبرانس ، نجده أيضا عند العرب عندما قسموا أنفسهم إلى قحطانية وعدنانية . فالأولون ينتمون إلى أصل يمني وهم أهل حضارة بينما كان العدنانية أصل بداوة . فلعل العرب بعد فتح المغرب حاولوا تطبيق نظامهم الاجتماعي على سكانه بتقسيم البربر إلى هاتين الشعبتين : بتر وبرانس .

بقي أن نشير إلى تفسير لغوي طريف لكلمتي برانس وبتر ، أورده بعض المستشرقين الفرنسيين الذين عنوا بتاريخ البربر حديثا ، وهو أن البرانس جمع برنس وهو اللباس القومي المعروف عند المغاربة . فالبرانس هم الذين يلبسون البرانس كاملة أي بغطاء الرأس ، أما البتر فهم الذين يلبسون هذا الزي أبتزا أو ناقصا بدون غطاء الرأس . ولهذا سموا بترا (جمع أبتر) . فلعل العرب — إن صحت هذه النظرية — أخذوا هاتين التسميتين من هذا اللباس المغربي .

وكيفما كان الأمر ، فإنه واضح من هذا الوصف أن الفوارق بين البتر والبرانس ، هي فوارق اجتماعية واقتصادية وليست فوارق عنصرية أو جنسية لأنهم جميعا من جنس واحد . غير أن هذه الفوارق رغم ذلك أدت إلى وجود حزازات حروب مستمرة بين هاتين الطائفتين لدرجة أن كثيرا من المؤرخين يفسرون

تاريخ المغرب على ضوء هذا الصراع الدائم بين البدو والحضر أو البتر والبرانس .
كذلك يلاحظ أن كثيرا من الغزاة والفاتحين لبلاد المغرب ، قد استغلوا هذا النزاع لتوطيد نفوذهم في تلك البلاد .

ومن أهم قبائل البتر قبيلة زناتة التي خصص لها ابن خلدون جزءاً خاصا من تاريخه المسمى بالعبر . وكانت زناتة بدورها تنقسم إلى عدة قبائل مثل جراوة ، ومغراوة ، وبني يفرن ، وبني مرين ، وبني زيان ، وبني وطاس . وقد انتشرت قبائل زناتة في جميع انحاء المغرب من أقصاه إلى أدناه ، كما انتقلت مع الفاتحين العرب إلى الأندلس .

وكان للزناتيين فن حربي خاص بهم ، يقوم على استعمال الدروع الجلدية ، وركوب الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع . كما كانت طريقتهم في القتال تقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر ، وهي طريقة تختلف عن طريقة الاسبان المسيحيين الذين استعملوا السيوف والدروع الحديدية الثقيلة ، والركاب الطويل المنخفض والخيول المدرعة . وكل هذه الأشياء كانت تعوقهم عن الحركة أمام وثبات الزناتيين وخفة حركتهم . وقد برز هذا النظام بشكل خاص في عهد الدولة المرينية الزناتية في القرن السابع الهجري مما اضطر الاسبان إلى اقتباس هذا الفن الحربي وتطبيقه على بعض فرقهم العسكرية التي سموها بنفس الاسم تقريبا Zenetes أي الزناتيون . ثم لم يلبث هذا اللفظ أن تطور بعد ذلك في اللغة الاسبانية إلى Jinete ، ويستعمل الآن بمعنى الفارس .

ومن أهم قبائل البرانس ، قبيلة صنهاجة التي كانت تتكون بدورها من مجموعة قبائل امتدت بطونها وفروعها إلى مختلف انحاء المغرب . فهناك صنهاجة الشمال في المغرب الأدنى والأوسط ، وهي التي ساندت الدولة الفاطمية وخلفتها في حكم المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر في القرن الرابع الهجري ، وكانت تعرف باسم الدولة الزيرية الصنهاجية نسبة إلى اسم مؤسسها زيرى بن مناد الصنهاجي . وهناك صنهاجة الجنوب التي كانت قبائلها تعيش في صحراء شنجيط او ما يسمى اليوم بموريتانيا في جنوب المغرب الأقصى . ومن أهم قبائلها لمتونة ،

وجدالة ، ومسّوفة ، ولمطة ، وجزولة . وصنهاجة الجنوب هم امتداد لصنهاجة الشمال ، ولكنهم كانوا يختلفون عنهم في أنهم كانوا يتلثمون أو يتقنعون ، ولهذا سموا بصنهاجة اللثام أو الملثمين . ولعلهم أخذوا هذه العادة من الزنوج المجاورين لهم في الجنوب ، والذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة الحاسدة عنهم .

ولقد حدثت انتفاضة دينية اصلاحية في ديار الملثمين في أوائل القرن الخامس الهجري ، فسموا انفسهم بالمرابطين بمعنى المجاهدين ، وخرجوا من صحراء موريتانيا إلى المغرب والأندلس شمالا بزعامة قائدهم يوسف بن تاشفين الذي انتصر على الاسبان في موقعة الزلاقة (سنة ٤٧٩هـ — ١٠٨٦م) وانقذ الأندلس وقتئذ من سقوط مؤكد في يد الأعداء .

وما زالت بقايا الملثمين من صنهاجة يعيشون في صحراء الجزائر الجنوبية ويعرفون باسم الطوارق أو التوارجة .

والبربر عموما يشبهون العرب في صفات الكرم والشجاعة وحدة المزاج وحب القتال ، إلا أنهم كانوا يعتقدون في السحر والشعوذة والتنبؤ . ومثل هذه العقلية تكون عادة سريعة الانقياد للزعماء والقواد الذين يعرفون استغلال هذا الضعف . ولهذا نرى أن كل الحركات السياسية المشهورة في المغرب تزعمها اناس باسم الدين ، واستخدموا السحر والخرافات لجذب الانصار والاتباع . ونلمس ذلك بوضوح في ثورة الكاهنة التي قاومت الفتح العربي للمغرب ، وفي دعوة أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية ، وفي دعوة عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين ، ودعوة عبد الله ابن تومرت الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين وهكذا .

وكان البربر يدينون بأديان مختلفة ، فالمسيحية انتشرت بين البربر المستقرين في المناطق والمدن الساحلية التي كانت خاضعة أو مجاورة للسيادة البيزنطية . كذلك انتشرت الديانة اليهودية من قديم في داخل البلاد حيث انتشر اليهود كتجار ومرابين ، شأنهم في كل زمان ومكان . أما الديانة الوثنية أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية ، فقد كانت منتشرة بين غالبية البربر ولا سيما في البوادي

والجبال والصحراء . غير أن كل هذه الديانات في الواقع ، كانت منتشرة انتشاراً سطحيا ضعيفا ، بمعنى انها انتشرت بالاسم فقط ولم يكن لها غلبة أو نفوذ ، بدليل أن العرب لم يجدوا صعوبة في اجتذاب المغاربة إلى الاسلام ؛ حتى صاروا من أشد الناس تعصبا له ، ودفاعا عنه .

ثانياً : الأندلس :

المراد بلفظ الأندلس اسبانيا الاسلامية بصفة عامة . اطلق هذا اللفظ في بادىء الأمر على شبه جزيرة ايبيريا كلها ، على اعتبار أنها كانت جميعها في يد المسلمين . ثم أخذ لفظ أندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الاسلامية في شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهي آخر مملكة اسلامية في اسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا .

وكلمة اندلس اشتقها العرب من كلمة واندلوس وهى اسم قبائل الواندال الجرمانية التي اجتاحت أوربا في القرن الخامس الميلادي واستقرت في السهل الجنوبي الاسباني وأعطته اسمها ، ثم جاء العرب وعربوا هذا الاسم إلى أندلس . وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الاسلامي في اسبانيا سنة ١٤٩٢م، أطلق الاسبان اسم اندالوثيا Andalucia على الولايات الجنوبية الاسبانية ، وهي المنطقة التي تشمل حتى اليوم ولايات قرطبة واشبيلية وغرناطة .

ويلاحظ أن حكم المسلمين للأندلس دام أكثر من ثمانية قرون ، ولهذا تركوا فيها آثارا مادية وروحية وخلقية واضحة المعالم ولا سيما في الولايات الجنوبية التي استقر فيها العرب حتى آخر أيامهم . فالسمات والعادات واللغة والموسيقى والأغاني والصفات العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالاسبان وعاش بينهم ، واللغة الاسبانية تحتوي على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعبيرات والصيغ العربية الموجودة في تلك اللغة . هذا ولا تزال توجد عائلات مسيحية اسبانية تحمل اسماء عربية مثل بني حسن وبني أمية . أما أسماء الاماكن العربية والمغربية فلا تزال في كل قرية وفي كل ناحية من الأراضي الاسبانية .

ومن أهم الآثار العربية الباقية في اسبانيا نذكر المسجد الاموي بعقوده المزدوجة في قرطبة وهو من أعظم المساجد الاسلامية في العالم ، وقد تضافر على بنائه أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس . وبجوار قرطبة نجد بقايا مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لتكون مقرا لخلافته الجديدة . وفي مدينة اشبيلية نجد المسجد الذي بناه الموحدون وقد تحول الآن إلى كنيسة إلا أن صومعته أو مئذنته لا تزال باقية شامخة وهي الشهيرة باسم خيرالدا La Giralda ، ومعناها الدّوارة من الفعل الاسباني خيرار Girar أي يدور ، لأن الصاعد إلى قمتها يسير في طريق حلزوني واسع بدون درج حتّى قيل إن بعض خلفاء الموحدين كان يصعد بداخلها على ظهر فرسه . وفي مدينة غرناطة نجد قصر الحمراء [1] La Alhambra وهو القصر الملكي لملوك بني نصر أو بني الأحمر في الحقبة الاسلامية الأخيرة في الأندلس ، وهو تحفة فنية رائعة تمثل ذروة الازدهار الفني من حيث نقوشه وأبهائه ونافوراته وحدائقه . وقد صوره المستشرق الاسباني غرسيه جومز بالثمالة الأخيرة أو العصرة الأخيرة لليمونة فهي حلوة ومرة في آن واحد .

أما لفظ اسبانيا [2] فقد كان المراد به شبه جزيرة أيبيريا بوجه عام بما في ذلك الاراضي الاسلامية والمسيحية على السواء ، فهناك اسبانيا الاسلامية أو الأندلس وهناك اسبانيا المسيحية .

وتقع شبه جزيرة ايبيريا في جنوب غرب أوربا ، ويحدها من الشرق البحر المتوسط ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ويفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال البُرت أو البُرتات Pirineos التي تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين مثل ممر هندايا Hindaya في الغرب ، وممر قطالونيا في الشرق ، وممر شيزروا

---

(١) سميت بالحمراء لأن الربوة التي قامت عليها هذه القلعة. تربتها حمراء اللون ولهذا عرفت باسم السبيكة لأنها تكون تحت أشعة الشمس مثل سبيكة الذهب .

(٢) الاغريق أمثال هيرودوت أسموها ايبريا بينما سماها الرومان Hispania اسبانيا وربما هذه الكلمة الأخيرة مشتقة من سفان Saphan يعني أرنب أي أرض الأرانب وربما مشتقة من Hesperia هسبريا أي نجمة الغرب أو أرض الغرب المتاخمة للمحيط .

Roncesvalles في الوسط . ويبدو أن كلمة بُرت مشتقة من كلمــة Porte أى باب أو ممر . ولكن على الرغم من وجود هذه الممرات ، فإن جبال البرتات قد جعلت اسبانيا في شبه عزلة عن بقية أوربا . وتضاريس شبه جزيرة ايبيريا تشبه تضاريس المغرب إلى حد كبير ، فمياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسي تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب حتى إن العرب سموها بجزيرة الأندلس مثل جزيرة المغرب . كذلك نجد جبال البرتات في شمال اسبانيا تشبه في تكويناتها جبال أطلس في المغرب ، وجــبال الثلج Sierra Nevada المعروفة باسم شُلَيْر حول غرناطة تشبه جبال الريف في شمال المغرب ، وسهل الأندلس في الجنوب يقابل سهول تازا وسبو في المغرب . ولا شك أن هذا التشابه الجغرافي كان له أثر كبير في تشابه الأحداث التاريخية للبلدين أيضا .

ولقد استغل المسلمون طبيعة اسبانيا الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس ، خطوطا دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال . فقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط . فمدينة سرقسطة Zaragoza مثلا كانت مركزا للخط الدفاعي الأول في الشمال وهو نهر الابرو Ebro ، ولهذا كانت سرقسطة تسمى بالثغر الأعلى . وتليها جنوبا مدينة طليطلة Toledo التي كانت مركزاً للخط الدفاعي الثاني وهو نهر التاجو Tajo ، ولذا سميت بالثغر الأدنى . وفي أقصى الجنوب نجد نهر الوادي الكبير Guadalquivir الــذي تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة واشبيلية وقادس .

هذا الوضع السياسي والحربي لاسبانيا ، قد جعل تاريخها الوسيط صراعا مستمرا بين المسلمين والمسيحيين ، ولهذا اعتبرت الأندلس في نظر المسلمين ثغرا للدولة الاسلامية وأرضا للجهاد والرباط . ولقد فرض عليها هذا الوضع أن تجند أبناءها منذ الصغر ليكونوا على أهبة الاستعداد في كل لحظة . وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب :

«وكانت الصبيان تدرب على العمل بالسلاح وتعلم المثاقفة كما يعلم القرآن في الألواح». وفي نفس هذا المعنى أيضا أشاد المؤرخون الأسبان بمهارة الأندلسيين في استعمال القوس وترييش السهام وركوب الخيل وغير ذلك من فنون القتال التي تعلموها منذ صغرهم . ولعل الاحتفالات الشعبية التي تقام في اسبانيا حتى اليوم ، ويمثل فيها القتال بين المسلمين والمسيحيين أو ما يعرف باسم Moros y Cristianos ، تعطينا فكرة عن هذه الحياة الحربية التي سادت اسبانيا في العصر الوسيط .

وما يقال عن الأندلس يقال ايضا عن المغرب الشقيق الذي ربط مصيره وامكانياته وأهدافه بالأندلس منذ البداية ، فأعد شعبه ليكون شعبا محاربا قد ترسبت في قرارة نفسه فكرة الجهاد حتى صارت جزءا من كيانه . لهذا يقرن المغرب دائما بالأندلس في جميع الأحداث السياسية والحربية والثقافية التي مرت بالغرب الاسلامي في مختلف العصور .

ويعتبر جبل طارق قاعدة الوصل بين المغرب والأندلس ، ويقع هذا الجبل في اقصى جنوب اسبانيا ، ويبلغ ارتفاع بعض اجزائه حوالي ٤٣٨ مترا . وكان يسمى قبل الفتح الاسلامي بأسماء عديدة أهمها الاسم الفينيقي Mons Calpe أي الجبل المجوف . إذ كان هذا الاسم يطلق أصلا على مغارة كبيرة في هذا الجبل سماها الاسبان فيما بعد باسم مغـــارة القديس ميخائيل San Miguel ثم أطلق عليها الانجليز بعد احتلال هذه القاعدة اسم مغارة القديس جورج . ولعل هذا المغار هو غار الاقدام الذي ورد ذكره في بعض المراجع العربية التي وصفت هذا الجبل لوجود آثار أقدام فيه [١] .

وبعد الفتح الاسلامي لاسبانيا اطلق المسلمون على هذا الجبل اسم الصخرة ، وفرضة المجاز ، وجبل الفتح ، وجبل طارق . وهذا الاسم الأخير هو الاسم المعروف به حتى اليوم في جميع اللغات Gibraltar نسبة إلى فاتح الأندلس الشهير طارق بن زياد .

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ١٢١

أما المضيق نفسه فقد كان يعرف قديماً بأعمدة هرقل Columnas de Hercules نسبة إلى الجبال المحيطة به . وقد كان يظن في القديم أن هذه الجبال هي نهاية العالم وأن هرقل العظيم استطاع بقوته الخارقة أن يفصلها عن بعضها كي تتصل مياه البحر المتوسط بمياه البحر المحيط[1] . ولما فتح المسلمون هذه الجهات أطلقوا عليه اسم مضيق المجاز أو خليج الزقاق أو البحر الزقاقي أو مضيق جبل طارق . ويبلغ طول هذا المضيق حوالي ٨٠ ك.م، كما يبلغ عرضه في اضيق جهاته حوالي ١٥ ك.م، فهو إذن ذراع ضيق من الماء يمكن في يوم صحو رؤية الشاطىء المغربي من الشاطىء الاسباني وبالعكس . وفي ذلك يقول المؤرخ الاندلسي العذري : «والمسافة بين جبل طارق ومدينة سبتة (في المغرب) قريبة جدا ، يرى الناس سورها ودورها ، ويرون بياض ثياب القصارين بها . وتتحرك السفينة من مرسى الجزيرة الخضراء عند بزوغ الشمس فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست بمدينة سبتة» .[2]

ومن الطريف أن المسافر من المغرب إلى الأندلس عبر هذا المضيق يرى جبل طارق من بعيد وكأنه سرج فرس . وقد علق على هذا المنظر المؤرخ الاندلسي ابن سعيد المغربي بقوله : « أقبلت مع والدي من جهة سبتة في البحر نحو جبل طارق ، فبدا لنا وكأنه سرج ، فنظرنا إليه على تلك الضفة فقال والدي أجز :

أنظر إلى جبل الفتـــح راكباً متن لجٍ

فقلت :

وقد تفتّح مثل أل أفنان في شكل سرجِ[3]

مما تقدم نرى أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس ، مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما . فكل من القطرين يعتبر منطقة أمان للآخر وامتداداً له في الدم والجوار ، والأخذ والعطاء ، وفي الصلات التاريخية التكوينات الجغرافية والجيولوجية ، والمواقع

---

(١) Jose Carlos de Luna : Historia de Gibraltar p. 11

(٢) العذري : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك والممالك ص ١١٨.

(٣) المقرى : نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب جـ ١ ص ١٥١ – ١٥٢ .

الاستراتيجية رغم وجود هذا المضيق بينهما . ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الافريقي والأوربي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين : عدوة المغرب ، وعدوة الأندلس . والعدوة معناها الجانب أو الشاطىء .

وهناك مثل فرنسي حديث يقول ان اوربا تنتهي عند جبال البرتات Pirineos أي عند حدود فرنسا الجنوبية . وقد يبدو لأول وهلة أن الفرنسيين أرادوا من وراء هذا القول الإساءة إلى الشعب الاسباني وذلك عن طريق اخراجه من نطاق الشعوب الأوربية واعتباره في عداد الشعوب الافريقية المتخلفة نسبياً ، وربما كان الفرنسيون متحاملين على الاسبان في هذا القول نظراً للعداء التقليدي المتبادل بين الفرنسيين والاسبان ، ولكن ينبغي في الوقت نفسه ألا نهمل ولا نتجاهل الصلات الطبيعية والتاريخية الوثيقة التي تربط اسبانيا بافريقيا في مختلف العصور مما يجعل في هذا المثل الفرنسي شيئاً من الحقيقة .

ثالثا : صلة المغرب بالأندلس قبل الفتح العربي :

يبدو هذا الاتصال الوثيق بوضوح في منطقة العدوتين التي حول مضيق جبل طارق منذ اقدم العصور . فيذهب بعض علماء الجيولوجيا وما قبل التاريخ الى الاعتقاد بأن البلاد المغربية كانت متصلة باسبانيا في أثناء العصور الجليدية في العصر الحجري القديم Paleoletic . ويشير هؤلاء العلماء إلى البقايا العظيمة الإنسانية القديمة التي عثروا عليها في الكهوف والمغارات الساحلية في هذه المنطقة مثل مغارة قلب Calpe (في جبل طارق) ، ومغارة العالية وأشقر بجوار طنجه ، ودار السلطان جنوب الرباط ، والخنزيره جنوب الجديدة (مازيغان) وغيرها . وقد اتخذ الانسان القديم هذه الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ما قبل التاريخ . [1] وعلى هذا الأساس يفترض بعض العلماء أن عبور الانسان العاقل Homo Sapiens إلى أوربا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد في منطقة المضيق وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف .

(١) رشيد الناضوري : المغرب الكبير في العصور القديمة ص ٦٢ .

كذلك حدثت في هذه المنطقة هجرات العناصر الأيبيرية القديمة Iberos إلى اسبانيا ، وهي خليط من العناصر الحامية الليبية في شمال افريقيا .و قد اختلط هؤلاء الأيبيريون في اسبانيا بالعناصر الكلتيــة أو السلتيه Celtos الأوربية القادمة من الشمال ، ومن هذا المزيج تكون الشعب الاسباني القديم Celtiberos وسميت شبه الجزيرة باسمهم ايبيريا

ثم جاء التوسع الفينيقي والقرطاجي في السواحل الشمالية المغربية والسواحل الاسبانية الجنوبية ، فأحدث اتصالا قوياً بين هاتين العدوتين المغربية والاسبانية ، كما اقام لأول مرة علاقات مباشرة بين شرقي البحر المتوسط وغربه حتى ابواب المحيط الأطلسي .

وينحدر الفينيقيون من أصل سامي ، فهم شعبة من الكنعانيين سكان فلسطين الاصليين ، ثم تحركوا إلى غرب الأردن ومنه تسربوا إلى شواطىء سوريا ولبنان حيث استقروا هناك في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . ففينيقيا وكنعان شيء واحد إلا أن الكلمة الأولى ترجع إلى أصل يوناني ، بينما ترجع الثانية إلى أصل سامي . ومن الطريف أن مدلول الكلمتين واحد تقريباً ، فكلمة كنعان السامية تعني اللون الأحمر ، وكلمة فينكس Phoenix التي منها فينيقيا معناها في اللغة اليونانية اللون الأحمر كذلك . وذلك لأن اليونان حينما اتصلوا بشواطىء سوريا ولبنان اطلقوا على سكان تلك النواحي اسم فينكس أي اللون الأحمر ، لأنهم تخصصوا في صناعة الصبغة الحمراء والملابس الارجوانية الزاهية . ومن هنا نجد أن التسمية السامية كنعان، اتفقت مع التسمية اليونانية فينيقيا في المعنى ، كما اتفقت مع التسمية القديمة في الأصل من حيث أن الفينيقيين يمثلون امتداداً كنعانياً نحو ساحل البحر المتوسط .[1]

أسس الفينيقيون دولتهم البحرية عند سفح جبال لبنان على الشريط الساحلي الشرقي لحوض البحر المتوسط . ومن أهم مدنهم عكا ، وجبيل أو جوبله Biblos

---

(١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ــ ٣ ص ٤٣ .

وبيروت ، وصيدا ثم صور وهي ملكة المدائن الفينيقية . وقد تمكنت هذه الدولة الفينيقية الصغيرة بحكم موقعها الجغرافي الممتاز بين شعوب الشرق الادنى أن تتلقى مختلف التيارات الثقافية لهذه الشعوب وان تقوم بنشرها بين سائر الأمم القديمة . كذلك كان وضعها الجغرافي في مساحة ضيقة من الأرض على ساحل البحر ، من العوامل التي دفعت بسكانها إلى البحث عن متسع لهم عبر البحار ، واتخاذ التجارة وسيلة للحياة . وكان هذا الحرص على التجارة هو الذي حمل الفينيقيين على الاتجاه نحو الشاطىء الغربي لحوض البحر المتوسط وكشف المحيط الاطلسي في الألف الثانية قبل الميلاد . فكانوا بذلك اولى الموجات البشرية التاريخية التي وفدت على المغرب واسبانيا من سواحل شرق البحر المتوسط .

ولقد تم التوسع الفينيقي في هذه المنطقة الغربية على مرحلتين :

المرحلة الأولى وهي مرحلة الاكتشاف والمبادلات التجارية دون تأسيس مراكز تجارية في تلك الجهات .

والمرحلة الثانية هي مرحلة التعمير وإقامة القواعد والمستعمرات لاجراء المبادلات التجارية بصورة دائمة مستمرة وذلك في القرن ١٢ ق.م.

وكانت هذه المراكز الفينيقية ساحلية في العادة ، ويسكنها المعمرون الفينيقيون الذين كان هدفهم الأساس هو التجارة مع سكان الأراضي الداخلية دون التدخل في شئونهم الخاصة أو التسلط عليهم سياسياً . ولقد ربط الفينيقيون بين هذه القواعد التجارية بأسطول بحري ضخم يعمل على نقل السلع المختلفة وحمايتها . ومن أهم المستعمرات التجارية التي انشأها الفينيقيون في منطقة العدوتين الاسبانية والمغربية ، نذكر مدينة سكسى Sexi وهي المنكب العربية Almuñecar التي لا تزال مصيف أهل غرناطه على شاطىء البحر المتوسط في جنوب شرق اسبانيا . وفي جنوب هذه المدينة تقع مستعمرة فينيقية أخرى وهي مدينة مالحة ، وهي مالقة الحالية Mâlaga التي كانت مستودعاً لتمليح الأسماك وحفظها كما هو واضح من اسمها . وفي جنوب غرب اسبانيا انشأ الفينيقيون قرب مصب الوادي

الكبير مدينة جادير ومعناها القلعة وقد سماها المسلمون قادس والأسبان Cadiz وهي التسمية الحالية . هذا بالاضافة إلى جبل قلب Calpe وهي التسمية الفينيقية القديمة لجبل طارق ومعناها المغارة كما سبق أن بينا .

أما في العدوة المغربية المقابلة ، فقد أسس الفينيقيون مستعمرات مماثلة على سواحلها مثل مدينة لكسوس Lixus التي حلت محلها مدينة العرائش الإسلامية الحالية ، ومثل مدينة Tingi التي هي طنجة الحالية ، ومثل روسادير وهي مليلية الآن .وهكذا (١) .

وفي حوالي سنة ٨٠٣ ق.م ، أسس الفينيقيون في المغرب الأدنى مستعمرتهم المشهورة قرطاجه Quart Hadasht أي المدينة الجديدة . ولم تلبث هـذه المستعمرة الجديدة أن نمت وازدهرت وحلت محل أمها فينيقيا كقوة تجارية مسيطرة على منطقة العدوتين ومتحكمة في المضيق وما وراءه من البلاد الافريقية الغربية المطلة على المحيط الأطلسي (٢) .

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أن تاريخ العلاقات بين العدوتين في عهد هذه السيطرة الفينيقية والقرطاجية ، لم يكن تاريخاً سياسياً بقدر ما كان تاريخاً اقتصادياً وثقافياً : فحركة المواصلات التجارية كانت مستمرة دائمة بين شمال المضيق وجنوبه ، وصارت مدينة جادير (قادس) مركزاً لتجارة المعادن الاسبانية مثل الفضة والرصاص والملح والقصدير والتبر المستخرج من نهر الوادي الكبير (Betis) . هذا إلى جانب صيد الاسماك وحفظها في مالقة وغيرها ، ولا سيما سمك التونه الذي اتخذته المستعمرات الفينيقية في اسبانيا شعاراً لها ورسمته على نقودها على شكل سمكتين للتونه .

وفي المغرب صارت مدينة ليكسوس (العرائش) مركزاً هاما لتجارة ذهب

---

(١) راجع أبحاث العالم الاسباني ماريانو طراديل M. Tarradel عن العصر الفينيقي الأول في المغرب وعن مدينة ليكسوس في (مجلة تطوان ، العددان الثالث والرابع ١٩٥٨ – ١٩٥٩)

(٢) احمد توفيق المدني : قرطاجنة في أربع عصور ص ٣٣ – ٣٦ (تونس ١٩٢٦) وكذلك : (G. Contenau : La civilisation Phénicienne الترجمة العربية لعبد الهادي شعيره ص ٩٦ – ٩٧، سلسلة المراجع الجامعية رقم١٢) .

السودان وفضة جبال أطلس بالاضافة إلى تجارة الأسماك المحفوظة أيضاً .[١]

أما الناحية الثقافية فأهم ما يلاحظ فيها هو انتشار اللغة الفينيقية السامية بين البربر سكان المغرب . وقد يؤيد ذلك أن اللغات اللاتينية واليونانية لم تستطع فيما بعد محو هذه اللغة من البلاد المغربية . ولعل هذه الظاهرة هي التي ساعدت على انتشار اللغة العربية السامية بين البربر بعد الفتح العربي ، خصوصاً وأن هناك أوجه شبه كثيرة بين اللغتين الفينيقية والعربية . .

ولقد اقترن اسم الفينيقيين باختراع حروف الهجاء ، والواقع انّ الفينيقيين نقلوا هذه الحروف عن الشعوب الشرقية المجاورة كالبابليين والمصريين ثم ادخلوا عليها بعض التحسينات والاضافات واستعملوها في تجارتهم ومعاملاتهم ، فانتشرت عن طريقهم بين الأمم الأخرى ولا سيما اليونان الذين اضافوا إليها بعض حروف العلة ثم نشروها بدورهم في أوربا .

هذا وإلى الفينيقيين يرجع الفضل في تعليم شعوب العدوتين بعض الصناعات المحلية والأساليب الفلاحية ولا سيما طريقة غرس الأشجار مثل غابات الأرز والصنوبر وغيرها مما كان له الفضل في جعل كل من المغرب والاندلس حتى الآن حديقة كبرى وارفة الظلال .[٢]

واستمر القرطاجيون منذ القرن الثامن حتى القرن الرابع قبل الميلاد مسيطرين على بلاد شمال افريقيا وجنوب اسبانيا ، محتكرين اقتصادياتها ، ولم يسمحوا لاية دولة اخرى مشاركتهم في استغلال تلك المناطق ، وحددوا لها الساحل الاسباني الشرقي كأقصى حد غربي يمكن الوصول إليه Non plus Ultra (أي ممنوع المرور بعد ذلك) ولم يترددوا في اغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق .[٣]

---

(١) راجع (André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, I p. 63

(٢) راجع (Henri Terrasse : Histoire du Maroc I p. 46)

(٣) راجع (Bathilde Larsonneur : Histoire de Gibraltar p. 12)

على أنه يلاحظ في القرن الرابع قبل الميلاد بعض التساهل في السياسة القرطاجية عندما غزا الإسكندر المقدوني بلاد المشرق وقضى على المدينة الأم صور / سنة ٣٣٢ ق.م. ، إذ خشيت ابنتها قرطاجة على سلامة ممتلكاتها الغربية من هذه الحركة التوسعية اليونانية ، فسمحت لبعض سفنهم مثل سفن المستعمرة اليونانية ماساليا Massalia (مرسيليا) بالمرور عبر المضيق (مضيق جبل طارق) .

وفي القرن الثالث قبل الميلاد بدأ نجم قرطاجة في الأفول عندما اصطدمت مصالحها بمطامع روما الفتية ، ودخلت معها في صراع طويل عرف في كتب التاريخ باسم الحروب البونيــة أو الفينيقية Bellum Punicum (٢٦٤ — ١٤٦ ق.م.) [1] .

ولقد لعبت منطقة المضيق دوراً هاماً في تاريخ هذا الصراع ، لأن مستعمراتها الغنية كانت هدفاً رئيسياً الفريقين المتحاربين . ولم تستطع قرطاجة استغلال المضيق استغلالا عسكرياً استراتيجياً ، غاية ما في الأمر أنها استخدمت جبل قلب Calpe (جبل طارق) كبرج لمراقبة تحركات السفن الرومانية . ولقد انتهى هذا الصراع بهزيمة جيوش قرطاجة وانتحار قائدهم هانيبال ، وبتدمير قرطاجة وتحويلها إلى ولاية رومانية سنة ١٤٦ ق.م.

وهكذا حل الرومان محل الفينيقيين في اسبانيا والمغرب .

ولقد دام احتلال الرومان لاسبانيا مدة طويلة تقرب من ستة قرون (٢١٨ ق.م — ٤٠٩ م) وهذه المدة كانت كافية لاعطاء اسبانيا الطابع الروماني ، إذ انتشرت فيها اللغة اللاتينية والديانة المسيحية . هذا إلى جانب المنشآت العمرانية الضخمة مثل القناطر وخزانات المياه Acuaductos والطرقات القوية المعبدة التي لا يزال بعضها باقياً ومستعملا إلى اليوم . كذلك أسس الرومان بالقرب من اشبيلية Hispalis مستعمرة جديدة ، اعطوها اسماً يحمل لهم ذكرى ايطــاليا

---

(١) عبد اللطيف احمد علي : روما حـ ١ ص ٩٤ .

وهو إتاليكا Italica . ولا تزال بقاياها بملاعبهــا وحماماتها ونقوشها ورسوماتها الملونة باقية سليمة هناك .

أما في المغرب ، فقد احتل الرومان في بادىء الأمر قرطاجة (تونس) ثم بسطوا نفوذهم تدريجياً على جميع الساحل الافريقي الشمالي . ثم قسموا المغرب الكبير إلى ثلاث ولايات .

١ — افريقية (المغرب الأدنى) ٢ — نوميديا (المغرب الأوسط) ٣ — موريتانيا (المغرب الأقصى)

وفي عام ٤٢م قسمت موريتانيا إلى ولايتين :

١ — موريتانيا القيصرية : وتشمل الجزء الغربي من الجزائر واهمها منطقة وهران Oran

٢ — موريتانيا الطنجية : وهي عبارة عن المثلث الشمالي من المغرب الاقصى وتشمل مدن طنجة Tingi ، وتمودا Tamuda (اندرست الآن وكانت تقع غربي تطوان) ، وسلا Sala (عند مصب نهر ابي الرقراق على المحيط الأطلسي) ثم مدينة وليلي Volubilis جنوباً في اسفل جبــل زرهون ، ولا زالت بقاياها موجودة بالقرب من مدينة مكناس وهي تشبه إلى حد كبير مدينة إتاليكا Italica الرومانية في اسبانيا . ويلاحظ ان كلمة موريتانيا تعني بلاد المور وهي الكلمة التي اطلقها الرومان على المغاربة في اول الأمر ثم لم تلبث ان صارت كلمة عامة في معظم اللغات الأوربية وتعني المسلمين moors, maures, moros .

ولقد ربط الرومان بين هذه المدن المغربية بطرق معبدة ومزودة بالحصون بالحصون والابراج والأسوار والخنادق والمحاربين . وقد عرف هذا الخط باسم ليمس Limes ولا زالت بعض آثاره باقية بالقرب من مدينة الرباط (على بعد ٦ ك.م في طريق الدار البيضاء) .

ولعل من أهم مظاهر الاتصال بين العدوتين المغربية والاسبانية في العصر

الروماني ، انتشار الديانة المسيحية فيهما في وقت واحد تقريباً . ولا ندري بالضبط تاريخ المسيحية في اسبانيا والمغرب ، ولكن من المعروف انه ابتداء من القرن الرابع الميلادي تركزت المسيحية بشكل واضح في جنوب اسبانيا Baetica ثم أخذت بعد ذلك في الانتشار في بقية انحاء اسبانيا وقد يؤيد ذلك المجمع الكنسي الذي انعقد في مدينة إلبيره Illiberis (غرناطة) سنة ٣١٤م.

أما في المغرب فمن الملاحظ من شواهد المقابر والآثار الباقية أن المسيحية انتشرت بشكل واضح في مدينتي طنجة ووليلي في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الميلادي ثم اخذت بعد ذلك في الانتشار جنوباً حتى جبال أطلس . وكل هذا يدل على أن بدأ انتشار المسيحية كان في المراكز الحضارية الرومانية واهمها منطقة العدوتين .

استمر الحكم الروماني في المغرب واسبانيا قروناً عديدة كما ذكرنا ، وفي أوائل القرن الخامس الميلادي تعرضت الامبراطورية الرومانية لهجرات جرمانية واسعة النطاق أتت من شواطىء بحر البلطيق وأراضي الراين والدانوب .

وينقسم هؤلاء الجرمان إلى مجموعتين رئيسيتين : التيوتون ، والقوط . أما التيوتون فيشملون شعوب الفرنجة والألمان والواندال والبرجنديين واللومبارديين . وأما القوط فيشملون القوط الغربيين Visigodos والقوط الشرقيين Ostrogodos .

والواقع ان اتصال الرومان بالجرمان يرجع إلى ما قبل القرن الخامس الميلادي بوقت طويل . فلقد استخدم الرومان عدداً كبيراً من الأسرى والمزارعين الجرمان بحيث يمكن أن يقال إن الأجزاء الغربية من الامبراطورية الرومانية قد اكتسبت صبغة جرمانية قبل سقوطها نهائياً في أيديهم .

ولقد تعرضت اسبانيا — مثل غيرها من الولايات الرومانية — لهجرات القبائل الجرمانية منذ العصور المسيحية الأولى ، ولكن الهجرات الكبيرة التي أتت إليها لم تبدأ في الواقع إلا منذ أوائل القرن الخامس الميلادي . ومن أهم هذه الهجرات ، هجرة قبائل الواندال التي عبرت جبال البرتات في شمال اسبانيا سنة ٤٠٩م ،

واستقرت في سهولها الجنوبيــة (Baetica) التي صارت تعرف باسمهم واندالوس وهي التسمية التي عربها المسلمون بعد ذلك إلى أندلس .

ولقد توالت على اسبانيا بعد موجة الوانْدال ، هجرات القبائل الجرمانية الأخرى ، واهمها قبائل القوط الغربيين الذين اخذوا في مهاجمة الوانْدال والضغط عليهم . وأمام هذا الهجوم القوطي ، رأى ملك الوانــدال جنسريك Genseric أن يهاجر بقومه إلى المغرب . وفي سنة ٤٢٩م عبر بجيوشه التي تبلغ ثمانين ألفا مضيق الزقاق ونزل في العدوة المغربية . ولم يستطع الحاكم الروماني هناك الوقوف في وجه جنسريك ، فانسحب عائداً إلى بلاده ، بينما استولى جنسريك على نوميديا (الجزائر) وافريقية(تونس) سنة ٤٣٩م، ولم يكتف بذلك بل عبر باساطيله إلى روما ونهبها مدة خمسة عشر يوماً ثم عاد ثانية إلى افريقية . وهكذا سيطر الواندال على المغرب الكبير بينما سيطر القوط على اسبانيا . ولقد حرص كل من الفريقين على تجنب الاصطدام بالآخر ، فتحالف ملك القوط مع ملك الواندال وتوجا هذا الحلف برباط المصاهرة .

واستمر الواندال في المغرب ما يقرب من مائة سنة تقريباً ، اندمجوا فيها مع المغاربة لدرجة أن بعض المؤرخين يرجعون صفة الشقرة التي يتميز بها عدد كبير من المغاربة إلى هذه الموجة الواندالية الجرمانية .

وفي سنة ٥٣٣م انتهى حكم الواندال في المغرب على يد القائد البيزنطي بلزاريوس Belisarios قائد الامبراطور جستنيان . ومن المعروف أن بيزنطــة أو القسطنطينية قد حلت محل روما في زعامة العالم الروماني بعد سقوط روما في أيدي البرابرة سنة ٤١٠م . فمنذ ذلك الوقت صار الاباطرة البيزنطيون يعتبرون انفسهم ورثة القياصرة الرومان وخلفاءهم في توحيد الامبراطورية الرومانية واستعادة أراضيها . وقد قطع الامبراطور جستنيان في هذه المرحلة شوطاً كبيراً اذ استولى على شمال افريقيا ، وصقلية وايطاليا كما تمكن من احتلال منطقة الوادي الكبير في جنوب اسبانيا سنة ٥٥٤م . وهكذا سيطر البيزنطيون على منطقة العدوتين ،

واستمروا على هذا الحال مدة سبعين عاماً عندما تمكن القوط من طردهم من جنوب اسبانيا ومن بعض ثغور العدوة المغربية لضمان سلامة دولتهم من أي غزو يأتيهم من الجنوب .

هذه هي الحالة التي كان عليها الأندلس عندما جاء الفتح الاسلامي إلى تلك البلاد . ولا شك أن كل هذه الأحداث التاريخية السالفة واللاحقة ، تفسر لنا ذلك الصراع التقليدي الدائم بين الشاطىء الأوربي والشاطىء الافريقي أو بالأحرى بين عدوتي المغرب والأندلس . فالجوار الجغرافي بين هذين القطرين والتقارب العنصري بين الشعبين ، والتجانس التاريخي للحوادث ، كل هذه العوامل جعلت من العدوتين ومن مضيق جبل طارق منطقة حيوية استراتيجية هامة لكل من الجانبين .

الفصل الثاني

الفتح العربي لبلاد المغرب والاندلس

أولا : فتح العرب للمغرب

ثانيا : فتح العرب لاسبانيا

الفتح العربي لبلاد المغرب والاندلس

اولا : فتح العرب للمغرب

يعتبر الفتح العربي لبلاد المغرب ، نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الإسلامية لتصفية الامبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام ، خصوصاً وأن المغرب في ذلك الوقت كان ولاية من الولايات التابعة لها .

ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء أكانوا عرباً أو بيزنطيين ، أن سياسة التوسع العربي التي قام بها الأمويون في شمال افريقيا ، كانت تهدف في أساسها إلى غزو صقلية وجنوب ايطاليا وسواحل البحر الادرياتي ، أو بعبارة أخرى غزو الامبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب ، إلى جانب الحملات العربية التي كانت سائدة عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق ، كي يتم للمسلمين بذلك تطويق القسطنطينية والاستيلاء عليها .

ويبدو ان اباطرة البيزنطيين قد أدركوا أهداف السياسة العربية بدليل أنهم بذلوا مجهودات كبيرة لحماية الأجزاء الغربية من الامبراطورية لدرجة أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثاني خليفة هرقل ، اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهي ترك عاصمته القسطنطينية سنة ٤٢هـ (٦٦٢م) والإقامة في روما وصقلية ، كي يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن هذه الأجزاء الغربية من

الإمبراطورية في حوض البحر المتوسط، أو كما يقول هو نفسه : « لحماية الأم قبل حماية البنت » ، ويعني بذلك حماية روما أم الملك ومركزه ، فهي أعظم من القسطنطينية بطبيعة الحال . وظل هذا الامبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربي إلى أن اغتيل بيد أحد قواده في مدينة سرقوسه Syracuse شرقي صقلية سنة ٤٨هـ وخلفه ابنه قسطنطين الرابع الذي سار على سياسة والده في مقاومة الزحف العربي في شمال افريقيا .

وتبدأ حملات المسلمين في شمال افريقيا بعد استيلائهم على مصر مباشرة بقيادة عمرو بن العاص . إذ قام هذا القائد بغزو اقليمي برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم أو البيزنطيين الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى،اذ كان يخشى ان يحاولوا استعادة مصرعن هذا الطريق الغربي .

وتشير الروايات العربية إلى أن عمرو بن العاص ، أراد بعد استيلائه على طرابلس أن يغزو ما وراءها من بلاد افريقية ، وانه استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك ولكن الخليفة رفض أن يجيبه إلى طلبه ومنعه من تنفيذه . وهذه الرواية ان صحت ، فإنما تدل على ان عمر بن الخطاب كان يخشى على جيوش المسلمين من أن تنساب وتتبعثر في هذه المناطق الشاسعة ، وهي لم تزل بعد في حاجة إلى توطيد نفوذها وسلطانها في البلاد التي فتحتها واستقرت فيها حديثا كالشام ومصر .

وهذا الرأي يدل على سلامة تفكير عمر بن الخطاب كقائد عربي ممتاز . وبعد مقتل عمر سنة ٢٤هـ ، جاء الخليفة عثمان بن عفان الذي قرر بعث البعوث لفتح المغرب ، وأرسل في سنة ٢٧هـ أخاه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبي سرح والي مصر على رأس حملة قوية اجتاز بها طرابلس واستولى على سفن للروم كانت راسية على الشاطىء هناك . ثم واصل سيره في افريقية إلى أن التقى بجيوش البيزنطيين في مكان يسمى سبيطلة ٢٧هـ (في جنوب غرب القيروان [1]) . وكانت

(١) يلاحظ ان مدينة القيروان لم تكن قد أسست بعد في ذلك الوقت ولكننا ذكرناها هنا لتحديد مكان الموقعة .

الجيوش البيزنطية يقودها حاكم افريقية البيزنطي أو بطريق الروم ، ويسمى جريجور يوس ، ويسميه العرب جرجير .

ولقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة انتصاراً حاسماً ، وقتل القائد البيزنطي جرجير بيد عبدالله بن الزبير (١) الذي ترجع اليه الرواية الاسلامية الفضل الأول في هذا الانتصار . على أن عبدالله بن سعد لم يستطع الاستمرار طويلاً في عملياته الحربية بالمغرب ، إذ اضطر إلى العودة إلى مصر لمحاربة اهل النوبة الذين هددوا مصر من الجنوب ، لذلك عقد معاهدة مع البيزنطيين عاهدهم فيها على اخلاء افريقية في مقابل جزية سنوية كبيرة يدفعونها له .

غير أن هذا الصلح بين الطرفين لم يستمر طويلاً ، اذ عاد عبدالله بن سعد إلى الاشتباك مع البيزنطيين في معركة أخرى ميدانها البحر سنة ٣٥هـ . فيروي المؤرخون ان الأسطول البيزنطي بقيادة الامبراطور نفسه قسطنطين الثاني ، التقى بأسطول مصر والشام بقيادة عبدالله بن سعد عند شواطىء كليكيا في جنوب آسيا الصغرى . وتعرف هذه الموقعة بذات الصواري ، وقد انتهت بأول نصر عربي في معركة بحرية . ويبدو ان انتصار المسلمين جاء نتيجة لخطة غير عادية وهي ربط سفنهم بعضها ببعض بالسلاسل مما جعل من المتعذر على البيزنطيين اختراق صفوفهم . كذلك استخدم المسلمون في الوقت نفسه خطاطيف طويلة كانوا يقذفونها على سفن العدو فيصيبون بها صواريهم ثم يجرونها إلى جوار سفنهم ، فغدت المعركة وكأنها معركة برية .

ويلاحظ أن المكان الذي دارت بقربه هذه الواقعة هو ساحل الأناضول الذي يزخر بغابات السرو والأرز التي تستخدم أشجارها في صناعة صواري السفن . ولعل البيزنطيين قرروا القيام بهذه الحركة ليحولوا بين العرب وبين الحصول على

---

(٢) أبوه الزبير بن العوام ابن عمه الرسول (صفيه) ، وأمه أسماء ابنة أبي بكر الصديق والأخت الكبرى لعائشة ، وهي من السابقات إلى الإسلام . لقبت بذات النطاقين لأنها شقت زنارها قطعتين لتحمل قربة الماء وكيس الخبز إلى النبي وأبي بكر عند الهجرة ، وأخوه مصعب بن الزبير العالم والراوية المعروف .

هذا الخشب اللازم لبناء السفن . وهذا يدلنا على مدى أهمية الخشب في الصراع بين العرب والبيزنطيين في ذلك الوقت .

ولما ولى الخلافة معاوية بن إبي سفيان ، قرر إعادة فتح افريقية ، وعهد بذلك الأمر إلى قائده معاوية بن حديج الكندي ٤٥ه .

وتقدم ابن حديج بجيوشه ، واتخذ في موضع القيروان معسكراً ثابتاً ، ومن هناك أخذ يوجه السرايا إلى مراكز البيزنطيين . مثال ذلك السرية التي قادها عبدالله ابن الزبير الى المدن الساحلية ، واستولى فيها على قابس وبنزرت وسوسه . وفي هذا الميناء الأخير كان الاسطول البيزنطي قد انزل جيشاً بقيادة أحد البطارقة اسمه نقفور لمهاجمة المعسكر العربي ، فحمل عليهم عبدالله بن الزبير بمن معه ، فتراجعوا منهزمين إلى مراكبهم . سرية أخرى أرسلها ابن حديج بقيادة الأمير الأموي عبد الملك بن مروان (الخليفة فيما بعد) إلى حصن جلولاء ، وهو من أهم الحصون البيزنطية ، فحاصره عبد الملك واستولى عليه بعد قتال عنيف . هذا إلى جانب الحملات البحرية التي ارسلها ابن حديج للإغارة على جزيرة صقلية . غير أن هذا القائد معاوية بن حديج لم يستمر طويلاً لاخضاع افريقية ، إذ عزله الخليفة معاوية وولى مكانه القائد التابعي المشهور عقبة بن نافع الفهري .

وهذه هي الولاية الأولى لعقبة ، وقد استمرت من سنة ٥٠ه إلى سنة ٥٥ه (٦٧٠ — ٦٧٥م) . وكان اختيار معاوية لعقبة اختيارا موفقاً ، لأن عقبة يعتبر من أوائل المجاهدين في المغرب ، إذ أنه دخل برقة مع ابن خالته عمرو بن العاص سنة ٢٣ه ، وكان عمره وقتذاك أربعة عشر عاماً ، فظل مرابطاً هناك منذ ذلك الوقت . وفي خلال إقامته في برقة ، شارك في الغزوات التي قام بها المسلمون في افريقية . ففي حملة عمرو بن العاص على طرابلس ، كان عقبة على رأس الجيش الذي اخضع قبيلة لواتة بتلك النواحي . كذلك انضم عقبة إلى حملة عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وأن كنا لا نعرف الدور الذي قام به في تلك الغزوة . كذلك تشير المصادر إلى أنه في الوقت الذي كان فيه معاوية بن حديج

يرسل السرايا إلى الاقاليم الشمالية الساحلية في سوسه وبنزرت وقابس ؛ كان عقبة بن نافع يحارب في الصحراء الجنوبية في فزان ، وودان وما وراءها من الواحات الجنوبية .

وهكذا نرى أن عقبة طوال هذه المدة التي سبقت ولايته ، والتي تقدر بنحو ربع قرن ، كان رجلاً مرابطاً مجاهداً في سبيل الله لدرجة أن بعض الروايات جعلت منه بطلاً اسطورياً بل قطباً عارفاً مستجاب الدعوة .

رأى عقبة في بداية ولايته على افريقية ان يعمل على توطيد نفوذ المسلمين فيها ، وذلك بان يقيم لهم فيها مدينة عربية تكون بمثابة قاعدة عسكرية ثابتة في تلك البلاد المغربية . وعلى هذا الأساس اختط مدينة القيروان . واختار لها مكاناً استراتيجياً هاماً ، إذ جعلها بعيدة عن الساحل خوفاً من غارات البيزنطيين ، وبعيدة عن جوف الصحراء خوفاً من غارات البربر .

وبتأسيس هذه المدينة ، اتخذت العمليات الحربية الاسلامية في المغرب طابعاً ثابتاً مستقراً . قبل ذلك التاريخ كانت هذه العمليات ، مجرد غارات استكشافية للتعرف على الأرض وكسب الغنائم ، تقوم بها جيوش المسلمين ثم تعود بعدها إلى برقة أو مصر دون أن يكون هناك أثر ملموس يدل على معنى الفتح والاستقرار .

وبعد أن أتم عقبة بناء القيروان ، أتى أمر الخليفة معاوية بعزله سنة ٥٥هـ . وعلى الرغم من ان المؤرخين لم يبينوا بوضوح الاسباب التي ادت إلى عزله ، فإنه من المحتمل أن يكون عزل عقبة راجعاً الى سياسة العنف والشدة التي اتبعها في المغرب ، وفي ذلك يقول ابن الاثير : « إنه (أي عقبة) وضع السيف في اهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل اليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام ، فإذا عاد الأمير منهم نكثوا وارتد من أسلم منهم » .

وكيفما كان الامر في أسباب عزل عقبة ، فقد ولى مكانه رجل لا يقل عنه مهارة وخبرة ، وهو أبو المهاجر دينار الذي امتدت ولايته على افريقية سبع سنوات (٥٥ — ٦٢هـ) .

هذا الوالي الجديد لا نجد له في الكتب المعاصرة ذكراً يتناسب مع قام به من جليل الأعمال . فالمؤرخون اهتموا بعقبة وتتبعوا أعماله ، بينما انصرفوا عن أبي المهاجر دينار وأغفلوا شأنه بالرغم من أن أعماله كانت لا تقل خطورة عن أعمال عقبة . ولعل ذلك راجع إلى أن ولاية أبي المهاجر وقعت بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، مما جعل الكتاب يمرون عليه مرا سريعاً .

لم يكن ابو المهاجر مثل عقبة محارباً ممتازاً ، ولكنه كان سياسياً بارعاً ، ترك سياسة العنف مع البربر ، ولجأ إلى سياسة اللين والمداراة معهم محاولاً استمالتهم عن طريق نشر الاسلام بينهم . وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً كبيراً ، اذ اعتنق الاسلام زعيم البربر البرانس واسمه كسيله ، وكان نصرانيا متحالفا مع البيزنطيين ضد العرب .

فاعتناق هذا الزعيم للإسلام ، معناه انضمامه الصريح إلى جانب المسلمين . وكانت النتيجة أن تحالف العرب مع البربر البرانس ، واستطاع أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيله أن يجتاح المغرب الأوسط (الجزائر) وأن يحتل مدنه الساحليه حتى مدينة تلمسان . فابو المهاجر يعتبر أول قائد عربي وطئت أقدامه أرض الجزائر .

وفي سنة ٦٠هـ توفي الخليفة معاوية وخلفه ابنه يزيد الذي كان مقتنعاً بفضل عقبة وحسن بلائه في فتح افريقية ، ولهذا أعاد عقبة إلى ولاية افريقية ، وعزل ابا المهاجر دينار سنة ٦٢هـ . وبذلك تبدأ ولاية عقبة الثانية ومدتها سنتان (٦٢ — ٦٤هـ) .

لم تكن لعقبة تلك النظرة السياسية الهادئة التي كانت لأبي المهاجر ، بل كان رجلاً عنيفاً متشبعاً بذلك الحماس الصوفي الذي يدفعه إلى التماس الشهادة وبيع نفسه من الله ، كما يقول هو نفسه . وهذا الحماس الديني الشديد جعله يسخر من سياسة سلفه ، ويستهين بقوة كسيلة واصحابه بل ويتعمد الإساءة اليهم . ويروى في هذا الصدد أن ابا المهاجر دينار ، — الذي أبقاه عقبة في جيشه — قال له يوماً منتقداً سياسته : « ما هذا الذي صنعت ؟ كان رسول الله (صلعم)

يستألف جبابرة العرب ، وأنت تجيء إلى رجل (أي كسيله) هو خيار قومه ، وفي دار عزه ، وقريب عهد بالكفر ، فتفقد قلبه ؟ توثّق من الرجل فإني أخاف فتكه » . غير أن عقبة لم يهتم بالأمر ، وجمع أولاده وذويه وألقى فيهم وصاياه الاخيرة ، ثم نهض بحملته الكبرى المشهورة التي غزا فيها المغرب من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسي واقتحمه بفرسه قائلاً قوله المأثور :

« اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر ، لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحد سواك » .

ولقد توغل عقبة في بلاد السوس في أقصى المغرب ، وخاض هناك معارك عنيفة مع قبائل البربر ، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله. ثم رأى أن يعود إلى القيروان .

ويبدو أن اخباراً مقلقة قد بلغت عقبة من افريقية ، إذ أنه لم يكد يصل إلى المغرب الأوسط حتى بعث بمعظم جنده إلى القيروان على عجل ، ولم يستبق معه إلا جزءاً صغيراً من جيشه . ومن العجيب أن عقبة حاول بهذا الجيش الصغير أن يقيم في الجزائر قاعدة عسكرية دائمة على غرار القيروان في تونس ، واختار لهذا الغرض بلدة تهوده في أحواز نهر الزاب جنوبي جبال أوراس . واضطر للاستيلاء على هذه البلدة ان يبعد عن خطوط سيره ومواصلاته التي بدأ منها . وهنا يظهر على مسرح الحوادث الزعيم البربري كسيله في حشد كبير من البربر والبيزنطيين . وكان كسيله – كما تقول المصادر – قد استطاع الفرار من جيش عقبة وأخذ يتحين الفرصة المناسبة للانتقام منه . وأمام هذا الحشد الهائل من البربر والروم أحس عقبة بنهاية الأمر . فطلب من الوالي السابق أبي المهاجر الذي كان يصحبه ، أن ينجو بنفسه ، ولكن أبا المهاجر رغب في الشهادة معه ، ودارت المعركة عند . في سنة ٦٤هـ (٦٨٢م) واستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما بيديهما ، على حد تعبير المؤرخ عبيد الله بن صالح [1] . ولا يزال موضع تهوده يعرف اليوم

---

(١) هذا المؤرخ عاش في القرن الثامن الهجري وكتب وصفا لفتح المغرب نشره ليفي بروفنسال في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٤ بعنوان « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » .

بسيدي عقبة وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل بالقرب من مدينة بسكره في جنوب قسنطينة وبها مقام هذا الفاتح العربي الكبير .

كان لنبأ استشهاد عقبة وقع أليم في نفوس المسلمين ولا سيما في مدينة كسيله القيروان التي رآى قائدها زهير بن قيس البلوي ، أن كسيله لن يلبث أن يهاجمه وأنه لن يستطيع له دفعا . فاستقر الرأي على أن ينسحب هو ومن معه من جنود الى طرابلس .

وهكذا لم تنجل مغامرة عقبة عن أي كسب حربي ايجابي ، إلا أنها في الوقت نفسه نبهت الأذهان في أقاصي المغرب إلى هذا الدين الجديد ، ومهدت الطريق أمام قادة المسلمين الذين سلكوا هذا الطريق فيما بعد .

وفي نفس هذه السنة التي استشهد فيها عقبة (٦٤هـ) ، مات الخليفة يزيد بن معاوية ، وصار الأمر لعبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ بعد أن حكم أبوه مروان ابن الحكم فترة قصيرة . ولم يرض الخليفة الجديد أن يضيع المغرب على الاسلام ضياعا نهائيا ، فبعث مددا إلى زهير بن قيس وأمره بأن يستعيد القيروان وينتقم لمقتل عقبة . وكان كسيله قد استبد بالأمر في افريقية ، بينما تحصن البيزنطيون في قرطاجة ، وثبتوا أقدامهم على السواحل التونسية . وتقدم زهير في حملته التأديبية إلى القيروان سنة ٦٩هـ. ولما علم كسيله بمقدم زهير ، انسحب من القيروان إلى مكان حصين جنوبها الغربي يسمى ممس . وهناك في هذا المكان دارت معركة عنيفة بين الفريقين انتهت بهزيمة كسيله وقتله ومطاردة فلول جيشه حتى نهر ملوية .

وهكذا انتقم المسلمون لهزيمة عقبة ومقتله ، وعاد زهير أدراجه إلى طرابلس مكتفيا بما حققه من نصر . ولكن في أثناء الطريق اعترضته قوة بيزنطية أتت من البحر ، فقطعت عليه خط الرجعة ، واحاطت بقواته ، واستشهد زهير ومعظم أصحابه في تلك الواقعة سنة ٦٩هـ، وتوقف الفتح العربي مرة ثانية عدة سنوات .

لم ييأس الخليفة عبد الملك بن مروان لهذه الهزيمة ، فأعد جيشا ضخما من

أربعين ألف مقاتل ، وزوده بأسطول بحري ، وجعل قيادته في يد حسان بن النعمان الغساني .

ولقد اختلف المؤرخون حول تاريخ هذه الحملة ، وأغلب الظن انها كانت في سنة ٧٣ أو سنة ٧٤ﻫ (٦٩٢ — ٦٩٣م) وذلك لأن عبد الملك بن مروان في ذلك الوقت كان قد انتهى من اخماد ثورة عبد الله بن الزبير وقتله سنة ٧٢ﻫ. هذا ويلاحظ أن هذه الحملة الضخمة التي خرج بها حسان إلى افريقية كانت جميع نفقاتها على خزانة مصر . فيروي ابن عذاري أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال لقائده حسان : «إني قد أطلقت يدك في أموال مصر ، فأعط مَن معك ، ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد افريقية على بركة الله ». وواضح من هذا النص أن مصر ساهمت ماليا واقتصاديا كما ساهمت عسكريا ، بنصيب كبير في فتح المغرب . ووصل حسان إلى القيروان واتخذها مركزا لعملياته العسكرية . ثم رأى أن يتبع خطة عسكرية جديدة تقوم على لقاء أعدائه من الروم والبربر منفردين حتى يسهل عليه القضاء عليهم واحدا بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده . وبدأ حسان بقتال الروم ، فاستولى على قرطاجة قاعدة افريقية القديمة ، كما استولى ، بفضل اسطوله ، على المدن الساحلية وطرد الروم منها . وبهذا أخرج من الميدان عنصرا من عناصر المقاومة في المغرب وهو العنصر البيزنطي .

بعد ذلك توجه حسان بكل قواه نحو البربر ، وقد سبقت الإشارة إلى أن أن العرب كانوا قد اخضعوا البربر البرانس وقتلوا زعيمهم كسيله على يد زهير ابن قيس ، وبقي عليهم الآن اخضاع الكتلة الثانية وهي البربر البتر في جبال أوراس ، وكانت تقودهم امرأة تسمى داهية وتلقب بالكاهنة ، وهذا يدل على زعامتها الروحية ، إذ أنها كانت تتنبأ أو تتكهن بالغيب فسميت بالكاهنة لهذا السبب .

والتقى حسان بالكاهنة سنة ٧٥ﻫ في احواز جبال أوراس أي في نفس المنطقة تقريبا التي لقي فيها عقبة مصرعه . وكان قتالا مريرا انتهى بهزيمة حسان وانسحابه إلى اقليم برقة حيث أقام هناك في موضع ما زال إلى الآن يعرف بقصور حسان .

وظل حسان في هذه المنطقة الليبية مدة خمس سنوات يترقب . وكانت الكاهنة خلال هذه السنوات تحكم المغرب الشرقي بمساعدة أولادها .

وهنا تروي المصادر الاسلامية أن الكاهنة رأت أن العرب لا بد وأن يعودوا ثانية إلى افريقية ، وتصورت أنهم لا يريدون منها سوى مدنها العامرة وما فيها من نفائس وخيرات . فلو أنها قامت بتخريب مراكز التمدن وإعادة البلاد إلى طبيعتها الأولى وهي حالة الرعى والبداوة ، فإن العرب لن يفكروا في غزو تلك البلاد مرة أخرى . وتنفيذا لهذه السياسة اندفعت الكاهنة وقومها نحو المدن والأراضي الشمالية يحرقون أشجار الزيتون والكروم مصدر ثروتها ، ويخربون المدن والحصون حتى صارت افريقية أرضا خرابا .

ولا شك أن هذا العمل أثار موجة من الذعر بين سكان تلك البلاد سواء أكانوا من الروم المعمرين أو من البربر البرانس المستقرين هناك . وكانت النتيجة أن فر بعضهم إلى صقلية وايطاليا ، بينما حاول البعض الآخر الدفاع عن أرضه مستنجدا بالقائد العربي حسان بن النعمان . وكان حسان يرقب عن كثب هذا الصراع القائم بين البرانس والبتر ، وسرّه بطبيعة الحال أن تضرب قبائل البربر بعضها بعضا ففي ذلك اضعاف للفريقين .

وانتهز حسان هذه الفرصة المواتية ، وخرج بجيش ضخم إلى افريقية سنة ٨٠هـ. ولا شك أن ضخامة هذا الجيش ترجع إلى انضمام عدد كبير من البربر إلى صفوفه لمحاربة الكاهنة . وتقول الرواية إن الكاهنة تنبأت مقدما بنتيجة هذه المعركة ، وأمرت ولديها بالتوجه إلى معسكر القائد العربي والانضمام إليه ، أما هي فقد قررت أن تحارب حتى الموت .

والتقى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، فهزمها وأخذ يطاردها إلى أن قضى على جيشها وقتلها سنة ٨٢هـ في مكان يعرف ببئر الكاهنة في جبل أوراس.
وكان البيزنطيون في ذلك الوقت قد انزلوا قوات على الساحل واستردوا مدينة قرطاجة وقتلوا الحامية العربية التي فيها . فاتجه حسان إليها وشن عليها هجوما عنيفا

مما اضطر البيزنطيون إلى الفرار في مراكبهم . واسترد حسان المدينة ولكنه أمر بتخريبها كي لا يعاود الروم النزول فيها مرة أخرى .

بعد هذه الانتصارات ، أخذ حسان يعمل على استمالة البربر ، فولى عليهم عمالا وقوادا منهم ، ونخص بالذكر أبناء الكاهنة . كذلك عمل حسان على انشاء قاعدة بحرية اسلامية في المغرب لمقاومة الخطر البيزنطي ، فبنى ميناء تونس شرقي رطاجة ، وكانت قرية صغيرة خاملة الذكر ، فحولها حسان إلى قاعدة حربية بحرية حصينة ، وزودها بدار صناعية لبناء الاساطيل ، كما زودها بالمحارس أو أبراج المراقبة ، واستعان في ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملاحية وبناء السفن . وهكذا اصبحت افريقية مثل الشام ومصر ، مركزا بحريا تخرج منه أساطيل المغرب تحمل راية الاسلام في غرب البحر المتوسط .

كذلك قام حسان بأعمال اصلاحية داخلية مثل توزيع أراضي البيزنطيين على الفلاحين من أهل البلاد ، وتنظيم الخراج على الاراضي ، وتعريب الدواوين . فحسان يعتبر أول من وضع نواة الاسطول الاسلامي المغربي ، وأول من أعطى المغرب طابعا عربيا اسلاميا .

وفي أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ) عزل حسان بن النعمان وولى التابعي المشهور موسى بن نصير . وقد سار هذا الأمير الجديد على تلك السياسة المرنة التي بدأها أبو المهاجر دينار وسار بها شوطاً بعيدا حسان بن النعمان . فعمل على اصطناع البربر ، وأشركهم في جيوشه على نطاق واسع ، كما عهد إلى فقهاء المسلمين بتعليمهم قواعد الاسلام .

وبعد أن وطد موسى نفوذه في المغربين الأدنى والأوسط ، قام بغزو المغرب الأقصى حتى شواطىء المحيط الأطلسي . ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، وكان يحكمها أمير نصراني من قبل القوط أو البيزنطيين يدعى يايان . ورأى موسى ألا يضيع وقته في أخذ سبتة بالقوة ، واكتفى بأن عين مولاه طارق

ابن زياد على ثغر طنجة المجاور لها ، وكلفه بمراقبة سبتة وتشديد الحصار حولها .

ولم يقتصر موسى على هذه الفتوحات البرية ، بل عمل على تقوية اسطوله لضرب القواعد البحرية البيزنطية في حوض البحر المتوسط ، وساعده على ذلك توفر الاخشاب الصالحة لبناء السفن في المغرب . وكان على البربر ، حسب الاتفاق المبرم بينهم وبين العرب ، تقطيع الأشجار ونقلها إلى دور الصناعة بالسواحل المغربية . وهكذا استطاع موسى أن يبني اسطولا قويا وأن يضرب قواعد البيزنطيين في جزر البحر المتوسط مثل صقلية وسردانيا وقورسيقا وجزر البليار ، فشلّ بذلك حركة الاسطول البيزنطي ، وتجنب الخطأ الذي وقع فيه عقبة منذ عشرين سنة لعدم حصوله على اسطول مماثل يحمي ظهره وجناحه مما أدى إلى مصرعه . يضاف إلى ذلك أن موسى استطاع بفضل قوة بحريته أن يقدم بكل اطمئنان على فتح اسبانيا بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته الطويلة من خطر البيزنطيين .

من كل ما تقدم نرى أن فتح العرب للمغرب استغرق مدة طويلة تقرب من الثمانين عاما ، وهي مدة طويلة نسبيا إذا ما قورنت بالفتوحات الاسلامية الاخرى في الأراضي الفارسية والبيزنطية . فمن المعروف أن العرب اجتاحوا العراق والشام ومصر في مدة لا تزيد على العشر سنوات . أما غزو المغرب فقد امتد من عام ٢٣هـ حتى نهاية القرن الأول الهجري . وهذا راجع بطبيعة الحال إلى مناعة بلاد المغرب ، وشدة مراس أهلها وشجاعتهم في القتال وهذا أمر ملموس حتى اليوم (ثورة بطل الريف عبد الكريم الخطابي ، والثورة الجزائرية). ولا شك أن هناك عوامل أخرى خارجية ساعدت على طول هذه المدة التي تم فيها الفتح العربي للمغرب ، مثل انقسام المسلمين على أنفسهم أيام الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان وتوقف الفتوحات الاسلامية نتيجة لذلك . هذا إلى جانب الغارات البحرية التي شنها البيزنطيون على الجيوش العربية لوقف تقدمها في المغرب ، وكانت خبرة العرب بالشئون البحرية قليلة في بادىء الأمر .

غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن المسلمين لم يتمكنوا من السيطرة على

المغرب إلا بعد أن ابتعدوا عن سياسة العنف ، وعملوا على اكتساب قلوب البربر عن طريق نشر الاسلام بينهم ، وادخالهم في الجيوش العربية كجنود محاربين . وهذا يعتبر حدثا فريدا في تطور السياسة العربية في هذه الفترة الاسلامية الأولى ، إذ أن العرب لم يجندوا أهالي البلاد المفتوحة على مثل هذا النطاق الواسع ، وكانوا يعتبرون أعمال السياسة والحرب من صميم اختصاصهم وحدهم . وواضح أن اشتراك البربر مع العرب في جيش واحد ، يرجع إلى تشابه الشعبين في كثير من الصفات والعادات الحربية والاجتماعية .

ولا شك أن اللغة العربية أيضا قد انتشرت تدريجيا بين البربر مع انتشار الاسلام بينهم ، وذلك لكي يتمكنوا من قراءة القرآن وتأدية الصلاة وفهم تعاليم الاسلام . فالبربر إذن قد تعربوا ، واكتسبوا ما تفيده تلك اللغة من تفكير وتعبير ، فصارت لهم نفس العقلية العربية ، وصار يوجد فيهم الفقهاء والشعراء والخطباء ، والمذاهب السياسية والدينية المعروفة في الدولة الاسلامية كالشيعة والخوارج والمعتزلة . كذلك صارت حياتهم ومعاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الإسلامية .

وهكذا نجد أن الفتح العربي للمغرب قد مس صميم الحياة المغربية ونقلها من حال إلى حال ، فهو يختلف تمام الاختلاف عن الفتوحات السابقة له . لقد سبق للفينيقيين والرومان والبيزنطيين أن فتحوا بلاد المغرب وسيطروا عليها مبئات السنين ، ولكنهم لم يحولوا المغرب إلى اقليم روماني أو بيزنطي ، بل ظلوا مجرد جيوش احتلال فقط . أما الفتح العربي فإنه كان أقوى تأثيرا ، وأعمق أثرا من تلك الفتوحات السابقة ، إذ نشأ عنه انتشار دين جديد ، ولغة جديدة ، وثقافة جديدة ، فاندمج المغرب في جسم الدولة الاسلامية ، وصار له طابعه العربي الاسلامي المعروف به حتى اليوم .

وهذا التحول الفريد الذي طرأ على بلاد المغرب ، كانت له آثار ايجابية في فتح الأندلس بعد ذلك ، لأن معظم قبائل البربر أخذت بعد اعتناقها للإسلام تتوق إلى الحرب والجهاد ، ونفسية البربر المغربية مثل نفسية العرب قلقة دائما ،

وتريد الحركة والكفاح . ولا شك أن القائد العربي موسى بن نصير كان على علم تام بنفسية البربر وطبيعتهم ، فرأى أنه إذا تركهم صارت الحياة الاسلامية تافهة بالنسبة لنفوسهم المتعطشة للحروب ، ولهذا حرص على اشباع نزعة البربر نحو الحرب وكسب الغنائم ، بدفعهم إلى الحرب ، وتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية . ولم يكن أمامهم في هذه الحالة سوى عبور مضيق المجاز لتحقيق هذا الغرض .

لهذا نجد أن معظم القائمين بفتح اسبانيا ، كانوا في الواقع من البربر ، أما العناصر العربية فكانت أقلية ضئيلة بالنسبة لهم .

ثانيا : فتح العرب لاسبانيا

أولا – الحالة في اسبانيا قبل الفتح العربي :

كانت اسبانيا في الفترة الاخيرة من الحكم القوطي ، تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا يجعلها فريسة سهلة لأي فاتح يقبل عليها من الشمال أو الجنوب . فإذا نظرنا إلى المجتمع الاسباني في ذلك الوقت ، وجدناه منقسما إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض سيطرة تامة ، فهناك :

اولا : الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء :

وكان الملك القوطي يعين بالانتخاب لا بالوراثة من أسرة الفاتح القوطي الأول ، فالملكية القوطية كانت ملكية انتخابية . وعلى الرغم من محاسن هذا النظام الذي يجعل الحكم للأصلح ، إلا أنه أدى في النهاية إلى وجود تنافس مستمر بين النبلاء للوصول إلى العرش ، فكثرت الدسائس والمؤامرات التي أضعفت من قوة الدولة . وأفراد هذه الطبقة كان نفوذهم غير محدود كما كانت ممتلكاتهم شاسعة ومعفاة من الضرائب .

ثانيا : طبقة رجال الدين :

وأفراد هذه الطبقة كان نفوذهم غير محدود كذلك ، لأن الدين في العصور

الوسطى كان مسيطرا على كل شيء تقريبا لدرجة أن بعض الناس كان يعتقد أن رجل الدين في استطاعته أن يدخله الجنة أو النار . كذلك كان لرجال الدين نفوذ سياسي إلى جانب نفوذهم الروحي ، إذ كان عليهم أن يباركوا الملك الجديد بعد انتخابه ، وهذا يدل ضمنا على اشتراكهم في انتخاب الملك . كذلك كانت ممتلكاتهم العقارية معفاة من الضرائب مثل النبلاء تماما .

ثالثا : الطبقة الوسطى :

هذه الطبقة عادة هي الطبقة العصامية الحرة المستنيرة ، كثرتها تدل على رخاء المجتمع ، وقلتها تدل على اختلاله ، فهي ميزان (ترمومتر) المجتمع . ففي الفترة الأخيرة من حكم الدولة القوطية ، يلاحظ أن هذه الطبقة الوسطى كانت قليلة العدد ، مثقلة بالضرائب ، وحالتها سيئة .

رابعا : الطبقة الدنيا :

هذه الطبقة كانت أكثر عددا من الطبقات السابقة ، وأقل حقوقا . ومعظم أفراد هذه الطبقة كانوا يشتغلون في مزارع النبلاء ورجال الدين ، وهم مرتبطون بالأرض التي يشتغلون فيها ، فهم ملك لصاحبها ، وينتقلون معها اذا بيعت أو انتقلت إلى ملكية شخص آخر ، فهم عبيد للأرض .

خامسا : طبقة اليهود :

هؤلاء اليهود كان عددهم كبيرا في اسبانيا ، وكانوا يقومون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة ، ولكنهم كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم ، وبسبب تعاطيهم الربا ، ولذا تعرضوا للكثير من الاضطرابات ، واضطروا إلى محاولة قلب نظام الحكم عن طريق الثورة حينا ، وعن طريق المؤامرات حينا آخر .

ويبدو أن اليهود في اسبانيا كانوا على اتصال بأبناء ملتهم في شمال افريقيا ، وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الحكم الاسلامي ، وقد دفعهم هذا إلى محاولة اسقاط الدولة القوطية والاستعانة بالعرب .

هذه هي الحالة الاجتماعية في اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ، ونلاحظ فيها مجتمعا فاسدا مفككا غير متماسك .

أما الحالة السياسية التي مرت بها اسبانيا في الثلاثين سنة الأخيرة من حكمها ، فنجد أنها هي الأخرى كانت سيئة وغير مستقرة . ففي عهد الملك Egica (٦٨٧ – ٧٠٢م) انعقدت ثلاثة مجامع دينية هامة :

١ – المجمع الديني الأول سنة ٦٨٨م : وكان هدفه تسوية المنازعات القائمة بين هذا الملك الجديد وورثة سلفه الملك Ervig .

٢ – المجمع الديني الثاني سنة ٦٩٣م : ويدور حول محاكمة اسقف العاصمة طليطلة لانه تزعم مؤامرة ترمي إلى اغتيال الملك وأسرته وبعض أنصاره . وقد قرر المجمع الاكتفاء بعزل هذا الأسقف من منصبه نظرا لمركزه الديني الكبير .

٣ – المجمع الديني الثالث سنة ٦٩٤م : وكان هدفه الحكم في المؤامرة التي دبرها يهود اسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب لإسقاط الدولة القوطية والاستنجاد بالعرب . وقد أصدر هذا المجمع مرسوما بمصادرة أملاك اليهود ، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة ، وتربيتهم في أوساط مسيحية حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة مسيحية . وقد أثار هذا القرار غضب اليهود وحنقهم على الدولة القوطية .

ولقد عمل الملك القوطي Egica على اشراك ابنه غيطشه Witiza معه في الحكم ، ولما مات هذا الملك ، استبد ابنه غيطشة بالملك دون أن ينتظر قرار مجلس النبلاء بانتخابه كما جرت العادة بذلك . ولهذا اشتدت معارضة النبلاء ضده ، وزاد الأمر تعقيدا أن غيطشة حاول هو الآخر أن يقيم ولده وقلة Akhila وليا لعهده . فلما مات غيطشة سنة ٧٠٨م ، كان ابنه وقلة مقيما في احدى الولايات الشمالية ، فأسرع بالعودة إلى العاصمة طليطلة ، ولكنه لم يستطع دخولها وهزم جيشه . واختار الحزب المعارض من النبلاء والقساوسة شخصا آخر بعيدا عن الأسرة المالكة وهو الدوق ردريق أو لذريق Rodrigo ، فأقاموه ملكا على اسبانيا بعد أن عزلوا وقلة بن غيطشة . وهنا ينقسم الجيش والرأي العام على نفسه ، فريق

يوالي الملك الجديد ، وفريق آخر يوالي الملك المخلوع ، وتصبح البلاد في حالة فوضى سياسية .

وهكذا نرى مما تقدم ان اسبانيا فقدت وحدتها السياسية ، كما فسدت حياتها الاجتماعية ، في الوقت الذي ظهرت فيه العدوة المغربية المقابلة كقوة متماسكة تنتهز مثل هذه الفرصة المواتية للتدخل في اسبانيا تحت راية الإسلام . ولكن كان لا بد من وجود سبب مباشر يبرر هذا التدخل . هنا تختلف الرواية العربية عن الرواية الاسبانية حول هذا السبب المباشر الذي من أجله تدخل المسلمون في اسبانيا .

فالرواية الإسلامية ترجعه إلى وازع الانتقام الشخصي ، وتسوق في ذلك قصة ملخصها أن الكونت يوليان حاكم سبتة السالف الذكر ، كانت له ابنة جميلة تسمى فلورندا ، وأنه جريا على عادة الطبقة الراقية في ذلك الوقت ، أرسلها إلى القصر الملكي القوطي بطليطلة لتتأدب وتتعلم فيه أسوة بغيرها من بنات الطبقة الراقية . ثم حدث أن رآها الملك لذريق وأحبها واعتدى على شرفها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فذهب يوليان إلى القصر الملكي وسحب ابنته من هناك وهو يضمر الشر والانتقام . وتضيف الرواية أن الملك القوطي طلب من يوليان أن يرسل إليه صقورا للصيد جريا على عادته ، فرد عليه يوليان بقوله : سأهديك صقورا لم تر العين مثلها ! ويقصد بذلك العرب . ثم اتصل يوليان بموسى ابن نصير وهون عليه غزو اسبانيا مبينا له سوء الأحوال فيها ، فاستجاب موسى لطلبه ، وأقدم على هذا الغزو بعد استئذان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك . .

هذه هي الرواية الإسلامية التي لا نجدها في المصادر الاسبانية المعاصرة ، ولكن بمرور الزمن دخلت هذه القصة العربية في القصص الاسباني والأغاني الشعبية الاسبانية ، وهو ما يعرف في الأدب الاسباني باسم Romancero . ثم لم تلبث هذه الروايات أن اختلطت بالتاريخ الاسباني كما لو كانت حقيقة تاريخية ، وهذا مما دعا بعض المؤرخين الحديثين إلى إنكارها . في هذه القصص والأغاني الشعبية الاسبانية نجد وصفا لجمال هذه الفتاة ، وكيف انها كانت

تهوى السباحة في نهر التاجو بطليطلة ، وكيف رآها الملك وهي تستحم فأحبها ... الخ وتسميها باسم فلورندا ، وإن كانت في بعض الأحيان تنعتها باسم La Cava وهو تحريف للكلمة العربية التي تطلق على المرأة الفاسدة الفاجرة (قحبة).

هذه الرواية العربية الأصل ، يبدو فيها الخيال بشكل واضح ، ولعلها تكون من اختراع القصاص العرب ، شأنها في ذلك شأن القصص العربية الأخرى أمثال ابنة المقوقس حاكم مصر ، وابنة جرجير البيزنطي حاكم افريقية .

هناك رواية اخرى ترويها المصادر الاسبانية المعاصرة كسبب مباشر للغزو العربي لإسبانيا ، ملخصها أن الملك القوطي وقلة Akhila لما عزل من ملكه . ذهب انصاره إلى حليفة يوليان حاكم سبتة طالبين مساعدته ، فقادهم يوليان بدوره إلى موسى بن نصير ، بالقيروان حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه في نظير جزية سنوية يؤديها للعرب . هذه الرواية تبدو أقرب إلى الحقيقة من الرواية الأخرى لأنها تتفق مع طبيعة الأحداث في ذلك الوقت خصوصا وأن مدينة سبتة كانت في ذلك الوقت ملجأ لكثير من العناصر الساخطة على الحكم القوطي .

ثانيا : التخطيط لفتح اسبانيا :

اذا تصفحنا كتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية ، نلاحظ أنها أحاطت هذه الفتوح بهالة من الخيال والتنبؤات ، ونسبت الى المسلمين وقوادهم أعمالا خارقة للبشر ، لأن العناية الآلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم ، وتقودهم الى النصر دائما كما لو كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات[1] .

والحقيقة ان هذه الصورة ، لا تنطبق على الواقع التاريخي ، لأن القيادة العليا

---

(١) حول هذه التنبؤات راجع (ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٩ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٤٠٣ ، تاريخ عبد الملك بن حبيب في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ ص ٢٢١ ، ابن الكردبوس في مجلة معهد مدريد سنة ١٩٦٥ ، عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٧٧ حاشية ٣) .

للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها ، فلم تقدم على على اي عمل حربي ، الا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة ، حفظا لأرواح المسلمين .

وكما كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، نتيجة لخطة موضوعة أقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده في اجتماع الجابية في الجولان جنوبي دمشق سنة ١٨ هـ. كذلك كان فتح المسلمين لاسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضا ، أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق ، باتفاق مع قائده على المغرب موسى بن نصير . وفي ذلك يقول عريب بن مسعد : «فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك اما مراسلة واما نهض اليه موسى بنفسه ، فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين »[١] .

وتنفيذ لأوامر الخليفة ، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب أسبانيا لجس النبض ، فاستدعى في بادىء الأمر حليفه ومحرضه على غزو أسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبتة وقال له : «اننا لا نشك في قولك . ولا نرتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين ملكك روذريق حَمِيَّةُ الجاهلية واتفاق الدين ، فجز اليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، واذ ذاك تطيب النفس عليك ، ونحن من ورائك ان شاء الله» . فانصرف يوليان وحشد جيوشه ، وجاز في مركبين الى الأندلس ، وشن الغارة على الساحل الجنوبي ، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا ، وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو [٢]» .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦ ، وقد أوردت المراجع الأخرى هذه العبارة بصيغ مختلفة مثل قولها : فكتب الخليفة إلى موسى أن خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال ، فكتب إليه موسى : انه ليس ببحر ، وانما هو خليج يبين ما وراءه ، فكتب اليه الوليد : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا .

أنظر (أخبار مجموعة ص ٦ ، الحميري : الروضي المعطار ص ٨ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الكردبوس . المرجع السابق .

ولم يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان ، بل استدعى ضابطا من ضباطه يدعى طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرعة [١] ، وأمره بشن الغارة على ساحل اسبانيا الجنوبي ، فعبر طريق المضيق في مائة فارس وأربعمائة راجل ، وذلك في رمضان سنة ٩١هـ (يوليه سنة ٧١٠م)، وهناك في المكان المعروف باسمه حتى اليوم Tarifa ، نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها الى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سبيا ومالا كثيرا ورجع سالما [٢] ،

فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الاسبانية كان صحيحا ، فيعد جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة قائده طارق بن زياد [٣] نائبه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لأسبانيا ، لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية ، بل كان فتحا منظما حسب خطة . موضوعة من قبل .

---

(١) يراه البعض عربيا يمنيا ويسمونه بالمعافري وان كانت الغالبية ترى انه كان من البربر . هذا ويرد اسمه في المصادر المسيحية على شكل Tarif Abenzarca
راجع (Alfonso el Sabio : Primera Cronica General de Espana t. I, p. 308 (Madrid 1955)

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ .

(٣) اختلف المؤرخون حول شخصية طارق ، فهناك فريق يرى أنه فارسي همذاني وأنه كان مولى لموسى بن نصير . وهناك فريق آخر ينكر ولاءه لموسى ويقال انما هو رجل من قبيلة الصدف – بكسر الدال أو فتحها – أو مولى لهم . والصدف قبيلة في كهلان اليمنية ثم انتشر معظمها في مصر وفي بلاد المغرب حيث توجد قرية باسمهم بالقرب من القيروان . ويفهم من ذلك أن طارق عربي الأصل وهو رأي مشكوك فيه لغموض نسب طارق وقد جرت العادة أن يهتم العرب بأنسابهم . وهناك فريق ثالث يرى أنه مغربي من قبيلة نفزه البربرية وهو الرأي الغالب في نظر المؤرخين بدليل أن معظم جنوده كانوا من البربر .
راجع (المقري : فتح الطيب جـ ١ ص ٢٢٤ ، صفي الدين البغدادي . مراصد الأطلاع جـ ٢ ص ٨٣٥) .

ثالثا : عبور المسلمين الى اسبانيا :

من المسائل الهامة التي نلاحظها في كتابات المؤرخين القدامى والمحدثين ، هي مسألة عبور جيوش المسلمين الى أسبانيا . اذ يفهم من كلامهم أن الجيوش الاسلامية التي بعث بها موسى بن نصير الى الأندلس سواء بقيادة طريف أو طارق ، كانت جيوشا برية فقط ، وأن موسى اعتمد في نقلها عبر المضيق اما على مراكب الكونت يوليان [1] ، واما على مراكب تجار الروم التي كانت تختلف الى الأندلس [2] ، وأن الكونت يوليان هو الذي تولى عملية نقلهم في كلتا الحالتين . والواقع ان هذه الروايات تبدو غريبة من حيث الواقع التاريخي ، اذ أنها لا تتفق مع سياسة الدولة الأموية بوجه عام ، ولا مع سياسة الخليفة الوليد بن عبد الملك بوجه خاص ، التي تقوم على عدم المغامرة بأرواح المسلمين في البحر أو البر الا بعد اتخاذ الاحتياطات الحربية التي تكفل سلامتهم ، مثل انشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وارسال البعوث والسرايا قبل القيام بهجوم حربي .

والأحداث التاريخية السابقة لهذا الغزو الاسلامي لاسبانيا تشهد بصواب هذا الرأي ، خصوصا بعد أن تبين لنا مدى امكانيات موسى بن نصير وخبرته وبلائه في حوض البحر المتوسط .

والرأي الصائب في نظرنا هو أن موسى اعتمد في فتح أسبانيا على أساطيله العربية التي كانت تحت قيادته ورهن اشارته على طول الساحل المغربي ، اذ لا يعقل أن تكون أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف [3] محارب عدا الخيل والعتاد . كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦ المقري . نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨ ، ابن عبد الحكيم : فتوح افريقية والاندلس ص ٩٠ (نشر جاتو A. Gateau) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨ .

(٣) هذا هو الرأي الغالب ، كما ورد في كتاب « أخبار مجموعة ص ٦ ، المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨ وفي روايات أخرى ١٢ ألفا ١٠ آلاف (المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦) .

الى شخص أجنبي — مهما خلصت نيته — بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين .

وعلى الرغم من أن النصوص التي لدينا لا تساعدنا للأسف في تدعيم هذا الرأي ، الا أنها مع ذلك تعطينا اشارات متفرقة تعبر عن النشاط البحري الذي بذله كل من موسى وطارق استعدادا لفتح أسبانيا . ومن أمثلة هذه العبارات :

«ووجه موسى بن نصير مولاه طارقا الى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه [1] »... «وذكروا أن موسى ابن نصير وجه طارقا مولاه الى طنجة وما هنالك فافتتح مدائن البربر وقلاعها ثم كتبَ الى موسى انني قد اصبت ست سفائن ، فكتب اليه موسى أن أتمها سبعا ثم سيرها الى شاطىء البحر واستعد لشحنها[2] »... «ومضى طارق لسبته وجاز في مراكبه «كذا) الى جبل فأرسي فيه فسمي جبل طارق باسمه الى الآن [3] «وأمر موسى طارقا بالدخول فحشد (بياض ولعله السفن) فلما دخل السفن مع أصحابه ...» [4] «فاختلفت السفن بالرجال والخيل وضمهم الى جبل على شط البحر منيع فنزله طارق والمراكب تختلف ...[5]» فلما استقرت لموسى القواعد ولم يبق بالبلاد من ينازعه ، كتب الى طارق يأمره بغزو الأندلس ، فامتثل طارق أمره ، وركب البحر الى الجزيرة الخضراء» [6] هذه العبارات وأمثالها وان كانت قد وردت متناثرة في روايات مختلفة الا أنها تحمل في طياتها نشاطا واستعدادا بحريا واعتمادا على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم .

---

(١) عبد الملك بن حبيب (المرجع السابق ص ٢٢١) .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٥ ، ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٢٠ .

(٣) ابن الكردبوس . المرجع السابق ص ١٢ .

(٤) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٧ .

(٦) ابن خلكان . وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٠٣ .

رابعا : معركة جبل طارق :

من الملاحظات الهامة التي تأخذها على الرواية الاسلامية بصفة عامة ، أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد على الساحل الاسباني ، فقد أجمع معظمها وفي اختصار شديد على أن طارق قد حط في الجبل المنسوب اليه دون أن يلقي مقاومة تذكر . وهذه الرواية تحتاج إلى شيء من التفكير لأن هذا الجبل يمثل موقعاً استراتيجياً هاماً منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فهو همزة الوصل بين عدوتي المغرب والأندلس ، والمتحكم في مضيق المجاز ضد أي عدوان على اسبانيا من هذه الناحية الجنوبية . ولقد أدرك الفينيقيون من قديم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطىء عدوتي المغرب والأندلس ، فأقاموا على هذا الجبل أبراجاً للمراقبين ، ولم يسمحوا لأي دولة أخرى مشاركتهم في استغلال تلك المناطق الغربية ، وحددوا الساحل الشرقي الاسباني كأقصى حدا يمكن الوصول اليه ، ولم يترددوا في اغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق . Non plus ultra (١)

وأطلقوا على هذا الجبل اسم Mons Calpe وهي تسمية فينيقية بمعنى الجبل المجوف ، وهم يعنون بذلك تلك المغارة الكبيرة التي فيه ، والتي سماها الاسبان باسم القديس ميخائيل San Miguel ، كما يسميها الانجليز مغـارة القديس جورج Saint George ، وقد أشار الحميري إلى هذا الغار وقال انـه كان يعرف بغار « الأقدام » لوجود آثار أقدام فيه (٢) .

ولقد تداول حكم اسبانيا بعد الفينيقيين ، أبناؤهم القرطاجنيون ثم بعد ذلك الرومان ثم القوط ، فحرصوا جميعاً على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز ، واتخذوا من جبل طارق قاعدة حربية لهذا الغرض . ولا شك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب المغربي المقابل لهم ،

---

(١) Bathide Larsonneur : Hist. de Gibraltar p. 12 & José Carlos de Luna : Hist. de Gibraltar & Ency. Of Islam art : Gibraltar by Seybold.

(٢) الحميري : الروض المعطار ص ١٢١ .

بل وربما كانوا على علم بنواياهم وخططهم المقبلة، لأن مضيق المجاز الذي يفصل بينهما، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي ١٥ كم، وهي مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين المغربي والاسباني، يضاف إلى ذلك أن الغارات التي شنها كل من يوليان وطريف على سواحل اسبانيا الجنوبية، كانت بمثابة انذار صريح للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي هجوم يقع عليهم من هذه الناحية، فلا يعقل بعد ذلك أن يغفل القوط – مهما بلغ ضعفهم – هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة بدون حراسة أو مراقبة ؟ ! وهذا جعلنا على يقين من أن نزول المسلمين في هذا الجبل لم يكن يمثل هذه السهولة التي تصورها كتب التاريخ. ولقد صدق حدسنا حينما وقفنا أخيراً على نص يؤيد هذا الاعتقاد.

وقد ورد هذا النص في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، للمؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري، وفيه يصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل، والمقاومة التي أبداها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك، ثم حركة الالتفاف البارعة التي قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط في الجبل، والانقضاض عليه فجأة وابادته عن آخره. وفي ذلك يقول :

« فمضى طارق لسبته وجاز في مراكبه إلى جبل طارق باسمه إلى الآن، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطيء كان عزم على النزول فيه إلى البر فمنعوه منه، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم » (١).

هذا الوصف يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم اختلاف الوسائل والعصور، كما أنه يدل بوضوح على عظم المقاومة التي لقيها المسلمون منذ بدء نزولهم في

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء ص١٢ نشر احمد مختار العبادى، صحيفة معهد مدريد ١٩٦٥.

أرض أسبانيا لدرجة انهم اضطروا إلى تغيير خططهم العسكرية التي كانت مقررة من قبل ، والنزول ليلا في مكان آخر صخري وعر ، مستخدمين في ذلك براذع الدواب ومجاذف السفن كي تعينهم على خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الألتفاف حول العدو والانقضاض عليه قبل أن يشعر بهم .

ولا شك أن هذا الانتصار الأول الذي أحرزه طارق عند نزوله ، قد مكنه من احتلال هذا الجبل الذي حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق .

هذا وتنبغي الاشارة هنا إلى أن المؤرخ المغربي ابن عذارى ، الذي عاش بعد ذلك في أواخر القرن السابع الهجري ، قد أورد بعض عبارات النص السابق ، ولكن دون أن يشير إلى هذه المعركة التي خاضها طارق مع القوط في سبيل احتلال هذا الجبل ، وفي ذلك يقول :

« وأول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق ، وذلك لما جاز المسلمون ونزلوا في المرسي وهم عرب وبربر ، حاولوا الطلوع في الجبل وهو حجارة حرش ، فوطأوا للدواب بالبراذع ، وطلعوا عليها ، فلما حصلوا في الجبل بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب [1] » .

خامسا : حرق المراكب وخطبة طارق :

بقيت بعد ذلك تلك القصة الشائعة التي تقول بأن طارق بن زياد قد احرق سفنه بعد نزوله للشاطىء الأسباني ، كي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع أو الارتداد ، ثم خطب فيهم خطبته الشهيرة الطويلة التي يقول في مطلعها : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ... الخ .

والرواية الاسلامية التي تشير إلى حادثة حرق السفن لم ترد — فيما أعلم —

(١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣.

الا في ثلاثة مراجع أحدها كتاب الاكتفاء لابن الكردبوس ، والثاني كتاب نزهة المشتاق للشريف الأدريسي والثالث كتاب الروض المعطار للحميري .

فابن الكردبوس بعد أن يصف المعركة التي خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذي سمي باسمه ، يقول في اختصار شديد : « ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا ! [1] »

أما الادريسي فانه يقول في شيء من التفصيل : « وانما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبدالله بن ونمو الزناتي ، لما جاز بمن معه من البرابر ، وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد ان يزيح ذلك عنه ، فأمر باحراق المراكب التي جاز بها فتبرأ بذلك عما أتهم به [2] » .

ويكرر صاحب الروض المعطار رواية الادريسي مع اختلاف بسيط ولكنه هام فيقول : « وانما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبدالله لما جاز بالبربر الذين معه ، تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه ، فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فأمر باحراق المراكب التي جاز فيها ، فتبرأ بذلك مما أتهم به [3] .

ويفهم من رواية أبن الكردبوس : أن طارق أراد بحرق سفنه أن يشحذهم المقاتلة . أما الادريسي والحميري ، فانه يفهم من كلامهما أن طارقاً أحس بأن العرب لا تثق به ، وقدر أنهم قد لا ينزلون معه إلى الجبل ، وهذا يعني أن خلافاً وقع بين طارق وبين جنوده العرب الذين يعملون تحت قيادته ، فعمد إلى اغراق سفنه كي يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب ، فيتخلص بذلك من التهم التي يوجهونها ضده عند القائد الأعلى موسى بن نصير . وكيفما كان الامر ، فان جمهرة المؤرخين المحدثين يميلون إلى انكار صحة هذه الرواية من أساسها كحدث

---

(١) ابن الكرد بوس ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) راجع (القسم الخاص بوصف الاندلس من كتاب نزهة المشتاق للأدريسي ، نشر وترجمة كوندي ص ٣٦ (مدريد ١٧٩٩) .

(٣) الحميري : الروض المعطار ص ٧٥ .

تاريخي . الا أننا في الواقع لا نستطيع نفيها أو اثباتها ، خصوصاً وأن هناك روايات مشابهة وردت في كتب التاريخ قديماً [1] وحديثاً تشير إلى وقوع أحداثاً مماثلة ، ولعل أقرب مثال لذلك هو تلك القصة التي يرويها أبو بكر المالكي من أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات (٢١٢هـ ، ٨٢٧م) أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده ، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان ، بسبب المجاعة التي حاقت بهم . وفي ذلك يقول : ان أسد ابن الفرات وابن قادم قد اختلفا ، وذلك أن أسد لما وصل بالناس في صقلية ، أضر بالناس الجوع حتى أكلوا لحم الخيل ، فمشى الناس إلى ابن قادم فمضى إلى أسد وقال له : « ارجع بنا إلى افريقية ، فان حياة رجل مسلم أحب الينا من اهل الشرك كلهم ، فقال له أسد : « ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير . » ، فأبى عليه الناس ذلك ، فأراد حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة سيئة، فقال أسد: «على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان» ثم تناوله أسد وضربه ثلاثة أو اربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، فتم له ما أراد وعادت العزيمة إلى الأنفس ، فقاتل الروم قتالا شديداً حتى قتلهم وهزمهم [2] .

وهناك قصة مماثلة يقدمها لنا التاريخ الاسباني وبطلها هو القائد ارنان كورتس Hernan Cortes الذي فتح المكسيك سنة ١٥١٩م ، فيروى أن هذا القائد

---

(١) من الأمثلة القديمة ، ارياط الحبشي الذي لما عبر البحر إلى اليمن أحرق سفنه وألقى على جنده خطبة تشبه خطبة طارق في جنوده ثم تتكرر نفس الحادثة مع القائد الفارسي وهرز الذي بعثه كسرى مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لتحريره من الأحباش وقد أحرق سفنه أيضا وقال لجنوده كلاما مشابها لكلام طارق .

راجع (الطبري : الامم والملوك ج ٢ ص ١١٩ ، جورجي زيدان، العرب قبل الاسلام طبعة دار الهلال ص ١٤٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٩) .

(٢) راجع (أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي : كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٩) .

الأسباني أكتشف مؤامرة دبرها جماعة من قواده للهرب بالسفن إلى أسبانيا ، عندئذ أمر كورتس بانزال الجنود والأمتعة إلى الشاطىء الأمريكي ، ثم دس من خرق السفن وأغرقها ليلاً كي يحول دون تنفيذ هذه المؤامرة (١) .

وهذه الرواية تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن قصة حرق المراكب — ان صحت — كانت شائعة ومعروفة في أسبانيا لدرجة أن بعض القادة الأسبان قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها في بعض أعمالهم الحربية .

هذا ومن الطريف ان الأسبان ما زالوا يستعملون مثلاً شعبياً يقول :

He quemado todas mis maves

ومعناه الحرفي أحرقت جميع سفني ، ولكنه يستعمل بمعنى بذلت كل ما في وسعي . فهل لهذا التعبير الشعبي علاقة بحرق السفن أيضاً ؟

أما من ناحية الخطبة التي ألقاها طارق على جنوده ، فقد وردت في عدة مراجع مثل تاريخ عبد الملك بن حبيب (٢) ، وكتاب نفح الطيب للمقري (٣) ، وكتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري (٤) ، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (٥) . أما عامة المراجع الاسلامية فانها تمر عليها بالصمت التام باستثناء عبارة ابن الكردبوس التي تلخص الخطبة في كلمتين فقط : « قاتلوا أو موتوا (٦) » .

ولقد شك بعض المؤرخين المحدثين في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، على

---

(١) أنظر

Perez Bustamante : Compendio de la Hist. de Espana p. 245
and Aguado Bleye : Manual de la Hist. de Espana II p. 500.

(٢) راجع القسم الخاص بالأندلس من هذا الكتاب ، نشر محمود مكي ، في صحيفة معهد الدراسات الأسلامية بمدريد ، ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ص٢٢٢ .

(٣) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٧ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٤٠٤ ، نشر محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

(٦) القسم الخاص بالأندلس في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٦٥ (تحت الطبع)

اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على صياغتها ، كما لا يقدر جنوده على فهمها لأنهم جميعاً – القائد وجنوده – من البربر .

على أن هذا التعليل وان كان يبدو منطقياً ومعقولاً ، الا أنه لا يمنع من أن طارقاً قد خطب جنده على عادة القواد والفاتحين في مختلف العصور . وان كنا نعتقد في هذه الحالة ، أن الخطبة لم تكن باللغة العربية ، انما كانت باللسان البربري أو الغربي – كما يسميه المؤرخون القدامى .

ثم جاء كتاب العرب بعد ذلك ، فنقلوها إلى العربية في شيء كثير من الخيال والاضافة والتغيير على عادتهم . وقد يؤيد ذلك أن هناك خطباً كثيرة من هذا النوع قيلت في هذه المناسبات ، فابن صاحب الصلاة يشير إلى الخطب التي ألقاها الشيخ الموحدي أبو محمد عبد الواحد بن عمر في الجنود باللسان العربي تارة وباللسان الغربي تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى (١) . ويشير ابن الخطيب إلى شاعر المرينيين أبي فارس عزوز (ت ٦٩٧) الذي خلط المعرب باللسان الزناتي في مخاطباتهم (٢) ، كذلك يشير المؤرخون إلى الكتب العديدة التي ألفها المهدي بن تومرت بالعربية والبربرية ، لافهام الناس تعاليمه ومذهبه ، مثل كتب الامامة والقواعد والتوحيد (٣) .

ولا زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم في بلاد المغرب . فالخطب والأخبار ما زالت تذاع بالراديو بالعربية والبربرية التي تنقسم بدورها إلى لهجات متعددة مثل الشلحة وتمازرت والزناتية .

ومن هذا نرى أنه ليس بعيداً بالمرة أن يكون طارق قد خطب جنوده البربر بلسانهم الغربي ، اذ انه من غير المعقول أن يخاطبوا في ساعات الوغي وفي مقام

---

(١) راجع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ص ٥٠١ نشر عبد الهادي التازي، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٧ ، تحقيق هويسي ميراندا ، تطوان ١٩٦٠) .
(٢) ابن الخطيب : الاحاطة لوحة ٢٧٧ – ٢٧٩ (نسخة الاسكوريال) .
(٣) الحلل الموشيه ص ٨٠ .

الجد بلغة لم يتعلموها أو يفهموها ، فكان استعمال اللسان البربري في هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة .

سادسا : وقعة شذونة :

أقام طارق بن زياد في جبل طارق عدة أيام ، بنى خلالها سوراً أحاط بجيوشه سماه سور العرب (١) . كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة ، وهي مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras التي سميت أيضاً بجزيرة أم حكيم، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ، ثم تركها في هذه البلدة فنسبت اليها . ويلاحظ أن موقع هذه الميناء قريب وسهل الاتصال بمدينة سبتة على الساحل المغربي المقابل ، بينما يصعب اتصاله بأسبانيا ذاتها لوجود مرتفعات بينهما ، وهذا يدل على حسن اختيار طارق لهذا الموقع الاستراتيجي . كذلك أقام قاعدة امامية أخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فصيرهما عسكرين : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق ، والآخر على طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن (٢) » .

وعلم ملك اسبانيا القوطي رذريق Rodrigo خبر نزول المسلمين في بلاده ، وكان وقتئذ مشغولاً في اخماد ثورة قام بها البشكنس Vascos سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا . ومن المحتمل جداً — كما يقول سافدرا Saavedra أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبايعاز من أعداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين في أسبانيا .

---

(١) ذكر ابن جزى مسجل رحلة ابن بطوطة (القرن الثامن الهجري) أنه شاهد بقايا هذا السور الذي بناه طارق . راجع (رحلة ابن بطوطة جـ ٤ ص ٣٥٦ الطبعة الأوروبية) .

(٢) راجع المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع الملك القوطي بالعودة جنوباً بجميع قواته ومعداته وأمواله لملاقاة المسلمين .

وفي خلال ذلك الوقت كان طارق قد زحف نحو الغرب ، متخذاً من المرتفعات الجنوبية الساحلية حامياً له من هذه الناحية الجنوبية ، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بحيرة تعرف باسم لا خندا Laguna de la Janda في كورة شذونه Sidonia

ثم علم طارق من جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها له ملك أسبانيا ، فانزعج طارق لهذا الخبر ، وقد عبر المؤرخون عن هذا الانزعاج بعبارات مختلفة مثل قول ابن قتيبة : « وكتب طارق إلى مولاه موسى : ان الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث ! [1] » وفي هذا المعنى أيضاً يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة : « وكتب طارق إلى موسى يستغذّه ويخبره بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وأن ملك الأندلس قد زحف اليه مما لا طاقة له به ! [2] » .

واستجاب موسى لنداء طارق ووجه اليه مدداً يقدر بخمسة آلاف جندي فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالي اثني عشر ألفاً .

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين المسلمين والقوط والتي توقف عليها مصير اسبانيا في يد المسلمين ، حدثت في كورة شذونه في جنوب غرب أسبانيا ، وأنها دامت ثمانية ايام من الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال سنة ٩٢هـ / ١٩ — ٢٦ يولية سنة ٧١١م [3] ، ويصفونها بأنها

---

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١١٨ .

(٢) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٧ .

(٣) تحديد مدة المعركة بثمانية أيام ورد في عدة مصادر أهمها تاريخ المؤرخ القرطبي أحمد بن موسى الرازي (ت ٣٢٤ هـ — ٩٥٥ م) الذي توجد ترجمته البرتغالية في :
Cronica Geral de Espanha de 1344, ediçao critica de texto portuguese pelo louis Felipe Lindley Cintra Vol. II, p. 331 (Lisboa 1954).
راجع كذلك (كتاب فتح الأندلس لمؤلف مجهول ص٨ نشر المستشرق الأسباني خواكين =

كانت معركة قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالا شديداً حتى ظنوا أنه الفناء [1] ، وأنه لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها ، وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دهراً طويلاً لم تذهب [2] وكان النصر في النهاية حليف المسلمين .

على أننا نلاحظ بصدد هذه الواقعة ، أن الروايات الاسلامية والمسيحية وان كانت قد أجمعت على وقوعها في كورة شذونة ، الا أنها قد أختلفت حول المكان الذي دارت فيه من هذه الكورة الواسعة :

١ — فهناك فريق — أمثال ابن خلدون ، والحميري ، والمؤرخ الأسباني دي رادا الطليطلي Jimenez De Rada — يرى أنها حدثت شمال كورة شذونة عند وادي لكّه Guadalete ، بالقرب من شريش Jerez التي كانت قاعدة لهذه الكورة وتسمى أيضاً باسمها شذونة . ولهذا سموها بمعركة وادي لكّة أو معركة شريش [3] .

٢ — وهناك فريق آخر تزعمه المستشرق الأسباني سافدرا Saavedra يرى أنها حدثت في جنوب كورة شذونة عند اقليم البحيرة ووادي البرباط Rio Barbate ، وهو النهر الذي يخترق هذه البحيرة ويصرّف مياهها غرباً في البحر المحيط . ولكي يدعم رأيه افترض ان اسم وادي لكه الذي ورد في المصادر العربية ما هو الا تحريف لاسم وادي بكّة الذي كان يطلق ايضاً على وادي

= جونتالث (الجزائر ١٨٨٩) ، ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط — القسم الخاص بالأندلس — الذي أعددته للنشر في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٣ و ٢٤٣ ، الحميري : الروض المعطار من ص ١٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٦٩) أما ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة فقد أشارا إلى الموقعة دون تحديد مدتها .

(١) ابن عبد الحكم كتاب فتوح أفريقية والأندلس ص ٩٦ (نشر وترجمة جاتو ، الجزائر ١٩٤٨) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٠ (طبعة بيروت) .

(٣) راجع الحميري . الروض المعطار ص ١٦٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨) . وكذلك (Jimenez de Rada : De Rebus Hispaniae, cap XX) .

البرباط ، لوقوع قرية عليه — اندرست الآن — اسمها بكه فسمي باسمها .[1]

٣ — وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، يرى أن هذه المعركة حدثت عند البحيرة بالقرب من المكان السابق عند نهر سلادو Rio Salado ، وعلى هذا الأساس فسر كلمة وادي لكنّه على أنهــا تعريب لكلمة Lago أو Locus ومعناها البحيرة[2] .

١ — هناك رأي رابع يرى أن الملك القوطي رذريق قتل في مكان يسمى السواقي ، وقد افترض سافدرا أن هذا الاسم تحريف للفــظ Segoyuela وهو اسم بلدة في ولاية شلمنقة Salamanca في شمال أسبانيا . وعلى هذا الاساس بني نظريته القائلة بأن رذريق لم يمت في معركة البحيرة التي انهزم فيها أمام طارق ابن زياد، بل فر شمالا إلى ولاية شلمنقة حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين في معركة ثانية عند البلدة المذكورة آنفاً Segoyuela حيث انتهى الأمر بمقتله هناك سنة ٧١٣م[3] . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن ثبت عدم صحتها بعد أن ظهرت نصوص جديدة لعريب بن سعد ، وابن الشباط ، ولمؤرخ مجهول الاسم في كتاب له بعنوان فتح الاندلس ، تشير كلها بوضوح إلى أن السواقي اسم مكان في كورة شذونة وليس في شمال أسبانيا[4] .

ورأينا في الموضوع بعد كل ما تقدم ، أن هذه المعركة التي توقف عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين ، كانت أكبر وأعظم من أن تحدد بمثل هذه

---

(١) راجــع (E. Saavedra : Esrudio sobre la invasion de. Ios Arabes en Espana pp. 68-60)

ويرى دوزى أن المقصود بوادي لكه هو نهر سلادو الذي يقع في شمال نهر البرباط
(R-Dozy. Recherches I, p. 307

(٢) راجع(Lévi — provençal : Histoire de L'Espagne Musulmane Tome I pp. 20-21) (Paris 1950)

(٣) راجع (Saavedra : Op. Cit. pp. 99-100)

(٤) راجع التفاصيل في (أحمد مختار العبادي تاريخ الا ندلس ووصفه لا بن الكردبوس وابن الشباط نصان جديدان ، مجلة معهد الدراسات الا سلا مية بمدريد (تحت الطبع) .

الاماكن المحدودة الضيقة ، اذ يبدو — كما هو واضح من النصوص — انها معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق أرض أسبانيا، وحشد فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح ، لدرجة روعت طارق وأزعجته وجعلته يسارع في طلب المزيد من القوات . ولا شك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة ، وهذا الهدف الخطير ، وهذه المدة الطويلة التي استغرقتها في صراع وطراد ومتابعة ، لا بد وأن تكون معركة عظيمة تليق بهذا الفتح العظيم ، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذونة أو شمالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة ، فهي معركة كورة شذونه بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها .

ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ما ورد في كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة ، وادي لكة ، وادي بكة ، وادي البرباط ، شريش ، السواقي ، ما هي في الواقع الا تسميات لتلك الاماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة في أراضي كورة شذونة .

هذا ، وقد يشفع لنا في هذا الرأي ، أن جميع المعارك التي حدثت بعد ذلك في بقية أنحاء اسبانيا ، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الفاصلة ، بحيث لم يستغرق استيلاء المسلمين على أسبانيا بعد ذلك ، رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها أكثر من ثلاث سنوات ، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد انتهت تقريباً .

سابعا : اتمام فتح اسبانيا :

لا شك أن هذا النصر العظيم الذي حققه طارق في معركة شذونة ، قد فتح أبواب الاندلس للمسلمين ، فاتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالا نحو العاصمة طليطلة ، وفي أثناء زحفه اعترضته قلعة استجه Ecija واستولى عليها ، وفي الوقت نفسه أرسل أقساماً من جيشه إلى المناطق الجانبية ، فاتجه قسم إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي ، مولى عبد الملك من مروان ، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، واتجه قسم آخر إلى البيرة ونواحيها واستولى عليها .

وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين في اسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم ، ولهذا اعتمد طارق عليهم في حفظ البلاد المفتوحة ، في الوقت الذي كان فيه الجيش الاسلامي متفرغاً لعملية الغزو .

واستمر طارق في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة ، فدخلها دون مقاومة تذكر ، اذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريباً (١) ، وهنا تشير المصادر العربية باسهاب إلى الكنوز والذخائر التي غنمها المسلمون من كنائس المدينة وقصورها .

ثم خشي طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه ، وثقلوا بالغنائم التي جمعوها ، فاستنجد طارق بقائده موسى ابن نصير .

وفي شهر رمضان ٩٣هـ (يونيه ٧١٢م) عبر موسى المضيق بجيش كبير من ثمانية عشر الف مقاتل ، معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية ومن بينهم عدد من التابعين ، وقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى بطالعة موسى .

وسار موسى في طريق غربي غير الطريق الذي سلكه طارق ، واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق ، مثل قرمونة Carmona واشبيليه Sevilla ، وماردة Mérida ثم التقى بطارق عند نهر التاجو Tajo بالقرب من العاصمة طليطلة .

ثم تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت Pirinios في أقصى الشمال ، وأخذت المدن تتساقط في ايديهما تباعاً مثل سرقسطة Zaragoza ووشقه Huesca ولاردة Lerida ، حتى بلغا شاطىء البحر الشمالي Cantabrico عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت اوامر الخليفة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٧ (طبعة بيروت) .

الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ، فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير في اواخر ٩٥هـ (٧١٤م) .

بقيت مسألة أخيرة يحسن أن نقف عندها قليلاً ، وهي ما أثارته بعض الروايات العربية من أن موسى لما علم بانتصار طارق ، حقد عليه وداخله الحسد والغيرة ، وخشي أن ينسب إلى طارق شرف هذا النصر ، فصمم على الاشتراك في القتال ، وأبت عايه نفسه أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه طارق من قبل ، فأقسم بأن يسير في طريق آخر أنفة وكبرياء .

وواضح أن أصحاب هذه الرواية ، قد نظروا إلى مشروع هذا الغزو العظيم من زاوية شخصية ضيقة تافهة ، اذ لا شك أن كلا القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر .

وواضح من تحركات الجيوش الاسلامية في الاندلس ، أن خطة الغزو كانت موضوعة ومدبرة تدبيراً محكماً ، وهي كما رأينا تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث : طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وتنتهي حركة الالتفاف أو التطويق هذه ، بالتقاء القائدين عند العاصمة القوطية نفسها .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيرة أيبيريا Iberia في يد المسلمين، ولم يبق منها الا بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهي كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبرى .

أما شرق الاندلس El Levante ، فقد فتح على يد الأمير عبد العزيز ابن موسى بن نصير الذي خلف على ولاية الأندلس ، وكانت المقاومة في هذه المنطقة قد تركزت في كورة تدمير [1] وقاعدتها الحصينه أوريوله Orihuela .

---

(١) تدمير هو الاسم القديم لمرسية Murcia ففي ٢١٦ هـ ٨٣١ م اختطت مدينة مرسيه أيام الأمير عبد الرحمن الاوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسيه

وقد سميت هذه الولاية بهذا الاسم نسبة إلى اسم صاحبها الأمير القوطي تيودومير الذي استطاع بفطنته وذكائه أن يحصل من عبد العزيز على شروط حسنة ضمنت له استقلاله بولايته في مقابل جزية سنوية. وتسوق الرواية الاسلامية في ذلك قصة طريفة تتلخص في ان تدمير حينما شعر بقلة رجاله وخطورة الغزو الاسلامى ، أمر النساء بنشر شعورهن ، والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسوار حصن أوريوله والرماح في أيديهن ، فخيل للمسلمين أن حامية المدينة ، كبيرة العدد فقبلوا مبدأ المفاوضة ، ونزل اليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول ، وأخذ يفاوض عبد العزيز حتى استطاع أن يعقد معه صلحاً على نفسه وماله وأهل بلدته . ولما تم الصلح كشف تدمير عن شخصيته ، وادخل المسلمين المدينة ، فلم يجدوا فيها الا عدداً قليلاً من الرجال (١) .

على أن الذي يهمنا في هذا الصدد هو نص هذه المعاهدة الذي وصل الينا عن طريق بعض المؤرخين الاندلسيين أمثال العذري (ت ٤٧٨هـ) والضبي (ت ٥٩٨هـ) ، وهذا أمر مهم في حد ذاته لأن المراجع العربية لم تحفظ لنا أمثال هذه المعاهدات القديمة التي يزخر بها التاريخ الاسلامي .

والمعاهدة تنص على ان سكان هذه الامارة آمنون على أرواحهم وممتلكاتهم ، وأن لهم الحرية التامة في القيام بشعائرهم الدينية في كنائسهم . وفي مقابل ذلك يتعهد أميرهم تدمير بألا يخفي على المسلمين أخبار الأعداء ، وأن يدفع كل فرد من رعاياه كجزية سنوية مبلغ دينار نقداً إلى جانب مقدار من العصير والقمح والشعير والعسل . أما العبيد فيدفعون نصف هذا المقدار (٢) .

= بعد ذلك أن صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميت الكورة كلها باسمها . راجع العذري : المسالك والممالك ص ١ — ١٠ نشر عبد العزيز الأهواني .

ابن الابار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦٣ ج ٢ ص ٣١٦ نشر حسين مؤنس .

الحميري : الروض المعطار ص ١٨١ نشر ليفي بروفنسال) .

(١) راجع (المقري : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ ، أخبار مجموعة ص ١٣) .

(٢) راجع نص هذه المعاهدة في (الضبي : بغية الملتمس في تاريخ علماء الأندلس ص ٢٥٩ ؛ احمد العذري : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ص ٤ — ٥) .

أما الركن الشمالي الغربي ، وهو الاقليم المسمى بأشتوريش Asturias ، في منطقة جليقية أو غاليسيا Galicia ، فان المسلمين في الواقـع لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها ، فأهملوا جانبها زهداً فيها واستهانة بشأنها . ولهذا استطاعت بعض فلول الجيش القوطي المنهزم بزعامة قائد منهم يدعى بلاي Pelayo (ت ٧٣٧م) أن تعتصم بالجبـال الشمالية في هذه المنطقة ، وهي التي يسميها الاسبـان بقمم أوربا Picos de Europa وهي عبارة عن ثلاثة جبال شامخة، القمة الغربية منها تسمى أونجا Onga وبها مغارة تعرف بكهف أونجا أو كوفادونجا Covadonga (١) ويسميها العرب صخرة بلاي لأنه اختبأ فيها هو واصحابه حينما حاصرهم المسلمون ، وعاشوا على عسل النحل الذي وجدوه في خروق الصخر (٢) . ولما أعيي المسلمين أمرهم ، تركوهم وانصرفوا عنهم استخفافاً بشأنهم وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم ؟ (٣)

والمصادر الاسبانية تجعل من انسحاب المسلمين عن كوفادونجا نصرا عسكرياً وقومياً كبيراً للاسبان ، بل وتذهب إلى أن العناية الالهية قد تدخلت في صالحهم ، فصارت سهام المسلمين ترتد إلى صدورهم ، كما انهارت عليهم قطعة من الجبل فقتلتهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم المسمى علقمة (٤) . أما المصادر العربية فانها وان كانت تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة القاحلة الباردة ، الا أنها لا تذكر شيئاً عن القائد علقمة ولا عن الاساطير الخرافية السالفة الذكر (٥) .

---

(١) أصلها Cueva do Onga .

(٢) ما زالت خلايا النحل منتشرة في هذا المكان الذي أصبح من المناطق السياحية الهامة هناك – لعل الأسبان أرادوا بذلك أن يضعوا المشاهدين في نفس هذه الصورة القديمة .

(٣) راجع روايات الرازي والمسعودي وابن حيان وابن سعيد حول هذا الموضوع في (المقري : نفح الطيب ج ٦ ص ٨٢ وما بعدها) وهي كلها تعترف بالخطورة التي نجمت عن اهمال أو احتقار المسلمين الأوائل لهذا الموقع .–

(٤)

(٥) يرى الدكتور حسين مؤنس أن المراجع الاسلامية وان كانت لم تذكر صراحة اسم هذا القائد علقمة اللخمى ، الا أنها أشارت في مناسبات أخرى إلى ولديه عبد الرحمن وتمام ، ضمن القواد الذين حاربوا في جنوب فرنسا . راجع كتابه فجر الأندلس ص ٣٢١ وما بعدها .

وكيفما كان الأمر ، فالمهم هنا أن في هذه البؤرة الصغير كوفادونجا ، نبتت نواه دولة أسبانيا النصرانية ، ونبتت معها حركة المقاومة الاسبانية الّتي أخذت تنمو وتتسع حتّى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية الّتي صارت تعرف بمملكة ليون . ولقد احاطت هذه المملكة نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم منطقة القــلاع ، بينما أسمتهـــا المصادر الاسبانية Castellas أي القلاع كذلك. كان أمراء هذه القلاع تابعين لملوك ليون ، الا انهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي كي يتمكنوا من محاربة المسلمين ، كذلك كانت أنظمتهم الادارية بعيدة كل البعد عن النظام الاقطاعي السائد في مملكة ليون نفسها ، اذ انتشر بين أهالي تلك المنطقة نظام الملكيات الصغيرة ، حتّى يتمكن كل فرد منهم أن يدافع عن أرضه وأهله وأمواله . ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن العاشر الميلادي بزعامة أقوى أمرائها فرنان جونثالث Fernan Gonzales ، واستقلت عن مملكة ليون وصارت تعرف بامارة Castilla وقد عرب المسلمون هذه اللفظ إلى قشتاله وقشتيله .

ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة قشتاله ذات الأصل الساذج البسيط ، تنمو وتتسع شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتّى سيطرت على جميع انحاء اسبانيا ، بل وامتد نفوذها بعد ذلك إلى أمريكا مع حركة الكشوف الاسبانية الحديثة ، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الاسبانية الرسمية السائدة في اسبانيا ودول أمريكا اللاتينية فيما عدا البرازيل الّتي تتحدث البرتغالية .

وقد يكون في هذا الكلام شيء من الاستطراد ، ولكنه استطراد مفيد ما دام يعبر عن المعنى التاريخي الكبير الذي يستتر وراء حادثة بسيطة مثل حادثة كوفادنجا ، ومن هنا ندرك السبب الذي جعل الاسبان يهتمون بعمارة هذا الموقع ، وجعله منطقة سياحية ، ويضعون بلاي في مصاف القديسين ، ويحجون اليه في كل عام ، لأن العبرة هنا ليست في التفاصيل المادية البسيطة لحادثة كوفادونجا ذاتها ، وانما في الآثار والفوائد السياسية والقومية الكبيرة الّتي ترتبت عليها .

مراحل الحكم الاسلامي في الاندلس :

كانت نهاية كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد يحوطها الغموض . فالرواية الاسلامية تشير إلى أن موسى حينما بلغ جبال البرانس شمالاً طمع في عبورها وغزو ما وراءها من بلاد مخترقاً أوربا شرقاً حتى القسطنطينية . وأنه كان يأمل في الاستيلاء على هذه العاصمة البيزنطية بعد أن عجز المسلمون عن غزوها من ناحية الشرق . ولما علم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بهذا المشروع لم يوافق عليه وأمر موسى بالعودة إلى دمشق خوفاً على أرواح المسلمين من هذه المغامرة الغير مأمونة العواقب . وتنفيذاً لأوامر الخليفة ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ثم رحل إلى الشام ومعه الشيء الكثير من غنائم الأندلس . وفي فلسطين قابلة الامير سليمان بن عبد الملك اخو الخليفة الوليد وولي عهده ، وطلب من موسى التريث قليلاً لأن الخليفة مريض جداً وصائر لأجله عن قريب ، وذلك لكي تؤول اليه هذه الغنائم . ولكن موسى لم يقبل هذا العرض وواصل سيره إلى العاصمة دمشق فبلغها والخليفة يحتضر . ثم ولي سليمان بعد موت أخيه ، وكان حاقداً بطبيعة الحال على موسى ، فاضطهده واتهمه باختلاس اموال الدولة وصادر امواله ونفاه إلى الحجاز حيث أمضى بقية حياته يستجدي القبائل لسداد ديونه . أما طارق بن زياد فالمعروف أنه قدم مع موسى إلى المشرق ثم بعد ذلك الى لا نعرف عنه شيئاً مطلقاً .

وهكذا تنتهي قصة هذين البطلين بهذا الصمت والغموض .

ولقد اصطلح المؤرخون على تقسيم الحكم الاسلامي في الأندلس إلى العصور التالية : —

اولاً : **عصر الولاة** : ويمتد من الفتح العربي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس أي من سنة ٩١ — ١٣٨هـ (٧١١ — ٧٥٦م) . وفي هذا العصر كانت الاندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق .

ثانياً: **عصر الدولة الأموية**: وهو أزهى العصور الأندلسية وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول : (من ١٣٨ — ٣١٦هـ — ٧٥٦ — ٩٢٩م) وفيه كانت الأندلس امارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في المشرق .

وتداول حكم هذه الامارة ، الأمراء الأمويون الآتية اسماؤهم : —

١) عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل (١٣٨ — ١٧٢هـ — ٧٥٦ — ٧٨٨م)

٢) هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠هـ — ٧٨٨ — ٧٩٦م)

٣) الحكم بن هشام (الربضي) (١٨٠ — ٢٠٦هـ — ٧٩٦ — ٨٢٢م)

٤) عبد الرحمن الثاني أو الأوسط بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨هـ — ٨٢٢ — ٨٥٢م)

٥) محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣هـ — ٨٥٢ — ٨٨٦م)

٦) المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٧٥هـ — ٨٨٦ — ٨٨٨م)

٧) عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠هـ — ٨٨٨ — ٩١٢م)

القسم الثاني : (من ٣٠٠ — ٤٢٢هـ — ٩١٢ — ١٠٣١م)

وفيه صارت الأندلس خلافة مستقلة سياسياً وروحياً عن الخلافة العباسية بالمشرق ، وتداول الحكم فيها عدد كبير من الخلفاء الأمويين نكتفي بذكر أوائلهم :

١) عبد الرحمن الثالث وهو اول من أعلن نفسه خليفة وتلقب بالناصر لدين الله .

(٣٠٠ — ٣٥٠هـ — ٩١٢ — ٩٦١م)

٢) الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ — ٩٦١ — ٩٧٦م)

٣) هشام الثاني المؤيد بـــن
الحكم المستنصر (٣٦٦ – ٣٩٩هـ – ٩٧٦ – ١٠٠٩م)

ومنذ عهد الخليفة هشام المؤيد صارت السلطة في يد صاحب الدولة المنصور بن ابي عامر ، واستمرت في يد ولديه المظفر ثم عبد الرحمن الملقب بشنجول .

وانتهت الدولة الاموية سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) .

ثالثا : عصر ملوك الطوائف : (من ٤٢٢ – ٤٧٩هـ – ١٠٣١ – ١٠٨٦م) .

ويبدأ بسقوط الدولة الأموية في الاندلس وتفكك الدولة إلى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الاسبان في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦م .

رابعا : عصر السيطرة المغربية : من ٤٧٩ – ٦١٢هـ – ١٠٨٦ – ١٢١٤م تقريباً) .

وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين وكانت العاصمة مدينة مراكش في جنوب المغرب . وقد انتهى هذا العصر بعد هزيمة دولة الموحدين امام الجيوش الأوربية المتحالفة في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) وقد تلى ذلك فترة ملوك طوائف أخرى ، قضى عليها الاسبان ، ولم يتركوا منها سوى دولة صغيرة وهي مملكة غرناطة .

خامسا : مملكة غرناطة أو عصر بني نصر أو بني الأحمر .

وهو آخر عصر اسلامي في الاندلس ويمتد من سنة ١٢٣١ إلى سنة ١٤٩٢م وهي السنة التي سقطت فيها في أيدي الاسبان . ويلاحظ أنها نفس السنة التي اكتشف فيها كرستوفر كولبس أمريكا .

الفصل الثالث

عصر الولاة في الاندلس

أولا : غزوات المسلمين في فرنسا :

ثانيا : الفتن والاضطرابات الداخلية :

عصر الولاة في الاندلس

تعرف الفترة الاولى للحكم الاسلامي في الأندلس ، بعصر الولاة . وهي فترة مضطربة اشتهرت بالغزوات الخارجية التي شنها ولاة الأندلس على جنوب فرنسا ، كما اشتهرت ايضاً بالفتن الداخلية التي قامت بين العرب والبربر تارة ، وبين العرب انفسهم تارة خرى . وكانت الأندلس في ذلك الوقت إمارة غير مستقلة وغير وراثية ، وتتبع الخلافة الأموية بدمشق ويحكمها وال يعرف بالأمير يتبع أمير أفريقية من الناحية الإدارية ، بمعنى أن أمير القيروان هو الذي كان يعين ولاة الاندلس في غالب الاحيان .

أولا : غزوات المسلمين في فرنسا :

لم تدم ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير طويلا في الأندلس ، إذ انه اغتيل نتيجة مؤامرة دبرها له كبار قواده سنة ٩٧هـ. وأسباب مقتله مختلف فيها ، فالبعض يرى أن زواجه من أرملة ردريق المعروفة بالاسم المسيحي ايله Egilona ، وبالاسم العربي أم عاصم ، قد دفعه إلى تحقيق رغباتها التي كانت تهدف إلى الاستقلال بالأندلس والخروج عن طاعة بني أمية في دمشق ، بل ويذهب بعضهم إلى اتهام عبد العزيز بأنه لبس تاج النصارى وأنه كان ينوي اعتناق المسيحية . ويرى فريق آخر أن عبد العزيز لما بلغه ما فعله الخليفة سليمان بن عبد الملك

بأبيه من معاملة سيئة ، تكلم بكلام خفيف ضد الخليفة اعتبره رؤساء الجند خروجا عليه فدبروا من قتله .

وكيفما كان الأمر في هذه التهم الموجهة إلى عبد العزيز ، فإن خير رد عليها هو شهادة أبيه له أمام الخليفة الأموي حينما قال له : «اعرفه صواما قواما ، فعليه لعنة الله إن كان الذي قتله خيرا منه».

وولي بعد عبد العزيز ابن عمته أيوب بن حبيب اللخمي (٩٧هـ) الذي حكم البلاد ستة أشهر فقط ، وإليه ينسب بناء قلعة أيوب في جنوب سرقسطة شمالي اسبانيا ، وهي الآن مدينة كبيرة ولا تزال تحمل اسمه Calatayoud

ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي الذي نقل مقر حكومته من اشبيلية . قرطبة ، لأن موقع اشبيلية متطرف نحو الغرب ، بينما تقع قرطبة في قلب الأندلس مما يسهل على الحاكم ضبط البلاد منها .

واستمرت ولاية الحر حتى سنة ١٠٠هـ (٧١٩م) ؛ وخلفه السمح بن مالك الخولاني (نسبة إلى قبيلة خولان اليمنية) بتعيين من الخليفة عمر بن عبد العزيز . وقام هذا الوالي الجديد بعدة اصلاحات ادارية وعمرانية ، من اهمها اعادة بناء سور قرطبة وقنطرتها التي تربط المدينة بأرباضها الجنوبية عبر نهر الوادي الكبير .

على أن أهم عمل قام به السمح ، هو عبوره جبال البرتات وغزو جنوب فرنسا . ويلاحظ أن فرنسا كاصطلاح جغرافي لم تكن قد وجدت بعد ككتلة واحدة أو كوحدة سياسية ، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية في ذلك الوقت . وكانت الأراضي الممتدة وراء جبال البرتات شمالا تعرف وقتئذ بالأرض الكبيرة Tere Major أو بلاد الفرنجة أو بلاد الغال أو غاليا Gaul . وكانت هذه الأراضي بعد زوال الحكم الروماني منها تنقسم إلى إمارات مستقلة : ففي الجنوب نجد سبتمانيا (اي المدن السبع) ثم اكيتانيا Aquitaine ، وفي الشرق على وادي ردونة Rodanus أي نهر الرون ، نجد ولايتي بروفانس ، وبرغونة (برجانديا) ، وفي الشمال أي شمال نهر اللوار نجد مملكة الفرنجة الميروفنجية التي تمتد شرقا حتى تشمل ألمانيا الحالية .

حاول السمح بن مالك فتح إمارة سبتمانيا لتأمين حدوده الشمالية ، لا سيما وان هذه الامارة كانت جزءاً من الدولة القوطية التي قضى عليها العرب في اسبانيا فحاصر عاصمتها أربونة Narbonne واستولى عليها . ثم اتجه شمالا بغرب نحو نهر الجارون واستولى على مدينة طولوشه (تولوز)، وتوغل في دوقية اكيتانيا ، ولكن دوقها المسمى يودو Yudo ، التقى به سنة ١٠٢ه بالقرب من طولوشه حيث دارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة السمح واستشهاده وانسحاب فلول جيشه بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة أربونة التي اصبحت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال البرتات.

وخلف السمح بن مالك وال آخر اسمه عنبسة بن سحيم الكلبي نسبة إلى قبيلة كلب اليمنية (١٠٢ – ١٠٧ه) الذي تابع حركة الفتح في تلك النواحي . فأتم فتح اقليم سبتمانيا بمدنه السبع الكبيرة ، ثم اتجه شرقا حتى بلغ نهر الرون وفتح اقليم بروفانس في الجنوب ثم صعد مع النهر شمالا حتى بلغ مدينة ليون واحتلها ، ثم توغل في الاقليم المعروف باسم برغونة (برجانديا) حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي الرون ، ولكن اهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعته ، وانتهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ه (٧٢٦م) .

وتسود الأندلس بعد ذلك فترة من الاضطرابات تقف فيها حركة الفتح الخارجي مدة أربع سنوات ، ثم يتولى على الاندلس سنة ١١٢ه (٧٣٠م) أمير شجاع متحمس للجهاد، وهو عبد الرحمن الغافقي (نسبة إلى قبيلة غافق اليمنية) . وفي سنة ١١٤ه (٧٣٢م) خرج هذا الأمير بجيش كبير لمواصلة عملية الغزو في فرنسا ، فهاجم اكيتانيا ، وعبر نهر الجارون واستولى على مدينة بوردو التي تقع عند مصبه ، وكان العرب يسمونها برديل أو بردال ، وقد اشتهرت بسيوفها التي عرفها الاندلسيون باسم البرد ليات . وعندما عجز يودو دوق اكيتانيا عن مقاومة العرب ، استنجد بالدولة الميروفنجية الفرنجية . وكانت هذه الدولة ملكية في نظامها ، ويحكمها المتأخرون من ملوكها الذين كانوا في ذلك الوقت ملوكا ضعافا . أما السلطة الحقيقية في البلاد فكانت في يد الحاجب أو رئيس القصر المعروف باسم شارل مارتل أي شارل المطرقة .

ورأى شارل مارتل أن انتصار العرب على اكيتانيا معناه اقتراب خطرهم من بلاده وتهديدهم لسلامة الدولة الميروفنجية ، ولهذا لبى دعوة الدوق يودو ، وخرج بجيش ألماني كبير لصد الزحف العربي . والتقى الجيشان في مكان بين بلدتي تور وبواتييه في رمضان سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) ودارت بينهما معركة عنيفة ضارية لمدة ثلاثة أيام ، انتصر فيها العرب أول الأمر وجمعوا غنائم كثيرة ، ثم حدث أن هاجم دوق اكيتانيا مؤخرة الجيش العربي حيث توجد الغنائم ، فتراجع البعض لإنقاذها ، فاختل توازن المسلمين وانهزموا واستشهد قائدهم عبد الرحمن وعدد كبير من رجاله ، وانسحب الباقون تحت جنح الظلام .

وقد سميت هذه الموقعة في الكتب العربية باسم بلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده هذه المعركة . والبلاط في اللغة هو الطريق المرصوف المبلط Calzada . أما المصادر الأوربية فتسميها بموقعة تور أو توربواتييه . أما القائد شارل مارتل فيقال إنه لقب بلقب مارتل أي المطرقة بعد هذا النصر .

الرواية العربية تشير إلى هذه الموقعة باختصار ، وتمر عليها بدون تعليق . أما المؤرخون الأوربيون فيعلقون عليها أهمية كبيرة ويعتبرونها من المواقع العالمية الحاسمة في التاريخ . ويقولون لو أن العرب انتصروا في هذه المعركة لحدث في أوربا مثل ما حدث في اسبانيا ولصار القرآن يتلى ويدرس في جامعات باريس وكمبردج وأكسفورد .. الخ ولهذا نجدهم يشيدون بشارل مارتل ويعتبرونه المنقذ أو المخلص لأوربا من العرب المتأخرين . وقد سخر من هذا القول أديب فرنسيّ منصف من كتاب القرن الماضي وهو جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب ، إذ قال إنه ينبغي أن ننظر إلى العرب في ذلك الوقت نظرة تختلف عن نظرتنا لهم في الوقت الحاضر كشعب متخلف نسبيا عن الشعوب الأوربية . لان الوضع في العصور الوسطى كان على العكس تماما ، العرب هم المتحضرون ، والأوربيون هـم المتأخرون ، ولا أدل على ذلك من أننا نسمي تاريخ أوربا في ذلك الوقت بالعصور المظلمة . ثم يضيف بأنه كان يتمنى لو ان العرب استولوا على فرنسا ، إذن لصارت باريس مثل قرطبة في اسبانيا مركزا للحضارة والعلم ، حيث كان رجل

الشارع فيها يكتب ويقرأ بل ويقرض الشعر أحيانا في الوقت الذي كان فيه ملوك أوربا لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم .

فريق آخر من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهمية كبيرة على هذه الموقعة ، ويرون أن الامتداد الطبيعي للغزو العربي في اسبانيا هو جبال البرتات . أمـــا العمليات العسكرية التي قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهي مجرد غارات انتحارية أو فدائية ، بدليل أنهم كانوا يتوغلون في قلب البلاد بدافع الحماس الديني دون أن يعملوا حسابا لحالة التقهقر أو الانسحاب . فهزيمة عبد الرحمن الغافقي في رأيهم كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي محفوف بالمخاطر ، ولهذا لم يكن لها تأثير ايجابي على مجريات الأحداث السياسية الاسلامية لأنها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامي وعن المجال الحيوي للدولة الاسلامية . فالهزائم التي مني بها المسلمون امام القسطنطينية مثلا كان لها تأثير كبير وصدى قوى في السياسة الاسلامية لانها كانت قريبة من دمشق مركز القوى الاسلامية . ولعل هذا هو السبب الذي جعل الرواية العربية لا تهتم بهزيمة بلاط الشهداء وتمر عليها بدون تعليق .

وكيفما كان الأمر ، فإن المؤرخ لا يستطيع أن يرجم بالغيب ، ولا أن يتكهن بما كان يحدث في المستقبل لو أن العرب انتصروا في هذه الموقعة ، إذ أن مهمة المؤرخ كما يقول ابن خلدون ، هي النظر في الاحداث الماضية ومحاولة تفسيرها وتأويلها على ضوء الحاضر ، أما المستقبل فالذي ينظر إليه هو الرجل السياسي الذي يستطيع ببعد نظره السياسي وصدق فراسته أن يتكهن بالأحداث السياسية المستقبلة .

ومهما يكن من شيء فالمهم هنا أن موجة الفتح الخارجي بعد هذه الموقعة قد توقفت تماما . والسبب في هذا لا يرجع إلى هذه الهزيمة بالذات ، فكثير من المعارك خسرها العرب ثم كانت لهم بعدها كرات أعقبها الفتح والنصر ، ولكن السبب هنا يرجع إلى الفتن والاضطرابات الداخلية التي حلت بالمغرب والاندلس ، وحالت دون استمرار هذه الغزوات ، بل انها شجعت العدو شارل مارتل على

معاودة الكرة واسترداد ما أخذه العرب من بلاد ما وراء البرتات . ثم جاء حفيده شرلمان بعده وتابع هذا الزحف جنوبا عبر البرتات حيث استولى على منطقة قطالونيا في شمال شرق اسبانيا على شاطىء البحر المتوسط ، وأنشأ فيها ثغرا حربيا لتأمين حدوده الجنوبية ، عرف باسم الثغر الاسباني La Marca Hispanica .

ثانيا : الفتن والحروب الداخلية في المغرب والأندلس :

اتسمت هذه الحروب بطابع سياسي وعنصري نتيجة لسياسة الدولة الأموية التي تقوم على مبدأ سيادة الجنس العربي وتفضيله على من سواه من العناصر الأخرى . فأهالي البلاد الاصليين قد حرموا ، رغم اعتناقهم الاسلام ، من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب ، بل وفرضت عليهم الجزية على يد الحجاج بن يوسف الثقفي في المشرق ، وعلى يد عبيد الله بن الحبحاب في المغرب . وشعر البربر أن العرب يعاملونهم معاملة السيد للمسود فساءهم هذا الوضع . وكان مذهب الخوارج في ذلك الوقت قد أخذ ينتشر في المغرب مستغلا حالة التذمر العام التي سادت بين الأهالي . ومن أهم مبادىء هذا المذهب عدم حصر الخلافة في بيت معين كالبيت العلوي ، أو في جنس معين كالجنس العربي ، وانما الخلافة لله ، أي تترك لأي شخص تختاره الأمة ، وتجتمع عليه الكلمة ولو كان عبدا حبشيا . فهذا المذهب الجمهوري — إن صح هذا التعبير الحديث — لقي نجاحا كبيرا بين قبائل البربر لأنه يناسب وضعهم السياسي والاجتماعي ، فاتخذوه رمزا للمعارضة القومية ضد السياسة الأموية .

وفي سنة ١٢٢هـ (٧٤٠م) قام البربر في المغرب الأقصى بثورة عامة يقودهم زعيم منهم يدعى ميسرة المطغري الزناتي ويلقب بالحقير أو الحقور ، وإن كان ابن خلدون يؤكد انه كان زعيما لقبيلة مطغرة الزناتية ، وكذلك يروي لسان الدين بن الخطيب بأنه كان أميرا للغرب . وكان ميسرة هذا قد اعتنق مبادىء الخارجية الصفرية بالقيروان ثم نشرها بين قومه في اقليم طنجة ، وكان حاقدا على سياسة عمال بني أمية في المغرب حتى انه اضطر الى السفر إلى دمشق على رأس وفد

مغربي لبسط شكواه أمام الخليفة هشام بن عبد الملك ، ولكنه لم يتمكن من مقابلته ، فعاد إلى بلاده غاضبا وأعلن الثورة ضد السياسة الأموية . واستطاع ميسرة أن يهزم جيوش الأمويين في معركة حاسمة بأحواز طنجة سنة ١٢٢هـ ، وأن يبسط نفوذه على المغرب الأقصى . إلا أنه يبدو أن هذا النصر الذي أحرزه ميسرة قد دفعه إلى الغرور والتجبر ، فأدعى الخلافة وأساء السيرة في جماعته فقتلوه وولوا مكانه خالد ابن حميد الزناتي .

واستطاع هذا القائد الجديد أن يهزم الجيوش العربية هزيمة أخرى بالقرب من طنجة سنة ١٢٣هـ قتل فيها عدد كبير من اشراف العرب ، ولذا سميت بغزوة الأشراف . وغضب الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك لهذه الهزائم المتكررة لجيوشه ، وأرسل جيشا كبيرا من عرب الشام للانتقام بقيادة كلثوم بن عياض القشيري . وقد عرف هذا الجيش الشامي بالطالعة العربية الثانية تمييزاً لها عن الطالعة العربية الأولى التي قادها موسى بن نصير من قبل وكان معظمها من أهل الحجاز .

وحينما وصل هذا الجيش الشامي إلى المغرب ، لم يلق ترحيبا من العرب الحجازيين الذين استقروا هناك منذ أيام الفتح الاسلامي . والسبب في ذلك يرجع إلى أن عرب الحجاز كانوا ناقمين على بني أمية وأنصارهم عرب الشام لأنهم استباحوا بلادهم الحجاز وقتلوا منهم خلقاً كبيراً في وقعة الحرَّة — شرقي المدينة المنورة — أيام ثورة عبد الله بن الزبير سنة ٦٣هـ. فالحجازيون نتيجة هذه الاضطهادات الأموية ، فضلوا ترك بلادهم والهجرة إلى المغرب طلبا للغزو مع أولئك الامراء الذين ولوا على المغرب أمثال حسان وموسى لعلهم يجدون في تلك البلاد مستقرا ومقاما بعيدا عن الأمويين وحلفائهم الشاميين ، وبالفعل استقر جزء منهم في المغرب ، كما استقر الجزء الآخر في الأندلس ، واختلطوا بأهالي البلاد الأصليين حتى إنهم عرفوا باسم «البلديين» ، بمعنى أنهم صاروا من أهل البلاد . وظل الحال كذلك إلى أن قدم الجيش الشامي بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ، فكان من الطبيعي أن يثير قدومه استياء الحجازيين أو البلديين الذين خشوا من أن يحاول هؤلاء الجنود الجدد مشاركتهم في الأراضي التي استقروا فيها .

ولم يلبث هذا العداء أن ظهرت نتائجه بسرعة عندما تخلى الحجازيون عن اخوانهم ، فانهزم الجيش الشامي أمام البربر وقتل قائده كلثوم في مكان يسمى بقدورة على ضفاف نهر سبو Sebou في آخر سنة ١٢٣هـ (٧٤١م).

وتراجعت فلول الجيش الشامي بقيادة أحد أقرباء القائد المقتول واسمه بلج ابن بشر القشيري ، وتحصنوا بثغر سبتة ، وكان عددهم حوالي تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من جنود مصر . وهناك حاصرهم البربر حصارا شديدا حتى ساءت حالهم وكادوا يهلكون جوعا .

واستنجد بلج بن بشر بعرب الأندلس كي يسمحوا له ولأصحابه بالعبور اليهم ، ولكنهم رفضوا لأنهم كانوا أيضا من عرب الحجاز كما كان أميرهم في ذلك الوقت وهو عبد الملك بن قَطَن الفهري من أهالي المدينة المنورة الذين شاركوا في وقعة الحرة وقاسوا أهوالها . ولهذا رفض بأن يسمح لهم بالعبور بل ورفض امدادهم بالطعام كي يموتوا جوعا .

غير أن الظروف سرعان ماتغير الأحوال كما يقال (Circumstances alter cases) فتغيرت في صالح بلج بن بشر وأصحابه . ذلك أن أخبار ثوارث البربـــر وانتصاراتهم في المغرب سرعان ما انتقلت إلى اخوانهم البربر في الأندلس ، فسرت فيهم عدواها ، وقاموا بثورات عنيفة يؤيدون فيها مطالب اخوانهم بالمغرب .

وهنا يضطر والي الأندلس عبد الملك بن قطن ، أن يستعين بقوة الفرسان الشاميين المحاصرين في مدينة سبتة . فعرض عليهم المرور إلى الأندلس بشرط أن يشتركوا معه في اخماد ثورات البربر ثم يعودوا ثانية إلى المغرب بمجرد انتهائهم من هذه المهمة التي حددت بمدة سنة . واضطر بلج بن بشر واصحابه إلى قبول هذه الشروط لسوء حالتهم .

وكان ثوار البربر في ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم في الأندلس وقسموا أنفسهم إلى ثلاثة جيوش :

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث يتجه جنوبا للقضاء على قوة الشاميين في سبتة والاتصال باخوانهم بربر المغرب .

في ذلك الوقت كان بلج بن بشر قد عبر إلى الأندلس ، وعلم بخطة البربر ، فرأى أن يبدأ بمقاتلة الجيش الثالث القادم نحوه كي يحول دون اتصاله ببربر المغرب. وعند بلدة شذونة انتصر بلج بن بشر على هذا الجيش وشتت شمله ، ثم سارع من فوره نحو قرطبة وانتصر على الجيش الثاني ، ثم بعد ذلك اتحد جيشه مع الجيوش العربية الاخرى وساروا جميعا نحو طليطلة حيث اصطدموا على نهر التاجو بتجمعات البربر الرئيسية وانتصروا عليها فقضوا بذلك على ثورة البربر .

وأخذبلج وأصحابه بعدذلك ينعمون بحلاوةالنصر ، ويتمتعون بالطعاموالشراب والنساء بعد الحرمان الذي عانوه في سبتة . ومن العجيب أن والي الأندلس عبد الملك ابن قطن طلب منهم بعد ذلك أن يعودوا إلى المغرب حسب الاتفاق المبرم بينهم . فما كان منهم إلا أن ثاروا عليه وقتلوه وأقاموا مكانه قائدهم بلج بن بشر . وقد أثار هذا العمل غضب الحجازيين ، فقتلوا بدورهم بلج بن بشر ، وقامت بين الطائفتين حروب عنيفة استمرت أكثر من عام . وفي سنة ١٢٣هـ (٧٤٣) ولي على الاندلس وال جديد ارتضاه الفريقان لأنه كان يمني الأصل وفي نفس الوقت من أعيان الشام وهو الشاعر أبو الخطّار بن ضرار الكلبي . واستطاع هذا الوالي الجديد أن يعالج الأمور بسياسة من الحزم والاعتدال فسوى بين جميع القبائل ، ووزع جنود الشام على مختلف الكور أو الولايات الأندلسية ليحد من شوكتهم . وقد حرص أبو الخطار في هذا التوزيع على أن تكون الأمكنة التي ينزلون فيها مشابهة إلى حد كبير بالأماكن التي جاءوا منها في المشرق . فأهل حمص مثلا أنزلهم مدينة اشبيلية وسماها حمص ، وأهل دمشق انزلهم غرناطة وسماها دمشق ، وأهل الأردن أنزلهم مالقة وسماها الأردن ، وأهل مصر أنزلهم تدمير (مرسيه) وسماها مصر وهكذا على هيأة اقطاعات عسكرية ، كل قبيلة تجبي غلة تلك الناحية التي نزلت فيها وتأخذ عطاءها منها والزيادة لبيت المال [1] . ومن الطريف أن تلك التسميات

---

(١) المقرى: نفح الطيب جـ١ ص١٥٥، ٢٢١، أخبار مجموعة ص٣١، الحميري: الروض المعطار ص١٨١.

المشرقية ظلت مرادفة لأسماء هذه المدن الأندلسية ولا سيما في الشعر الأندلسي الذي كثيرا ما تخللته كلمات مثل حمص ودمشق للدلالة على اشبيلية وغرناطة .

بهذا التقسيم هدأت الفتن واستقرت الأمور في الأندلس ولكن لفترة قصيرة فقط إذ سرعان ما قامت في الأندلس وفي غيرها من بلاد العالم الاسلامي ، حروب داخلية أخرى في أواخر أيام الدولة الاموية ، وهي حروب العصبية القبلية بين اليمنية والمضربية أو العدنانية والقيسية . ففي الاندلس نجد القبائل الشامية والحجازية تنقسم على نفسها إلى هاتين العصبيتين . وكان زعيم اليمنية هو الوالي نفسه أبو الخطار الكلبي ، بينما كان زعيم المضربة الصُّمَيْل بن حاتم حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين في كربلاء ، وكان الصميل قد دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري السالف الذكر .

وكان السبب المباشر لقيام حرب العصبيات في الأندلس بسيطا في حد ذاته ، إذ وقع خلاف بين شخصين أحدهما مضري والآخر يمني ، فلجأ الإثنان إلى الوالي أبي الخطار فقضى لليمني ، فظن المضري أن هذا الحكم تعصب من الوالي لكونه يمنياً ، فلجأ إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم وشكى له تصرف الوالي، فذهب العميل إلى الوالي أبي الخطار وكلمه في الأمر ، فوقع جدال بينهما لم يلبث أن تطور إلى نقاش حاد ، وأهين الصميل في المجلس، فخرج منه غاضباً على أسوأ حال وقد حُلّت عمامته . ويقال إن أحد الحراس قال له أثناء خروجه : أصلح عمامتك أبا الجوشن»، فرد عليه بقوله : «إن كان لي قوم فسيقيمونها». وهذا معناه تهديد بالحرب.

وقامت الحرب بين الجانبين على ضفاف الوادي الكبير ، واستمرت سجالا بينهما إلى أن تمكنت المضربة من هزيمة اليمنية في موقعة كبيرة عند بلدة شقندة في جنوب قرطبة . واستطاع الصميل بهذا النصر أن يعزل أبا الخطار من ولاية الاندلس ، وأن يقيم مكانه رجلا محايدا بين عرب الشمال والجنوب اسمه يوسف الفهري . ولا شك أن هذا الاختيار دل على ذكاء الصميل ومهارته السياسية، إذ أنه أرضى الفريقين المتنازعين بينما ظل هو الحاكم الحقيقي في الواقع .

في خلال ذلك سقطت الخلافة الأموية بدمشق على أيدي العباسيين سنة ١٣٢ هـ. وأخذ الولاة العباسيون يتتبعون الأمويين ويبطشون بهم في كل مكان . وكان أشد هؤلاء الولاة قسوة هو والي الشام الأمير عبد الله بن علي العباسي الذي يلقب في بعض المصادر بالسفاح . فيروي على سبيل المثال أنه دعا مئات من الأمويين إلى وليمة كبيرة ثم قتلهم جميعا عند نهر أبي فطرس بين فلسطين والأردن ، ثم فرش على جثثهم بساطا وأخذ يتناول طعامه فوقهم وهو يقول : «ما أكلت أكلة أطيب من هذه الأكلة ».

على أن هناك اميرا أمويا لم يذهب إلى هذه الوليمة ، وهو الأمير عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الذي استطاع أن يفر من هذه المذابح إلى المغرب . وهناك استقر أول الأمر في مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الاباضية في المغرب الأوسط ، ثم لجأ بعد ذلك إلى قبيلة نفزة البربرية في المغرب الأقصى . ويقال إن أم عبد الرحمن كانت تنسب إلى هذه القبيلة قبل أن يتزوجها أبوه الأمير معاوية . وقد عملت هذه القبيلة على حماية عبد الرحمن واخفائه عن أعين العباسيين وحلفائهم الاغالبة في المغرب . ويبدو أن عبد الرحمن قد حاول في بادىء الأمر أن يؤسس لنفسه ملكا في المغرب بمساعدة أخواله ، ولما فشلت محاولاته اتجهت أنظاره نحو العدوة الأندلسية حيث كانت الأحوال فيها مضطربة بسبب الحروب الأهلية بين اليمنية والمضرية . فرأى عبد الرحمن أن يستغل هذه المنازعات القبلية لصالحه ، واعتمد في ذلك على موالي بني أمية الذين كان عددهم كبيرا بالأندلس في ذلك الوقت .

وبدأ عبد الرحمن مغامرته بأن ارسل مولاه بدرا ليمهد له الطريق . فاتجه بدر اولا إلى أقوى الحزبين نفوذا وهو الحزب المضري ، فعرض على زعيمه الصميل بن حاتم فكرة دخول عبد الرحمن إلى الأندلس ، وطلب منه تأييده ومساعدته بحكم كونه مضريا مثلهم . غير أن الصميل خشي على نفوذه من مجيء عبد الرحمن ، وقال لبدر وأصحابه من موالي بني أمية «إنه من قوم لو بال أحدهم في الجزيرة ،

لغرّقنا في بحر بوله ، وإن أول سيف يسلّ عليه هو سيفي». [1]

ولما يئس بدر من مساعدة المضربة ، اتجه إلى القبائل اليمنية وعرض عليهم الأمر ، فرحب هؤلاء بتأييد عبد الرحمن ومساعدته ، لا لشيء إلا للانتقام من المضرية ، والأخذ بثأر قتلاهم في وقعة شقندة .

ثم عبر عبد الرحمن المضيق ونزل على الساحل الجنوبي الشرقي الإسباني عند ثغر المنكّب Almunecar ، في ربيع الثاني سنة ١٣٨هـ (٧٥٥ م) ثم سار إلى حصن طُرُّش Torrox ، الذي كان مركزا لموالي بني أمية ، فاتخذه عبد الرحمن قاعدة عسكرية لتجمع أنصاره ، ثم تقدم بعد ذلك نحو قرطبة بما تجمع لديه من جنود من اليمنية والبربر والموالي .

وعلى ضفاف الوادي الكبير بالقرب من قرطبة التقى عبد الرحمن بجيوش الصميل بن حاتم ويوسف الفهري في وقفة عيد الأضحى أي في ٩ من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ (مايو ٧٥٦م). ورأى عبد الرحمن أن مركزه الحربي يتحسن كثيرا إن عبر النهر هو وجيشه . ولهذا لجأ إلى استعمال الحيلة والدهاء ، والحرب خدعة كما يقولون . فأظهر للصميل ويوسف الفهري أنه يريد الصلح معهما خصوصا في مثل هذه الأيام المباركة من عيد الأضحى . فوافق الصميل ويوسف على ذلك . ولكن بعد أن تم لعبد الرحمن عبور الوادي الكبير ليلا ، أعلن بأن لا صلح إلا بعد إعلانه أميرا على الأندلس لكونه من سلالة الأمويين . ثم قامت الحرب بين الجانبين عند بلدة المصارة بالقرب من قرطبة ، وفي خلال المعركة أشيع بين الجنود أن عبد الرحمن يركب جوادا فارها سريعا للفرار به وقت الهزيمة . فلما بلغ عبد الرحمن هذا الكلام ترك فرسه في الحال وقال : «إن فرسي قلق لا يتمكن معه الرمي ! » ، ثم ركب بغلا ضعيفة كي يقنع جنوده بأنه لن يولي ظهره للأعداء .

بهذه الروح العالية الوثابة انتصر عبد الرحمن على خصومه انتصارا حاسما. في

---

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٧٣ .

١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٥ مايو ٧٥٦ م) وقد عرفت هذه الموقعة الحاسمة في المراجع العربية باسم المصارة (بالصاد أو السين) كما عرفت كذلك في المراجع الاسبانية باسم ألاميدا Alameda . وتمتد مصارة قرطبة في جنوب غرب المدينة على الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير . وكلمة المصارة لا نعرف معناها أو أصلها ، وقد أطلقت على عدة أماكن في المغرب والأندلس ولا سيما على الفضاء الفسيح المجاور للمدن الكبرى مثل قرطبة وغرناطة وفاس . وعادة ما كانت تقام في هذه الاماكن العاب الفروسية وعرض الجيوش كما تقام فيها ايضا الصلوات العامة كصلاة العيدين أو صلاة الاستسقاء . ولهذا اختلط الأمر بين المصارة والمصلى خصوصا وانهما في مكان واحد . ومن الطريف أن هذا اللفظ انتقل إلى اللغة الاسبانية باسم المثارة Almuzara ، ولا زالت إلى اليوم توجد عدة أماكن في شمال اسبانيا بهذا الاسم وأغلبها أراضي زراعية فسيحة ، وهذا ما دعا بعض المستشرقين إلى اعتبار كلمة المزارع والزراعة أصلا لكلمة المصارة . أما التسمية الثانية لهذه الموقعة وهي الاميدا Alameda فقد وردت في الكتب الاسبانية فقط . ويبدو أن وجود الألف واللام في بداية هذه الكلمة قد جعل بعض الكتاب يظن أن أصلها عربي مثل معظم الكلمات الاسبانية العربية الأصل ، ومثال ذلك تفسير دائرة المعارف الاسلامية لهذه الكلمة بالميدان . غير ان الأمر الذي شك فيه هو أن أصل هذه الكلمة لاتيني وهو Alamo أي شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق ، والمكان الذي يكثُر فيه هذا الشجر يسمى ألاميدا Alameda وهذا الاسم منتشر في بلاد اسبانيا ولا سيما بنواحي ليون وسرقسطة وبرغش وأستَرقة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا النصر الذي أحرزه عبد الرحمن في هذه الموقعة ، مكنه من دخول قرطبة حيث صلى بالناس صلاة الجمعة ، وخطب فيهم لأول مرة معلنا قيام دولته الجديدة .

وهكذا استطاع هذا الأمير الشريد الطريد الذي لقب بالداخل [1] ، أن يحيي من جديد دولة الأمويين التي انهارت في المشرق ، وأن يجعل من الأندلس دولة مستقلة عن المغرب والمشرق معا .

(١) يعني الداخل إلى الأندلس ، ولم يقتصر على هذا اللفظ على الأمير عبد الرحمن الأموي بل أطلق أيضا على شخصيات أخرى مثل عبد الجبار بن نذير الذي دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر وسمى بعبد الجبار الداخل ، ونزل في الجانب الغربي من قرطبة وإليه ينسب باب عبد الجبار . راجع (العذري : ترصيع الأخبار ص ١٥).

الفصل الرابع

عصر الامارة الاموية في الاندلس

(١٣٨ – ٣١٦هـ ٧٥٦ – ٩٢٩م)

١ ـ الأمير عبد الرحمن الداخل

٢ ـ الأمير هشام الرضا

٣ ـ الأمير الحكم الربضي

٤ ـ الأمير عبد الرحمن الثاني أو الأوسط

٥ ـ الأمراء محمد والمنذر وعبد الله (عصر دويلات الطوائف الأولى)

- ١ -

١ ـ الأمير عبد الرحمن الداخل (الأول)

(١٣٨ – ١٧٢هـ ـ ٧٥٦ – ٧٨٨م)

يكنى أبا المطرف ، وقيل أبا يزيد ، وقيل أبا سليمان ويلقب بصقر قريش أو بصقر بني أمية . أسس هذا الأمير في الأندلس أمارة أموية وراثية مستقلة سياسيا عن الخلافة العباسية في المشرق . أما من الناحية الروحية فمن المعروف أن عبد الرحمن قطع الخطبة للعباسيين بعد فترة قصيرة من بداية عهده . ويفهم من كلام بعض المؤرخين أمثال ابن الكردبوس [١] وابن أبي دينار [٢] ، أن عبد الرحمن الداخل وجميع امراء بني أمية الذين حكموا بعده حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، قد دعوا في خطبهم الدينية لخلفاء بني العباس ببغداد رغم العداء السياسي الذي كان قائما بين هاتين الدولتين .

غير أن هذه الرواية لم يقم عليها دليل أو اجماع تاريخي خصوصا وأن ابن أبي دينار السالف الذكر عاد ثانية وناقض عبارته الأولى بقوله : «ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد ، وبقي ملكا ثلاثا وثلاثين سنة ، وتداولها بنوه من بعده ، ولم يخطب أحد منهم لبني العباس ، ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن

---

(١) عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء – القسم الخاص بالاندلس – ص ٦٠ – ٦١ نشر أحمد مختار العبادي .

(٢) محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ص ٤٢ – ٤٣ .

الثالث الذي تلقب بالناصر لدين الله وتسمى بأمير المؤمنين». [1]

أما ثقاة مؤرخي الأندلس أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقري ، فقد حددوا مدة الدعاء لبني العباس في الاندلس بفترة قصيرة فقط في بداية عهد عبد الرحمن الأول ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك . فابن حزم في كتابه نقط العروس يقول إن الدعوة للعباسيين استمرت عدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الأول [2] . كذلك يقول ابن الأبار في كتابه الحلة السيراء : «وأقام عبد الرحمن أشهرا دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور .... متقيلا في ذلك يوسف الفهري في الدعوة للعباسيين». [3] أما المقري ، فقد أورد لنا رواية طريفة يبين فيها الظروف والملابسات التي تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين ، فيقول :

«وفر من الشام الامير عبد الملك بن عمر بن مروان بن عبد الحكم الأموي خوفا من المسودة (أي العباسيين)، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوه به وولاه اشبيلية لأنه كان قعدد بنى أمية . ثم إنه لما وجد عبد الرحمن الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور العباسي ، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكّره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية ، فتردد عبد الرحمن في ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي ! ! فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة للمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر». [4]

ولا شك أن هذا الأمير الأموي الكبير عبد الملك بن عمر كان يعني مايقول عندما هدد بالانتحار إذا لم تقطع الخطبة للعباسيين . وقد يؤيد ذلك أنه سبق أن قتل ابنه المدعو أمية عندما انهزم في معركة حربية أمام العدو ، إذ قال له : «ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس عليّ والعدو ؟ إن كنت قد فررت

---

(١) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٢) ابن حزم : نقط العروس ص ٧٥ نشر شوقي ضيف .

(٣) ابن الا بار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٣٥ نشر حسين مؤنس .

(٤) المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٩ .

من الموت فقد جئت إليه»، ثم أمر بضرب عنقه . وأعتقد أن مثل هذا الشخص الذي يقدر على قتل فلذة كبده في سبيل مبدأ معين ، قادر كذلك على قتل نفسه في سبيل هذا المبدأ . ولعل هذا كان من الأسباب القوية التي حملت عبد الرحمن الداخل على تنفيذ طلبه . [1]

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن ما يتعلق بدعاء بني أمية في قرطبة للعباسيين أمر مبالغ فيه ، وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عهد عبد الرحمن الأول ثم قطعت بعد ذلك نهائيا .

على أنه يلاحظ أن الأمير عبد الرحمن وان كان قد قطع الدعاء لبني العباس ، إلا أنه لم يلقب نفسه بلقب خليفة ، وانما اكتفى بأن أضاف إلى اسمه لقب «ابن الخلائف» وهناك فرق كبير بين لقب خليفة وابن الخليفة بطبيعة الحال . بعض المؤرخين الاندلسيين أمثال العذري ، أضاف إلى اسم عبد الرحمن لقب امام[2] ، وهو لقب ديني مرادف للقب خليفة ، غير أنه يبدو أن هذا اللقب لم يكن لقبا رسميا لأن الأمويين في هذه الفترة الأولى كانوا يشعرون بأن الخلافة واحدة لا تتعدد ، وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية ، [3] وهو الخليفة العباسي في ذلك الوقت.

حكم عبد الرحمن مدة ٣٣ سنة قضاها في كفاح مستمر مع العناصر والأحزاب المعارضة لإمارته . وقد حرص عبدالرحمن على أن يلقى خصومه منفردين في الميدان ، فاستطاع بذلك أن يقضي عليهم واحدا بعد الآخر قبل أن يتكتلوا ضده . وهذه السياسة هي التي سار عليها حديثا نابليون بونابرت فكانت سر عظمته .

وكان أول المعارضين لإمارة عبد الرحمن هم أصحاب السلطان القديم في

(١) المقري : نفح الطيب حـ ٤ص ٥٩

(٢) العذري : ترصيع الأخبار ص ١١ نشر عبد العزيز الأهواني .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٨ .

الأندلس أمثال يوسف الفهري والصميل بن حاتم وأتباعهما الذين حاولوا استعادة نفوذهم القديم في البلاد بالرغم من سياسة التسامح التي سلكها معهم الأمير عبد الرحمن .

ففي سنة ١٤٢هـ (٧٥٩م) أعلن يوسف الفهري العصيان بايعاز من الصميل بن حاتم ، وفر من قرطبة إلى مدينة ماردة Merida في شمالها حيث جمع جيشاً كبيراً معظمه من البربر لغزو قرطبة . وخرج عبد الرحمن لملاقاته بعد أن اعتقل الصميل بتهمة التآمر ضده ، وانتهى هذا الصراع بهزيمة يوسف وفراره ومقتله بيد بعض أعوانه . اما الصميل بن حاتم فقد تخلص منه عبد الرحمن بأن دس له من خنقه في سجنه .

المشكلة الثانية التي واجهت عبد الرحمن كانت بايعاز من الخلافة العباسية التي ساءها أن يقتطع الأمويون جزءاً من الدولة الاسلامية . وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين الذي طمع في استرداد الأندلس واعادتها إلى الخلافة كما كان الحال من قبل . فاتفق مع زعيم عربي من سكان مدينة باجة Beja في غرب الأندلس (جنوب البرتغال حاليا) اسمه العلاء بن مغيث الجذامي ، ووعده بإمارة الأندلس إن هو انتصر على خصمه ، وبعث له بلواء الدولة العباسية ، وبسجل تعيينه على الأندلس .

وأخذ أبو العلاء يدعو الناس سرا إلى طاعة الخليفة المنصور سنة ١٤٦هـ، (٧٦٣م) ، واستطاع أن يضم إلى جانبه جميع العناصر الساخطة على عبد الرحمن ولا سيما القبائل اليمنية التي سبق أن ساعدت عبد الرحمن منذ دخوله الأندلس حتى توليه إمارتها كما سبق أن اشرنا . والسبب في انقلاب اليمنية ضد عبد الرحمن هو أنهم لم يجدوا في عهده النفوذ أو السلطان الذي كانوا ينشدونه نظير المساعدات التي قدموها له في كفاحه مع المضرية . ولم يقبل عبد الرحمن بدوره أن يكون أداة طيعة في أيدي هؤلاء اليمنية ، وقابل استياءهم بانضمام صريح إلى جانب أعدائهم المضرية . وقد أثار هذا العمل غضب اليمنية ، فانتهزوا فرصة قيام العلاء بن مغيث بثورته وانضموا إليه يؤيدونه ضد عبد الرحمن .

وفي سنة ١٤٧هـ قام العلاء بثورته في مدينة باجة ورفع أعلام العباسيين السوداء فاتجه اليه عبد الرحمن لمحاربته ، ولكن العلاء انتصر عليه وحاصره في مدينةقرمونة Carmona شرقي اشبيلية مدة شهرين . وأمام هذا الخطر جمع عبد الرحمن جنوده ، وأشعل نارا عظيمة وصاح فيهم قائلا : «أمامنا الآن طريقان ! إما النصر أو الموت ، فاخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع !» ثم رمى بجفن سيفه في النار فثارت الحمية والنخوة في نفوس جنوده ورموا بأجفان سيوفهم في النار ثم اندفعوا خلف قائدهم وكانوا سبعمائة بينما عدد عدوهم لا يحصى ، فاستطاع عبد الرحمن أن يخترق الحصار بهجوم جريء خاطف ثم انقض على الجيش المحاصر وشتت شمله وقتل قائده العلاء وعددا كبيرا من رجاله . وبعد أن طيف برأس العلاء أمر عبد الرحمن بمن أخذه وحشاه بالملح والكافور لحفظه ثم وضعه في سفط أوقفة مع السجل واللواء العباسي ، وأرسله مع بعض الحجاج الأندلسيين . واتفق أن حج المنصور في تلك السنة ، فوضع القوم السفط أمام باب سرادقة . فلما رأى المنصور رأس العلاء ، انزعج وقال :

«الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان (يقصد عبد الرحمن) بحرا».

هذا ويروي المؤرخون أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه : اخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذلك أمير المؤمنين الذي راضى الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا !. قالوا : فمعاوية؟ قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان؟ قال ما قلتم شيئا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا اعجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته . وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالاندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين ». [١]

(١) ابن الخطيب : أعمال الا علام ص ٩ — ١٠ .

وهكذا صار عبد الرحمن منذ ذلك الوقت يلقب بصقر قريش .

على أن المعارضة العباسية ظلت تناوىء عبد الرحمن رغم اعجاب المنصور به ، إذ يفهم من سير الحوادث أن مؤامرة دولية واسعة النطاق دبرت للقضاء على عبد الرحمن ، شارك فيها محمد المهدي الذي سار على سياسة أبيه المنصور في العمل على استرداد الأندلس . كما شارك فيها ايضا ملك الفرنج وامبراطور الغرب شرلمان أو شارل العظيم Carlo Magno الذي كان يريد تأمين حدوده الجنوبية في اسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعى إلى تنفيذه وهو احياء الامبراطورية الغربية . ويلاحظ أن تقارب الدولة العباسية من الدولة الكارولنجية الافرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة معا ، يرجع إلى عدائهما المشترك ضد الدولة الأموية في اسبانيا من جهة وضد الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين من جهة أخرى .

كذلك اشترك في هذه المؤامرة اثنان من القادة المحليين : أولهما يسمى عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي لأنه كان طويلا أشقرا مثل الصقالبة . وكان من القادة المغامرين في شمال افريقيا ثم أرسله الخليفة المهدي إلى الأندلس كما فعل أبوه مع العلاء بن مغيث من قبل . أما الرجل الثاني فيدعى سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي حاكم مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى في شمال اسبانيا . وكان هذا الوالي على خلاف مع الأمير عبد الرحمن لأسباب سياسية ، وهي أن عبد الرحمن كان يميل إلى المضرية ويعادي اليمنية التي ينتمي إليها هذا الوالي سليمان الأعرابي .

وكانت الخطة المتفق عليها هي أن يعبر شرلمان بجيوشه جبال البرتات في شمال اسبانيا ويتجه إلى مدينة سرقسطة ، فيسلمها له ابن الأعرابي . وفي نفس هذا الوقت يأتي عبد الرحمن بن حبيب الفهري من المغرب في اسطول بحري وجيش من البربر ويهاجم الساحل الشرقي الأندلسي ، وينزل بجيوشه في مدينة تدمير (مرسيه). وبهذا يطوقون عبد الرحمن ويقضون عليه ، ثم يعلنون أن البلاد للخليفة العباسي صاحبها الشرعي وأن شرلمان صديقه وحليفه .

وقد تبدو هذه المؤامرة محكمة في تدبيرها ، إلا أنها في الواقع كانت صعبة في تنفيذها من الناحية الاستراتيجية ، لأن نقل الجيوش من مكان إلى آخر في هذه البلاد الوعرة ، وفي هذه الأوقات المحددة ، أمر ليس من السهل تنفيذه حتى في عصرنا الحديث مع وسائل النقل الحديثة ، فما بالنا بوسائل العصر الوسيط ! ! .

وكيفما كان الأمر فقد نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري بجيشه واسطوله على ساحل تدمير قبل أن يصل شرلمان في الميعاد المتفق عليه . وانتهز عبد الرحمن الداخل هذه الفرصة وسارع في مهاجمة ابن حبيب قبل أن ينضم إليه بقية حلفائه . وكانت خطة عبد الرحمن في حروبه كما قلنا سابقا ، أن ينازل أعداءه منفردين كي يسهل عليه القضاء عليهم واحدا بعد الآخر . واستغاث ابن حبيب بحليفه والي سرقسطة سليمان بن الأعرابي ، ولكن هذا الأخير لم ينجده بحجة أنه لا يستطيع ترك البلاد حتى يصل شرلمان . وبذلك تمكن الأمير عبد الرحمن من هزيمة ابن حبيب وقتله وحرق اسطوله عند ساحل تدمير .

بعد هذا الوقت بقليل قدم شرلمان من فرنسا، وعبر جبال البرتات متجها إلى سرقسطة سنة ٨٧٨م (١٦١هـ). وهناك خرج والي المدينة سليمان بن الأعرابي لاستقباله خارج المدينة ، غير أن أهالي سرقسطة رفضوا تسليم مدينتهم لملك مسيحي ، فقاموا بثورة تزعمها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الأنصاري وأغلقوا أبواب المدينة في وجه شرلمان وحليفه سليمان بن الأعرابي. واضطر شرلمان بعد ذلك أن يحاصر المدينة لأخذها بالقوة ، ولكنه في ذلك الوقت بلغته الأنباء من بلاده أن القبائل السكسونية الجرمانية ، قامت بثورة خطيرة في المانيا ، وانها تركت الديانة المسيحية وارتدت إلى ديانتها الوثنية القديمة . واضطر شرلمان إلى العودة إلى بلاده سنة ١٦٢هـ وصحب معه سليمان بن الأعرابي كأسير حرب لأنه كان السبب في فشل حملته على الأندلس .

وبينما كان شرلمان يعبر ممر رنسفالة Roncesvalles في جبال البرتات عائدا إلى بلاده، إذا بسكان هذه المناطق الجبلية ويعرفون باسم البشكنس Vascos ، يهاجمون مؤخرة جيشه ويقضون عليها . ويقال إن هذا الهجوم كان بالاشتراك مع

قوة عربية يقودها أبناء سليمان بن يقظان الأعرابي الذين أرادوا الانتقام لأبيهم . ويقال كذلك إن الأمير عبد الرحمن هو الذي حرضهم على هذا الهجوم وأمدهم بالمال والسلاح . وقد نجح الأبناء في اطلاق سراح أبيهم والعودة به إلى سرقسطة ، غير أنه لم يلبث أن قتل بعد ذلك بيد حاكم المدينة الحسين بن يحيى الأنصاري .(١)

أما المصادر الفرنسية فإنها تشير إلى أن هذه الغارة على جيش شرلمان قد أفنت مؤخرة هذا الجيش وقتلت قائدها الفرنسي رولان Roland الذي كان من المقربين لشرلمان . وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة تقرب من الثلاثمائة سنة ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الضابط الفرنسي واخلاصه لقائده ، وكيف أنه رفض أن ينفخ في البوق حتى لا يعود شرلمان لإنقاذه فيقع في الكمين ، وكيف أن خطيبته التي كانت تنتظر عودته في فرنسا ماتت كمدا عند سماعها خبر مصرعه ... الخ

وقد عرفت هذه الملحمة بأنشودة رولان Chanson de Roland . وعلى الرغم من انها تتسم بطابع اسطوري بعيد عن الحقيقة التاريخية ، إلا أن الفرنسيين يعتبرون هذه الملحمة بداية الأدب الفرنسي .

بعد فشل هذه الحملة اتجه عبد الرحمن إلى سرقسطة واستولى عليها سنة ١٦٤هـ كما أنه عمل على تحسين علاقاته بجاره شرلمان ، رغم انتصاره عليه ، وقد أجابه شرلمان إلى طلبه بعد أن نزع من خياله أحلامه التوسعية وفكرة الإستيلاء على اسبانيا . أما الخلافة العباسية فقد اقتنعت هي الأخرى ، بعد فشلها للمرة الثانية ، بأنه لا فائدة ترجى من وراء إرسال حملات عسكرية إلى هذه البقعة النائية . ولهذا اقتصرت سياستها بعد ذلك على سياسة المناورات الدبلوماسية التي لم تكن لها تأثير ايجابي على سلامة الدولة الأموية في الاندلس . فالخليفة هارون الرشيد يتحالف مع شرلمان على اعتبار أن بلاده متاخمة للحدود الاسبانية . ويرد الأمويون على ذلك بأن تحالفوا مع البيزنطيين أعداء شرلمان والعباسيين .

وهكذا نجد أن العلاقات الحربية بين العباسيين والأمويين قد انتهت منذ ذلك

(١) العذرى : ترصيع الأخبار ص ٢٥ .

الوقت وحلت محلها مناورات سياسية أو ما يعرف اليوم بالحرب الباردة .

المعارضة الثالثة لإمارة عبد الرحمن كانت من جانب البربر الذين ثاروا ضد السيادة العربية . واخطر ثورة قاموا بها كانت بزعامة رجل منهم اسمه شقيا بن عبد الواحد المكناسي . وقد استمرت هذه الثورة ما يقرب من عشر سنوات (١٥١ — ١٦٠هـ — ٧٦٨ — ٧٧٧م) وعمت جميع الهضبة التي تشمل وسط وشمال اسبانيا وهي المعروفة باسم الجوف .[١]

كان هذا الثائر في أول أمره معلما للصبيان وكانت أمه تسمى فاطمة ، فادعى أنه فاطمي شيعي وتسمى بعبد الله بن محمد ، وعرف بالفاطمي . وقد سير إليه عبد الرحمن جيوشا كثيرة للقضاء على ثورته ، ولكن الفاطمي انتصر عليها كلها . وقد استخدم هذا الثائر اسلوبا حربيا مألوفا لدى البربر وهو تجنب المعارك الحاسمة في السهول ، والفرار إلى قمم الجبال إذا أحس بالخطر .

ولم يتمكن عبد الرحمن من هذا الثائر إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه له فاغتالوه سنة ١٦٠هـ. ولعل هذه الثورة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في المغرب الإسلامي ، إذ أنها سبقت دولة الأدارسة العلويين في المغرب الأقصى بنحو عشرين سنة .

اما المعارضة الرابعة التي واجهت عبد الرحمن، فكانت في نفس أسرته حيث دبر أحد أولاد أخيه ويدعى المغيرة بن الوليد بن معاوية ، مؤامرة لعزله سنة ١٦٨هـ واشترك معه في هذه المؤامرة ابن للصميل بن حاتم يدعى هذيل، وقد اكتشف عبد الرحمن هذه المؤامرة وقتل جميع أفرادها . وحتى مولاه بدر الذي ارتقى إلى مرتبة قائد في الجيش ، تجده يتنكر لسيده بسبب بعض المال مما اضطر عبد الرحمن إلى مصادرة أمواله ونفيه إلى منطقة الثغور الشمالية ؛ إلا أنه عاد ثانية وعفا عنه وأعاده إلى سابق مكانته .

---

(١) جرت العادة في المغرب والأندلس اطلاق كلمة الجوف على المناطق الشمالية ، وكلمة القبلة على المناطق الجنوبية.

حضارة الأندلس على عهد عبد الرحمن :

لم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الاسلامية إلى أقصى الشمال ثم هبطت إلى الجنوب مثل الترمومتر أو ميزان الحرارة، بل كان حدثاً حضارياً هاماً امتزجت فيه حضارة سابقة كالرومانية والقوطية مع حضارة جديدة لاحقة وهي الحضارة الإسلامية . ونتج عن هذا المزيج حضارة اندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور وأثرت فيه . فالفتح العربي لاسبانيا كان ختاماً لدور سابق وبداية لدور اسلامي لاحق تغلغل في الحياة الاسبانية وترك فيها آثاراً عميقة ما زالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم .

ولا شك ان المسلمين حينما دخلوا اسبانيا وجدوا فيها سكاناً مثل القوط وبقايا الرومان إلى جانب العناصر اليهودية ، فاختلطوا بهم ، ولم تلبث أن نشأت طبقة جتماعية جديدة وهي طبقة المولدين التي هي خليط من دم أهل البلاد الأصليين إبدم العرب والبربر الفاتحين . هذا إلى جانب طبقة المستعربين Mozarabes وهم الاسبان المسيحيون الذين ظلوا على ديانتهم المسيحية ولكنهم تعربوا بدراسة اللغة العربيـــة وآدابها وثقافتها .

وهكذا كانت اسبانيا بعد الفتح العربي مزدحمة بالأجناس المختلفة ، وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض سواء بالمصاهرة أو الجوار أو الحرب ، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه مما كان له أثره في مزج هذه العقليات المختلفة والعناصر المتباينة .

وما يقال عن تنوع هذه العناصر البشرية التي سكنت الأندلس ، يقال أيضاً عن التيارات الثقافية المتنوعة التي تكونت منها حضارتها . فمن المعروف أن الحضارة الأندلسية ــ مثل كل الحضارات ــ لم تنشأ فجأة ، بل مرت في أدوار مختلفة ، وخضعت لمؤثرات حضارية مشرقية تربطها بالوطن الاسلامي الأم باعتبارها جزءاً منه ، كما خضعت أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها .

ويلاحظ أن الفترة الأولى من تاريخ الأندلس الإسلامي حتى عهد عبدالرحمن الداخل ، كانت الأندلس فيها خاضعة للسيادة الأموية سواء في دمشق او في قرطبة ، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالحضارة الشامية في جميع مظاهرها وهو ما يسمى في المصطلح الأندلسي بالتقليد الشامي .

فالحياة الأدبية كانت صدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة الأولى كان شعرا كلاسيكيا يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجرير بالمشرق . ومن أهم شعراء الأندلس في ذلك الوقت ، الولاة والأمراء الذين حكموا الأندلس مثل أبي الخطار بن ضرار الكلبي ، والصميل بن حاتم ثم الأمير عبد الرحمن الداخل وأبنائه .

ومن شعر الأمير عبد الرحمن ، نذكر تلك الأبيات التي يصف فيها نخلة أثارت شجونه :

تبدّت لنا وسط الرُّصافــةِ نخلةٌ	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيّ وعن أهــلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبةٌ	فمثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي

ومن قوله في الحنين إلى المشْرق :

أيهــــا الراكب الميمــمُ أرضي	أقر من بعضيَ السلام لبعضي
إن جسمي كمــا علمت بأرضٍ	وفؤادي ومالكيــــه بأرضٍ
قُدِّر البين بيننـــا فافترقنـــا	وطوى البين عن جفونيَ غمضي
قــد قضى الله بالفِراق علينــا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

هذه الشاعرية ليست غريبة على عبد الرحمن لأنها موهبة متوارثة في بني أمية ، وقد ورثها أبناؤه من بعده .

ولقد اتخذ عبد الرحمن من مدينة قرطبة عاصمة دائمة للدولة . قبل ذلك الوقت

كانت قاعدة الحكم في الأندلس غير ثابتة تارة في اشبيلية ، وتارة اخرى في قرطبة .

وقد حرص عبد الرحمن على جعل قرطبة صورة من دمشق في منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية Patios ، المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه . كذلك عرف عن عبد الرحمن انه كان يرسل عملاءه إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من الشام . فنسمع عن عميل له اردني اسمه سفر بن عبيد الكلاعي الذي ينسب إليه أسماء بعض الفواكه التي غرسها وأثمرت مثل التين السفري والرمان السفري . ولا يزال هذا النوع من الرمان معروفا في اسبانيا بحلاوته وصغر حجمه ويسمى بنفس الاسم أيضا .

كذلك بنى عبد الرحمن في شمال غرب قرطبة منية أو قصرا صيفيا على سفح جبل قرطبة سماه قصر الرصافة محاكيا في ذلك قصر جده هشام بن عبد الملك الذي بناه خارج دمشق في بادية الشام سنة ١١٠هـ وسماه بهذا الاسم أيضا . ولا زالت توجد في هذا المكان بقرطبة قرية تحمل هذا الاسم La Ruzafa وقد عرف عن الأمويين بصفة عامة ، أنهم كانوا يحنون إلى حياة البادية ، وأنهم كثيرا ما اتجهوا إلى هذه المنيات أو القصور الحلوية كي يعيشوا فيها عيشة بسيطة بعيدا عن حياة العاصمة الصاخبة . ولم يلبث أمراء بني أمية في الأندلس أن أخذوا يقلدون أميرهم عبد الرحمن في اتخاذ القصور الحلوية . ومثال ذلك القصر الذي بناه ابنه عبد الله في مدينة بلنسيه . واطلق عليه نفس الاسم الرصافة . ولا يزال هذا القصر موجودا الى اليوم في مدينة بلنسيه ويسمى La Ruzafa .

ولعل كلمة الرصافة جاءت من الرصف أي ضم الشيء إلى الشيء كما يفعل في رصف الشوارع . والمعنى هنا المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد وهي بغدادالشرقية التي بناها الخليفة المنصور العباسي على الضفة الشرقية لنهر دجلة مقابل بغداد الغربية ومثل رصافة دمشق ورصافة قرطبة وهكذا .

أما من الناحية المعمارية فهناك جامع قرطبة الذي أعاد الأمير عبد الرحمن

بناءه سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) وفيه يلاحظ بوضوح المؤثرات الشامية المقتبسة من المسجد الأموي بدمشق . مثال ذلك العقود المزدوجة التي تزيد من ارتفاع السقف وتجعله ارتفاعا مناسبا مع اتساع مساحة المسجد ، وإن كانت عقود مسجد قرطبة تبدو أكثر إجادة وروعة . كذلك نلاحظ هذا التأثير في وضع المئذنة وفي الممر الذي يصل المسجد بقصر الامارة وهو المعروف بالساباط .

والواقع ان موقع قرطبة يشبه إلى حد كبير موقع دمشق . فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى ، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير ، ويطل على دمشق جبل قاسيون كما يطل على قرطبة جبل العروس Sierra de Cardoba هذا إلى جانب التشابه بين البلدين في بيوتهما واسلوب الحياة فيهما . ومن هنا كان قول الجغرافيين العرب بأن الأندلس : «شامية في هوائها» ، قول يتضمن معاني أوسع من المعنى الجغرافي المحدود لهذه العبارة .

أما الحياة الدينية في الأندلس في هذه الفترة الأولى ، فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام. فقد اعتنق الاندلسيون في بادىء الأمر مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أمام الشام المتوفي سنة ١٥٧هـ ومقامه يزار في بيروت . وكان الأوزاعي من المجاهدين الذين رابطوا في مدينة بيروت التي كانت في ذلك الوقت رباطا على العدو البيزنطي . لهذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية واحكام الحرب والجهاد . وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والغزو ، ولهذا اعتنقوا مذهب الأوزاعي .

ويذكر ابن الفرضي في معجمه تاريخ علماء الأندلس أن أول من نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس هو القاضي الغرناطي أسد بن عبد الرحمن السبأي (ت١٥٠ هـ) بينما يذكر ابن حزم أنه كان صعصعة بن سلام الشامي (ت١٩٢هـ) .

وهكذا نرى مما تقدم أن عبد الرحمن الداخل استطاع بمفرده أن يخلق كل شيء من لا شيء . جاء من المشرق شابا شريدا طريدا ، ولم يكن معه جيش ولا مال ولا عصبية ، بل كان كل شيء معاكسا ومضادا له ، ولكنه استطاع بذكائه

وشجاعته وحسن سياسته أن يصل إلى الحكم ويقضي على أعدائه ويجعل من الأندلس دولة مستقلة بعد أن كانت ولاية تابعة لخلافة المشرق تبعية مطلقة . وتوفي عبد الرحمن سنة ١٧٢هـ (٧٨٨م) وهو في سن الستين تقريبا ودفن بالروضة من قصر الامارة بقرطبة . وقد وصفه المؤرخون بأنه كان صبوح الوجه ، طويل القد ، أشقر الشعر ، خفيف العارضين ، له ضفيرتان ، ولا يعيبه سوى فقدان إحدى عينيه . ومن صفاته أنه كان شديد الحذر قليل الطمأنينة شجاعا شاعرا ، يحب البياض ويؤثره على غيره من الألوان في اعلامه وملابسه وقصوره . (١)

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة ورقة ٢٤٠ (الاسكوريال) ، ابن عذارى : البيان المغرب ﺟ ٢ ص ٧٢ .

- ٢ -

٢ ـ الأمير هشام الرضا

(١٧٢ – ١٨٠هـ – ٧٨٩– ٧٩٦م)

ترك الأمير عبد الرحمن عدة أبناء نذكر منهم ابنه الأكبر سليمان ثم هشام ثم عبد الله الذي لقب فيما بعد بالبلنسي .

سليمان ولد في الشام وقضى فيه فترة شبابه ثم ذهب إلى الأندلس في إمارة والده الذي أقامه حاكما على طليطلة . فسليمان بحكم ولادته ونشأته كان شاميا ، ولهذا التفت حوله القبائل الشامية وصار يمثل الحزب الشامي في الأندلس . أما هشام ، فإنه ولد في اسبانيا من جارية اسبانية اسمها حلال ، كما نشأ في بيئة اسبانية اندلسية فهو يمثل الحزب الأندلسي من المولدين [١] وغيرهم من أهالي البلاد الأصليين ، وقد أقامه أبوه حاكما على مدينة ماردة Merida .

واشتدت المنافسة بين الأخوين في حياة والدهما . ويروي على سبيل المثال أن الشاعر الشامي عاصم بن زيد المعروف بأبي المخشى أو المخشبي اختص بمدح سليمان مما أثار عليه حقد هشام . ثم نما لهشام أن هذا الشاعر قال بيتا من الشعر يعرّض به فيه :

وليسوا مثل مَن إنْ سُئل عُرفــاً   يُقلِّبُ مقلةً فيها اعورارا

(١) المولدون هم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات اسبانيات ، ونشئوا على الاسلام ، وكانوا على عهد أمراء بني أمية يكونون الكثرة الغالبة من السكان .

وكان هشام أحول العين ، فاغتاظ لذلك واستدعاه إلى مدينة ماردة التي كان واليا عليها ، فرحل عاصم إليه طامعا في جائزته ، فأمر هشام بقطع لسانه . ولكن عاصم استطاع بعد مدة أن يتكلم بعد أن نبت لسانه من جديد . ويقال إن الامام مالك بن أنسي حينما بلغه هذا الخبر بالمدينة المنورة ، عدّل في بعض احكامه ، وأفتى بالتأني في دية اللسان لمدة سنة بدلا من تأديتها على الفور ، مستشهدا في ذلك بحادثة الشاعر أبي المخشى . [1]

كان عبد الرحمن الداخل قلقا من هذا العداء المستحكم بين ولديه ، ولكنه لم يستطع أن يجد له حلا ، وتوفي بعد أن ترك وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله يوصيه فيها بتسليم العرش لمن يدخل العاصمة قرطبة أولا من الأخوين ، إذ قال له:

«فإن سبق إليك هشام فارم إليه بالخاتم ، فله فضل دينه واجتماع الكلمة عليه . وان سبق إليك سليمان ، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له ».

ثم وصل هشام من ماردة إلى العاصمة قبل أخيه وولي الخلافة ، [2] ولكن سليمان لم يعترف بهذا الوضع وأخذ البيعة لنفسه في طليطلة ، وقامت حرب بين الأخوين انتهت بهزيمة سليمان ونفيه إلى المغرب سنة ١٧٤هـ بعد استرضائه بكثير من المال .

كان هشام حاكما ورعا تقيا ، حلو الطباع والشمائل ، منصرفا إلى تحري الحق والعدالة لصالح أمته . ولهذا لقب بالرضا ، وشبهه بعض المؤرخين بالخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز . ويقال إن منجما في حاشيته أخبره في مستهل ولايته انه سيحكم سبع سنوات فقط ، فاعتقد هشام في هذه النبوءة ورأى أن يقضي هذه المدة في الصلاح والتقوى وعمل الخير والجهاد في سبيل الله .

وعلى الرغم من أن هذا الأمير كان رجل سلام يفضل السلم على الحرب ، إلا أنه كان مضطرا إلى الدخول في حروب عديدة لتوطيد ملكه . فقد حارب

(١) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ورقه ٣٥١ (الاسكوريال)

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١١ نشر ليفي بروفنسال .

أخاه سليمان وانتصر عليه كما رأينا ، كذلك أخمد ثورتين يمنيتين قامتا في نواحي سرقسطة وبرشلونة . الأولى كانت بقيادة سعيد بن القائد المعروف الحسين بن يحيى الانصاري الذي اغلق ابواب سرقسطة في وجه شرلمان . والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان الاعرابي الذي لعب دورا بارزا في تلك الغارة التي قضي فيها على مؤخرة جيش شرلمان في جبال البرتات . ولكن هذه الفتن اخمدت بسهولة وقتل أصحابها .

وبعد أن وطد هشام حكمه في الداخل ، اتجه نحو محاربة المسيحيين في الشمال مدفوعا في ذلك بنزعته وحماسه الديني ، فحارب الاسبان في ولاية اشتوريش في شمال غرب اسبانيا . وكان لهذه الولاية جبهتان مع الحدود الاسلامية : جبهة شرقية وهي منطقة القلاع Castellas التي صارت قشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهي منطقة غاليسيا أو جليقية . كذلك أرسل هشام حملات صيفية على ولاية سبتمانيا الفرنجية في جنوب فرنسا ، وغنم منها غنائم كثيرة مكنته من بناء عدة مساجد على شاطىء الوادي الكبير ، وتوسيع نطاق مسجد قرطبة الذي أسسه والده . إذ أنه أضاف إليه المئذنة والمبيضأة وبعض السقائف الناقصة . كذلك أعاد بناء الجسر القديم الممتد على الوادي الكبير ، والذي يربط العاصمة بأرباضها الجنوبية ، وصار يعرف بجسر قرطبة .

انتشار الحضارة الحجازية على عهد هشام :

لا شك ان الحروب التي خاضها هشام مع أخيه سليمان وانتصاره عليه فيها ، قد اضعفت من نفوذ الحزب الشامي الذي كان يمثله سليمان ، ومن شأن الحضارة الشامية التي سيطرت على الأندلس حتى ذلك الوقت ، إذ نجد الأندلسيين بعد ذلك يتحررون ويبحثون عن آفاق جديدة ومقومات أخرى لحضارتهم ، وقد وجدوا بغيتهم في حضارة الحجاز . كان الحجاز في ذلك الوقت — أي في القرن الثاني للهجرة — مركزا حضاريا هاما للعلوم الدينية فضلا على الفنون والموسيقى لدرجة أن بعض خلفاء بني أمية كانوا يبعثون بأولادهم من دمشق إلى المدينة ليتعلموا بها .

ومن يقرأ كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، يستطيع أن يكون فكرة صحيحة عن مدى الازدهار الفني الذي بلغته مكة والمدينة في ذلك الوقت .

ففي مكة والمدينة ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام . وهي عبارة عن الموسيقى العربية الأصيلة مختلطة ببعض المؤثرات البيزنطية والفارسية نتيجة للتوسع العربي في تلك البلاد ، وكان هناك تنافس بين مكة والمدينة في هذا اللون من الموسيقى والغناء مما ساعد على ازدهاره . وسرعان ما انتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري والمغنين والمغنيات الذين كانوا رسل الفن آنذاك . ولا شك أن هؤلاء الفنانين نقلوا معهم إلى جانب الفن والموسيقى ، الكثير من مظاهر الحضارة الاجتماعية والثقافية التي كانت مزدهرة بالحجاز في ذلك الوقت . ومن بين الأسماء التي اشتهرت في هذا الصدد نذكر المغنية المدنية عجفاء التي أثارت إعجاب الاندلسيين بغنائها على عهد هشام ، ونذكر ايضا الثنائي الغنائي الحجازي علّون وزرقون على عهد الحكم بن هشام . كذلك يروى أن الامير عبد الرحمن الثاني حفيد هشام بنى قصرا لمغنياته المدنيات سماه دار المدنيات . وكل هذا يدل على مدى تأثر الأندلس بالحياة الفنية الحجازية في هذه الفترة

وإلى جانب هذه الناحية الفنية ، كانت المدينة المنورة هي المدينة الممتازة في العلوم الدينية في ذلك الوقت ايضا . ويكفي أن تشير إلى عالم دار الهجرة الامام مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف باسمه ، فلقد عاش الامام مالك في المدينة ومات بها سنة ١٧٩هـ ووضع كتابا في الفقه والحديث معا سماه الموطأ أي السهل الواضح ، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات ... الخ ، ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية . ولقد ذاع صيت الإمام مالك في العالم الاسلامي ، وأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل .

وكان يعاصر الامام مالك امام آخر في العراق وهو الامام ابو حنيفة النعمان

الذي انتشر مذهبه في العراق لانه يلائم البيئة العراقية وعقلية أهل العراق . كذلك كان يعاصره في مصر الامام المصري الليث بن سعد الذي كانت تربطه به صداقة وطيدة ، وكثيراً ما كان الامام الليث يراسل مالك في بعض المسائل الفقهية ويأخذ عليه أموراً لا يراها هو . غير ان المصريين لم يقبلوا على اعتناق مذهب الامام الليث بن سعد وفضلوا عليه المذهب المالكي . وقد علق على ذلك الامام الشافعي الذي عاش ومات في مصر سنة ٢١٤ هـ بقوله : « الليث بن سعد افقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » بمعنى ان تلاميذه لم يعملوا على نشر مذهبه .

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن المذهب المالكي انتشر في الاندلس وحل محل مذهب الاوزاعي باستثناء بعض المسائل التي اتبع فيها الأندلسيون مذهب الأوزاعي مثل اجازة غرس الشجر في صحون المساجد وهو شيء لم يقره المذهب المالكي .

واذا تساءلنا لماذا أقبل الأندلس على اعتناق مذهب مالك ولم يقبلوا على مذهب أبي حنيفة ؟

للاجابة على هذا السؤال ينبغي ان نشير أولا إلى أن المذاهب الدينية عموماً لا تنتشر بقوتها الذاتية فحسب بل يرجع انتشارها أيضاً إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية بل ونفسية ايضاً .

من المعروف أن الجيوش العربية التي غزت المغرب والأندلس كان معظمها من الحجازيين في طالعة موسى بن نصير ثم من اهل الشام ومصر في طالعة بلج ابن بشر . أما العنصر العراقي فلم يكن ممثلاً في هذه الجيوش كما هو واضح من الكتب التي تناولت أخبار فتح الاندلس . وكان من الطبيعي أن يفكر عدد كبير من هؤلاء الحجازيين في العودة إلى بلادهم لزيارة ذويهم ولتأدية فريضة الحج ، وقد ساعد ذلك على اتصال الاندلسيين بالامام مالك والالمام بمذهبه .

يضاف ذلك أن بلاد الأندلس كانت مستقلة عن الدولة العباسية التي كان مذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي ، لهذا كان من الطبيعي ان يكون انتشار المذهب المالكي في الاندلس راجعاً إلى تحقيق هذه النزعة الاستقلالية عن المشرق .

ثم انه يبدو ان الامام مالك نفسه كان لا يحب العباسيين بدليل موقفه من ثورة العلويين التي قامت في المدينة سنة ١٤٥هـ بزعامة محمد النفس الزكية حفيد الحسن ابن علي بن أبي طالب ايام الخليفة العباس أبي جعفر المنصور. فيقال ان الامام مالك كان يقول لأهل المدينة: انما بايعتم مكرهين ، وايس على مكره يمين او طلاق» . وكان يقصد من وراء ذلك أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحالل من بيعته لهم ويبايع محمداً النفس الزكية . هذه الفتوى لم تعجب الخليفة المنصور فأمر والي المدينة جعفر بن علي بمنع مالك من التحدث بهذا الحديث ثم ضربه الوالي بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به . وعلى الرغم من أن الخليفة المنصور تبرأ بعد ذلك من تبعة هذا العمل ، وألقاه على عاتق والى المدينه الا أن هذا الحادث يرينا أن المذهب المالكي كان معارضاً للدولة العباسية ، وقد يكون هذا أيضاً من الاسباب التي جعلت الاندلسيين يعتنقون هذا المذهب انتقاماً من العباسيين .

هذا ويروي ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة أن الامام مالك في مجلس من مجالسه مع عدد من طلبة الاندلس ، ابدى اعجابه بالأمير هشام ومدحه بقوله : « نسأل الله أن يزيّن حرمنا بملككم » ، فنقلت هذه العبارة إلى ملك الاندلس فحمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي . هناك فريق من المؤرخين أمثال السلاوي الناصري يقولون بأن مديح مالك بن أنس كان لعبد الرحمن الداخل وليس لأبنه هشام . ولكن الرواية على كل حال تدل على الأعجاب المتبادل بين مالك وأهل الأندلس .

وهناك سبب آخر يرويه ابن خلدون في مقدمته وهو أن البيئة الاندلسية والمغربية أو بعبارة اخرى طبيعة أهل المغرب والاندلس كانت تشبه إلى حد كبير طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، ولهذا فان عقلية أهل الاندلس والمغرب كانت تغلب عليها نزعة اهل الحديث وهذا كان من عوامل انتشار المذهب المالكي في تلك البلاد .

والواقع ان المذهب المالكي والمذهب الحنفي يتفقان معا في العمل بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين ، ولكنهما يختلفان في فهم واستنباط الاحكام الدينية وتطبيقها .

فأنصار المذهب المالكي يتقيدون عند اصدار فتاويهم واحكامهم بنصوص القرآن وا لحديث وعمل أهل المدينة ولا يلجأون إلى استعمال الرأي القياس الا في حدود ضيقة .

أما انصار المذهب الحنفي فقد استعملوا الرأي والقياس إلى جانب النصوص ، ويرجع ذلك إلى تعقيد البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الأجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها النصوص وتحتاج إلى وضعها محل الاجتهاد ، والحكم فيها عن طريق الاستنتاج العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو القياس .

لهذا عرف أتباع مذهب حنيفة بأهل الرأي والقياس ، أما أتباع المذهب المالكي فعرفوا بأهل الحديث . فعقلية اهل الاندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث في التفكير . وبهذا اعتمدوا اولا على الأوزاعي الذي كان من انصار مدرسة الحديث ولا يرضى عما استحدثه الاحناف من أقيسة ذات طابع فلسفي . ثم اعتمدوا بعد ذلك على مذهب مالك الذي يسير في هذا الاتجاه حتى قيل انهم لا يعرفون سوى كتاب الله وموطأ مالك ، بل ان بعضهم ذهب في هذا المضمار إلى أقصى حدود التقييد وهم أصحاب المذهب الظاهري وزعيمهم الفقيه ابو محمد بن حزم . فهؤلاء قالوا بضرورة الأخذ بظواهر نصوص القرآن والحديث والتمسك بمعناها الحرفي . فعقلية اهل الاندلس كان يلائمها هذا النوع من التفكير والانسان دائماً يفضل ما يلائم مزاجه العقلي . يروي المقدسي أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظرا يوماً بين يدي الأمير هشام فقال لهم : من اين كان ابو حنيفة ؟ قالوا من الكوفة . فقال : ومالك ؟ قالوا من المدينة ، قال : عالم دار الهجرة يكفينا . فأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة وقال : لا أحب أن يكون

في عملي مذهبان . (١)

واضح من هذه العبارة وغيرها من النصوص أن كلا من المغرب والاندلس قد تمسك بسياسة المذهب الواحد وهو المذهب المالكي . ولا شك أن هذه السياسة قد جنبت هذه الثغور الاسلامية شرور الفتن والخلافات المذهبية وحفظت لها سلامتها ووحدتها الروحية فكانت لذلك درعاً حامياً للاسلام في اقصى المغرب .

ومن الطريف أن الممالك المسيحية التي كانت متاخمة للمسلمين في هذه المنطقة واعني بذلك اسبانياً ، قد اتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد باعتبارها هي الأخرى ثغراً للمسيحية في هذه المنطقة ، فاقتصرت على المذهب الكاثوليكي وتعصبت له حتى ضرب بها المثل فقيل انها اكثر تعصبا للبابوية للكاثوليكية من البابا نفسه Mas Papista que el Papa

بقي أن نشير إلى أن دخول المذهب المالكي في الأندلس حدث على أيدي جماعة من فقهاء الأندلس الذين درسوا هذا المذهب على الأمام مالك في المدينة ثم عادوا إلى بلادهم وعملوا على نشره بين أهليهم . ومن هؤلاء نذكر زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون ثم تلميذه الفقيه القرطبي الطنجي الأصل يحي بن يحي الليثي الذي لقبه مالك بعاقل الأندلس » . ووراء هذا اللقب قصة طريفة وهي أنه في أثناء درس الامام مالك حدث أن مر فيل في شوارع المدينة . فخرج جميع الطلبة من الدرس ليروه ما عدا يحي الليثي الذي بقي في مكانه لا يتحرك . فسأله مالك : « لماذا لم تخرج لترى الفيل وليس في بلادك ؟ » فاجابه يحي على الفور : « انما جئت من الأندلس لا نظر إليك وأرتشف من علمك ولم اكن أنظر إلى الفيل » ! فأعجب به الامام مالك وسماه عاقل الأندلس . (٢) وتوفي يحي الليثي سنة ٢٣٤هـ .

---

(١) راجع مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٦)

(٢) المقري : نفح الطيب حـ ٢ ص ٢١٧ ، الحميدي : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٩٠٨ .

- ٣ -

٣ ـ الأمير الحكم الربضي

(١٨٠ـ ٢٠٦هـ ـ ٧٩٦ ـ ٨٢٢م)

شبه هذا الأمير بالخليفة المنصور العباسي في شدة بأسه وحزمه وقوة عزيمته وحسن تدبيره . وهذه الصفات جميعها مكنته من القضاء على الثورات والفتن التي هددت عرشه .

وأول خطر واجه الأمير الحكم ، كان من قبل أعمامه أمثال سليمان وعبدالله، اللذين حاولا انتزاع الملك منه . وكان سليمان مقيماً بطنجة في المغرب الأقصى ، بنيما كان عبدالله مقيماً في المغرب الاوسط عند بني رستم بتاهرت . فلما علما بموت اخيهما هشام ، عبر سليمان إلى الأندلس بجيش من البربر والمرتزقة ، وحاول أن يشق طريقه إلى العاصمة ولكنه هزم عدة مرات وانتهى الأمر بقتله عند مدينة مارده سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) . وقد أمر الحكم بأن يطاف برأسه في شوارع العاصمة ثم شيع جنازته في احتفال مهيب ودفنه بالروضة بقصر الإمارة بجوار والده عبد الرحمن الداخل .

أما عمه الآخر عبدالله ، فقد عبر هو الآخر إلى الإندلس ، واتجه إلى المناطق المعادية للحكم مثل بلنسية في الشرق ، وسرقسطة في الشمال ، ولكنه فشل في كلتيهما ، واضطر إلى عقد صلح مع ابن أخيه الحكم الذي عفا عنه وحدد اقامته في مدينة بلنسيه ومنحه معاشاً شهرياً يقدر بألف دينار . ومنذ ذلك الوقت

صار عبدالله يلقب بالبلنسي . على أن الأمير الحكم وإن كان قد فرض على عمه البقاء في بلنسية، إلا أنه استدعى أبناءه إلى العاصمة وزوجهم بناته . وقد برز منهم عبيد الله الذي اظهر نبوغاً حربياً في تلك الصوائف التي شنها على المسيحيين في الشمال ، ولذا لقب بصاحب الصوائف .

على أن الثورات الخطيرة التي اقلقت بال الحكم وكادت تطيح بإمارته هي تلك الثورات التي قام بها المولدون في طيطلة وقرطبه . والمولدون — كما سبق أن ذكرنا — هم الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات اسبانيات ، ونشئوا على الإسلام، فهم خليط من دم أهل البلاد الأصليين ومن دم العرب والبربر الفاتحين . وقد نمت هذه الطبقة الاجتماعية الجديدة بسرعة كبيرة حتى صارت تؤلف الكثرة الغالبة من سكان الاندلس . فكان منهم التجار والمزارعون وأهل الحرف المختلفة والطلبة والفقهاء وغيرهم . ويمضي الوقت شعر هؤلاء المولدون بنقص في حقوقهم العامة رغم كونهم أهالي البلاد الأصليين ، وأنهم يتحملون عبىء المغارم (الضرائب) دون أن يكون لهم نصيب في ثروات البلاد ومناصبها الرئيسية التي كانت حكراً على الطبقة الارستقراطية العربية الحاكمة .

ومما زاد الحالة سوءاً أن أمير الأندلس في ذلك الوقت وهو الحكم بن هشام ، كانت أخلاقه على عكس ابيه تماماً ، فهو شاب مرح مولع بالصيد والقنص وحفلات الرقص والغناء ومجالسة الشعراء والندماء ، فشعر الفقهاء ورجال الدين أنهم حرموا من نفوذهم القديم الذي تمتعوا به على عهد والده هشام ، فساءت العلاقات بينهم وبينه وصاروا يعرضون به في خطبهم على منابر المساجد ، ويرمونه بالفسق والفجور ويلقبونه بالمخمور ويحرضون الناس على عزله . وقد لقي هذا التحريض استجابة شديدة من جانب المولدين الذين كانوا يريدون تحسين وضعهم السياسي والاجتماعي ، فقاموا بثورتين كبيرتين :

الأولى قامت في مدينة طليطلة ، حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة الثغر الأدنى

وكان معظم أهلها من المولدين والمستعربين الذين كان هدفهم الاستقلال

عن سلطان بني أمية في قرطبة ، وكان لسان حالهم الشاعر غُربيب بن عبدالله الطليطلي الذي أخذ يثير حماسة مواطنيه ويدفعهم إلى الثورة .

ولقد اعتمد هؤلاء الثوار على حصانة مدينتهم وارتفاعها وقوة أسوارها ، مما اضطر الحكم إلى استعمال سياسة المكر والحيلة لاخضاعها . ذلك أنه عين على على المدينة والياً من المولدين المخلصين له اسمه عمروس بن يوسف ، الذي يرد اسمه في المصادر المسيحية Amorroz . ثم كتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول لهم : « اني قد اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه » .

وتظاهر عمروس أمام أهل المدينة بكره بني أمية حتى استمالهم إليه ، ثم بني خارج المدينة قلعة جديدة متظاهراً بأن الغرض منها هو أن يقيم فيها الجند بعيداً عن الأهالي كي لا يقلقوا راحتهم .

ثم حدث أن أقام عمروس وليمة في هذه القلعة بمناسبة مرور ولي العهد بالمدينة وهو الأمير عبد الرحمن بن الحكم . فدعا إليها جميع أعيان البلد ورؤسائها ثم ضرب أعناقهم جميعاً ، وألقى بجثثهم في حفرة عظيمة أعدت لهذا الغرض ، وقد حالت أصوات الطبول والموسيقى دون سماع صراخهم . وهكذا جردت المدينة من زعمائها وخيرة رجالها فضعفت المقاومة فيها وخضعت تماماً لسلطان أمير قرطبة . وقد سميت هذه المذبحة بوقعة الحفرة وتؤرخ بعام ١٨١هـ (٧٩٧م) وإن كان بعض المؤرخين يجعلها في عام ١٩١هـ (٨٠٧م) .

أما ثورة المولدين الثانية ، فكانت أخطر من الأولى ، وقامت في العاصمة نفسها قرطبة وتعرف بثورة الربض . والربض كلمة عامة تعني الضاحية أو الحي والجمع أرباض . وكانت مدينة قرطبة من قديم أي منذ أيام مؤسسيها الفينيقيين ثم الرومان والقوط مدينة عامرة آهلة بالسكان . فلما جاء عبد الرحمن الداخل وجعلها قاعدة لملكه ، نزلتها جموع غفيرة من العرب المهاجرين من المشرق ، ومن البربر القادمين من المغرب ، فأصبحت المدينة غاصة بالسكان . ولما ولى ابنه هشام أعاد بناء الجسر الروماني القديم الممتد على نهر الوادي الكبير ليربط

المدينة بأرباضها الجنوبية . وقد عرف بجسر قرطبة الذي لا يزال موجوداً إلى الآن .

وكان من الطبيعي بعد إقامة هذا الجسر أن يمتد العمران إلى ضفة النهر الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ فيها حي آهل بالسكان عرف بالربض . وقد امتد هذا الربض من ضفة النهر جنوباً حتى بلدة شقنده Secunda .

ولا شك أن قرب هذا الحي من جامع قرطبة ، ومن قصر الامارة ، ومن السوق أو الطريق الرئيسي للمدينة المسمى بالمحجة العظمى [1] ، قد دفع بالكثيرين من التجار وأهل الحرف والطلبة والفقهاء — ومعظمهم من المولدين — إلى سكنى هذا الربض لقربه من مجال أعمالهم . ولا يزال هذا المكان معروفاً حتى اليوم باسم Arrabal . ولعل السبب في تحول هذا اللفظ العام إلى اسم علم جغرافي خاص ، يرجع إلى هذه الثورة الخطيرة التي قامت في هذا الربض أيام الأمير الحكم في أواخر القرن الثاني للهجرة . والأسباب الرئيسية لهذه الثورة شرحناها آنفاً وهي تتركز حول سوء وضع المولدين بصفة عامة كطبقة اجتماعية كبيرة لها آمالها في ان يكون لها صوت مسموع في الرأي العام ، إن صح هذا التعبير الحديث — يضاف إلى ذلك أن اختلاط الفقهاء ورجال الدين بأهل هذا الحي كان من العوامل التي أذكت لهيب الثورة في هذه المنطقة وعبأت لها النفوس .

أما السبب المباشر لهذه الثورة فهو حادث بسيط في حد ذاته ولكنه كان بمثابة الشرارة في مستودع البارود . وملخص هذا الحادث أن جندياً من حرس الأمير ذهب إلى حداد بحي الربض ليصلح سيفه ، فتباطأ في اصلاحه وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور إلى جدال عنيف ، فما كان من الجندي إلا أن استل سيفه وقتل الحداد الذي كان من طبقة المولدين . وأثار هذا الحادث غضب أهل الربض فقتلوا الجندي واغلقوا المتاجر والحوانيت واتجهوا إلى قصر

---

(١) هو الطريق الروماني المرصوف الذي كان يبدأ من قادس جنوبا وينتهي بأربونه شمالا مارا بقرطبة واشبيلية وسرقطة وكان يعرف باسم Via augusta أي السكة العظمى . (عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٠٣) .

الإمارة عبر الجسر ، وحاصروه يريدون اقتحامه وقتل الأمير الحكم باعتباره المسؤول الأول عن ذلك الحادث .

وانتقلت هذه الأنباء المزعجة إلى الحكم وكان يلبس ثيابه فلم يفقد أعصابه بل قابل النبأ بكل هدوء وبرود وأمر خادمه أن يحضر اه الغالية وهي زجاجة عطر ثمين ليتطيب بها . فدهش الخادم من هذا الطلب إذ كان ينتظر أن يطلب منه سيده سلاحاً أو درعاً ، واضطر ان يمتثل لأمره واحضر له زجاجة العطر فأفرغها الحكم على رأسه وهو يقول : « من أين يعرف رأس الحكم من رأس غيره ؟ وفي هذا إشارة إلى تصميمه على خوض المعركة .

ثم استدعى الحكم رئيس حرسه الخاص وأمره بالدفاع عن القصر ، كما استدعى ابن عمه عبيدالله بن عبدالله البلنسي صاحب الصوائف ، وأمره أن يجتهد في شق طريقه إلى حي الربض واشعال النار فيه . ونجحت الخطة إذ عبر الجنود مخاضة في النهر — لأن الجسر كان ممتلئاً بالثوار — واشعلوا النار في الربض . وعندما رأى الثوار النار مشتعلة في ديارهم ومتاجرهم ، عادوا مهروابن بدون نظام لإنقاذ ذويهم وأموالهم ، وهنا حانت الفرصة لجيوش الحكم فأوقعت الثوار بين نارين واحاطت بهم من كل جانب وأعملت فيهم السيف حتى قتلت منهم خلقاً كبيراً .

وعندما انتهت المقاومة ، أمر الحكم بهدم الربض وحرث أرضه وزراعتها ، كما أمر من تبقى من الربضيين بترك البلاد في الحال .

هذه القسوة التي استعملها الحكم في اخضاع ثورة الربض ، جعلت اسمه مقروناً م هذا المكان ، فسمي الحكم الربضي . ولم يجرؤ أحد من خلفائه على إقامة مبان في هذه المنطقة حتى أواخر القرن الرابع الهجري تنفيذاً اوصيته .

اضطر عدد كبير من الربضيين إلى مغادرة الأندلس عقب فشل ثورتهم ، فعبر بعضهم المضيق إلى العدوة المغربية حيث استقروا بين قبائل البربر في جبال الريف شمالي المغرب . وكان المغرب قبيل ذلك الوقت بقليل قد لجأ إليه شريف علوي

هارب من مذابح العباسيين في المشرق وهو المولى ادريس بن عبدالله أحد أحفاد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب. واستطاع هذا الأمير بمساعدة المغاربة أن يؤسس في المغرب الأقصى دولة اسلامية مستقلة عن المشرق وهي دولة الأدارسة سنة ١٧٢ ﻫ (٧٨٨م) كما اتخذ من الوضع المعروف بجراوة مكاناً اسس فيه عاصمته الجديدة مدينة فاس .

وبعد وفاته خلفه ابنه ادريس الثاني سنة ١٧٧ﻫ (٧٩٣م) الذي أسس بدوره في دار القيطون مدينة أخرى سماها العالية في مقابل مدينة والده (فاس) التي لا يفصلها عنها سوى نهير صغير يعرف بوادي فاس وهو متفرع من وادي سبو .

غير ان هاتين المدينتين في الواقع كانتا في حاجة إلى إسكان وتعمير ، وهنا نجد المولى ادريس الثاني يرحب بالمهاجرين الربضيين الاندلسيين المقيمين في منطقة الريف شمالا ويطلب منهم الإقامة في مدينة فاس التي أسسها والده . فاستجابوا لطلبه وانتقلوا إلى عاصمة الادارسة ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا من اهل الحرف والصناعات والزراعة ، فأعطوا المدينة طابعا اندلسياً جميلاً سواء في صناعتها أو في ابنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية في أحواشها . وهكذا سيطر الاندلسيون على مدينة فاس لدرجة أنها سميت باسمهم وعرفت بمدينة الاندلسيين . أما مدينة العالية التي اسسها ادريس الثاني على الضفة المقابلة ، فقد أسكنها لجماعة من عرب افريقية من نواحي القيروان ولهذا سميت بمدينة القيروانيين ثم خفف الاسم إلى قرويين . وبمضي الوقت غلب اسم فاس على المدينتين وصار يشمل عدوة القرويين وعدوة الاندلسيين . وقد اشتغل القرويون بالتجارة بينما اشتغل معظم الاندلسيين بالزراعة والصناعة . وقامت بين الفريقين عداوات ومنافسات انتهت باندماجهما كشعب واحد في مدينة واحدة تحمل اسم فاس إلى اليوم » . (١)

---

(١) يفهم من كلام البكري أن مدينة فاس لم تستوعب كل ربضية الأندلس وأن قوما منهم يعرفون ببني موسى استقروا في مكان يعرف بأورتزور بالقرب من مدينة أغمات في جنوب المغرب ، وكذلك في مدينتي اغيفى ووليل بالقرب من مكناس . (البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٥٥) .

أما الفريق الآخر من الربضيين الذين غادروا بلادهم ، فقد واصلوا السير في البحر شرقاً حتى بلغوا شواطىء الاسكندرية فنزلوا في ضواحيها في أوائل عصر الخليفة العباسي المأمون سنة ٢٠٠هـ . وكانت الأحوال في مصر مضطربة إذ انتقلت إليها عدوى الخلافات التي نشبت بين الأمين والمأمون : ففريق يؤيد المأمون وفريق آخر كان مع الأمين وظل بعد مقتله سنة ١٩٨هـ يعارض خلافة المأمون ، وفريق ثالث بزعامة السرى بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ويضرب فريقاً بآخر بغية الاستقلال بمصر . فانتهز الاندلسيون المهاجرون فرصة هذه الفتن . واستولوا على مدينة الاسكندرية بمعاونة أعراب البحيرة وأسسوا فيها إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت اكثر من عشر سنوات .

وعندما استتب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبدالله بن طاهر بن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة ٢١٢هـ (٨٢٨م) . فأرسل إلى هؤلاء الاندلسيين يهددهم بالحرب ان لم يدخلوا في الطاعة ، فأجابوه إلى طلبه حقناً للدماء ، واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية وعدم النزول في أي أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا في مراكبهم إلى جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية ، فاستولوا عليها بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي [1] سنة ٨٢٥م . وهناك أسسوا قاعدة لهم أحاطوها بخندق كبير فعرفت باسم الخندق ثم انتقل هذا الاسم إلى الأوربية على شكل Chandax ثم Candia كانديا أو كندية وهو اسم المدينة الحالية التي تعرف ايضاً بالاسم اليوناني Herakleon . [2]

ولم تلبث جزيرة كريت منذ ذلك الوقت ان صارت قاعدة بحرية اسلامية هامة ومصدر تهديد مستمر للجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، اذ أخذ الاسطول الكريتي يغير على سواحل بيزنطة وممتلكاتها وتجارتها مما تسبب عنه وقوع اضطرابات اقتصادية وسياسية في داخل أراضيها . وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة

---

(١) نسبة إلى فحص البلوط Pedroches وهي المنطقة الجبلية المحيطة بقرطبة .

(٢) Vasiliev : History of the Byzantine Empire p. 278

مرات عديدة اشترك في بعضها مئات من الجنود الروس [١] ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، والسبب في ذلك يرجع إلى الامدادات العسكرية التي كانت تقدمها مصر والشام وافريقية إلى هذه الجزيرة المجاهدة باعتبارها حصناً أمامياً لها ضد عدوان البيزنطيين [٢] .

هذه هي ثورة الربض المشهورة التي اشترك فيها الفقهاء ورجال الدين والشعراء كمحرضين وقام بها العامة ومعظمهم من المولدين الذين أرادوا أن يكون صوت مسموع في المجتمع الاندلسي لشعورهم بنقص في وضعهم الاجتماعي والسياسي وفي حقوقهم العامة . وهذا يدلنا على أن حياة جديدة قد أخذت تسود الاندلس في فترة قصيرة ، وكان من مظاهرها ظهور طبقة مستنيرة من العامة بسرعة ، ثم سيادة الأندلسيين على الإسكندرية وكريت ومدينة فاس .

فثورة الربض وان كانت قد سفكت فيها دماء غزيرة ، إلا أن هذه التضحية قد قابلها تعويض في الجهات التي هاجروا إليها ، وفي الحيوية التي سرت في البلاد في مدى وجيز .

توفي الحكم في أواخر سنة ٢٠٦هـ (٨٢١م) تاركاً لابنه عبد الرحمن دولة متماسكة، خاضعة تمام الخضوع لسلطان بني أمية . هذا ويلاحظ ان الحكم رغم قسوته وجبروته امتاز بعدله وكرمه وشجاعته فضلاً عن انه كان فصيحاً بليغاً شاعراً مجيداً . ومن شعره الحماسي :

ولما تساقَيْنا سجالَ حُروبِنَا
سَقَيْتُهُمُ سماً من الموت ناقعاً

وهل زدت أن وفَّيْتُهُمْ صاع قرضهم
فوافَوْا منايا قُدِّرَتْ ومصارِعـا

---

(١) مثال ذلك الحملة البحرية الكبيرة التي قادها يوحنا الأول تزيمسكس John Tzimisces ضد كريت سنة ٩٤٩ م فقد اشترك فيها حوالي ٦٢٩ جندي روسي .

(٢) استطاع البيزنطيون استعادة جزيرة كريت في سنة ٣٥٠ م) على يد القائد نيقفور فوكاس.

فهاكَ بلادي إنني قد تركتُها
ميهّاداً ولم أتركْ عليها منازعاً

ومن شعره في الغزل :

قُضُبٌ من البانِ ماست فوق كُثبانِ
أعرضن عني وقد أزْمَعْنَ هجراني

ناشدتُهُنَّ بحقي فاعتزمْنَ علي
الهجران حتّى خلا منهن هيْماني

ملكْنَني مُلْكَ مَن ذلّت عزيمتُهُ
للحب ذُلَّ أسيرٍ موثَقٍ عاني

مَنْ لي بمغتصباتِ الروح من بدني
غصبنني في الهوى عزى وسلطاني[1]

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٧٢ ، ٧٩ .

٤ ـ الأمير عبد الرحمن الثاني أو الأوسط

(٢٠٦– ٢٣٨هـ ــ ٨٢٢ – ٨٥٢م)

ولي الحكم بعد أبيه وهو في سن الثلاثين ، وعرف بعبد الرحمن الثاني أو الأوسط لأنه كان ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم . وقد تميز عهده الطويل بأحداث متباينة على جانب كبير من الأهمية ، منها السياسي والحضاري والحربي والإداري. ولهذا لا يمكننا فهم هذا العصر تماماً إلا بعد دراسة هذه الجوانب المتعددة التي يمكن حصرها في النقاط التالية :

١ ــ انتقال الحضارة العراقية إلى الأندلس في أيامه .

٢ ــ جهاده البحري ضد المسيحيين والنورمانديين .

٣ ــ العلاقات الدبلوماسية الأولى بين الاندلس والامبراطورية البيزنطية .

٤ ــ فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة .

٥ ــ أعماله الإدارية والعمرانية .

١ ــ انتقال الحضارة العراقية إلى الأندلس في عهده :

سبق أن تحدثنا عن المؤثرات الحضارية الشامية والحجازية التي تأثرت بها الأندلس قبل ذلك الوقت . ثم جاء عصر هذا الأمير وجاءت معه مؤثرات حضارية جديدة انتقلت من بغداد إلى قرطبه بفضل تشجيعه واتساع افقه .

وتبدأ هذه النهضة الحضارية في العراق بعد أن أسس الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة بغداد (١٤٥ ــ ١٤٩هـ) وجعلها عاصمة لدولته ومقراً لخلافته .

ولم تلبث هذه المدينة أن نمت وازدهرت وسكنتها عناصر من مختلف الاجناس كالفرس والروم والصينيين والهنود . كل هذه العناصر لم تسكن بغداد باشخاصها فقط بل بثقافاتها وفنها وعلمها وتجارتها ، كما ساهمت بدور كبير في ترجمة آثار الفرس والهنود والسريان والاغريق والمصريين ... الخ فعربت الفاظ يونانية وفارسية وهندية كثيرة ، وترجمت حِكَم سقراط وافلاطون وارسطو وملأت كتب الأدب العربي مثل عيون الاخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ ، كما ترجمت قصص هندية وفارسية كثيرة مثل قصة السندباد الهندية ، وكتاب كليلة ودمنة الذي كان هنديا في الأصل ثم ترجم الى الفارسية وعنها نقله ابن المقفع الى العربية في زمن ابي جعفر المنصور . هذا الى جانب كتب تاريخ الفرس ونظمهم وتقاليدهم وكتب الهند في الرياضة والحساب والهندسة التي اقتبس منها العرب الكثير من نظرياتها . كذلك نذكر كتاب «هزار افسانه» ومعناه «الف خرافة» اذ أن الخرافة بالفارسية يقال لها افسانة والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرازاد ودينازاد . ويبدو أن هذه القصص وصلت الى العرب عن طريق الفرس ويظهر في بعضها أثر نظرية الهنود في الارواح وتناسخها . وقد وضعت هذه القصص في قالب عربي اسلامي في العصر العباسي الأول ثم زيد فيها في العصر الفاطمي بحيث لم يتبق من التأثير الفارسي سوى بعض الأسماء الفارسية .

ولقد واكب هذه النهضة العلمية نشاط صناعة الورق ونسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها مما ساعد على شيوخ الفكر الجديد في مختلف الامصار فأصبحت بغداد بذلك المدينة الممتازة في العلم الاسلامي Cite par excellence .

وهذه الصفة العالمية أثرت في انتاجها وحضارتها ، فلم يعد انتاجا قاصرا على

العراق فحسب بل شمل العالم الاسلامي والحياة الاسلامية ، ومثال ذلك تاريخ الطبري ، والمسعودي ، وكتاب الأغاني ، وقصص ألف ليلة وليلة ، كلها صور عامة للحياة الاسلامية بمختلف مظاهرها الاجتماعية والفنية والعملية . هذه الصفة العالمية التي تميزت بها بغداد جعلتها كعبة يحج اليها المسلمون من جميع انحاء العالم الاسلامي ، كما جعلت حضارتها تطغي على جميع الحضارات الاسلامية الأخرى كالشامية والحجازية .

وكان من الطبيعي أن تتجه الاندلس وغيرها من البلدان الاسلامية نحو تلك الحضارة العراقية الجديدة ، وقد تم ذلك في عهد الامير عبد الرحمن الثاني أو الأوسط (٢٠٧ – ٢٣٨ﻫ) رأى هذا الأمير أنه من الخير لأمته أن يترك سياسة الانعزال عن العراق التي سار عليها آباؤه ، وأن يساير حركة التجديد الحديثة التي ازدهرت في بغداد . ومن ثم اخذ عبد الرحمن الثاني يقلد الخلفاء العباسيين في مظهرهم وملابسهم وفي الاحتجاب عن الرعية ليكسب ملكه هيبة ورهبة .

كذلك فتح ابواب الاندلس للتجار العراقيين والبضائع العراقية كالملابس وأدوات الزينة التي سرعان ما انتشرت بين الاندلسيين المسلمين والمستعربين . ويروي المؤرخون في هذا الصدد أن الأمير عبد الرحمن الثاني اشترى من أحد التجار عقدا للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بمبلغ عشرة آلاف دينار وأهداه لزوجة من زوجاته تسمى الشفاء وقد كان لهذا العقد شهرة كبيرة في العراق ويعرف بعقد الشّبا ، [1] أي الملتف مثل الثعبان ، وقد سرق ضمن الاشياء الثمينة الاخرى التي نهبت في بغداد ابان الفتنة والحروب التي قامت بين الأمين والمأمون . ومن الطريف أن اسطورة هذا العقد استمرت في اسبانيا مدة طويلة الى ما بعد خروج المسلمين من الاندلس عندما وضعته احدى ملكات اسبانيا في جيدها . وقصة هذا العقد ان دلت على شيء فانما تدل على استشراق الاندلس في عهد عبد الرحمن الثاني .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ﺣ ٢ ص ١٣٦ .

من الناحية الفنية نجد أن الموسيقى العراقية أخذت هي الأخرى تغزو الأندلس وتحل محل الموسيقى المدنية ، ففي أوائل عهد الأمير عبد الرحمن وصل الى قرطبة مغني عراقي فارسي الاصل اسمه ابو الحسن علي بن نافع ويلقب بزرياب ، وهي كلمة فارسية تطلق على طائر اسود حسن التغريد ، وهذه الصفات تنطبق على زرياب اذ كان أسود اللون حسن الصوت فصيح اللسان .

أما عن سبب مجيء زرياب الى الاندلس فمختلف فيه :

هناك الرواية العامة التي تناقلها المؤرخون ومصدرها المؤرخ الاندلسي ابن حيان في كتابه المقتبس . ملخصها أن زرياب كان تلميذا للموسيقى العراقي الكبير اسحاق الموصلي . ثم حدث ان غنى زرياب أمام الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فاعجب الخليفة بفنه وبراعته في الغناء مما اثار حسد اسحاق الموصلي فعمل على اقصائه من البلاد وخيره بين الرحيل عن العراق أو البقاء فيه مستهدفا لغضبه وايذائه ، فاضطر زرياب الى مغادرة العراق والاتجاه الى الأندلس ، فبلغها عند تولية عبد الرحمن الثاني الحكم سنة ٢٠٧هـ.

وقد رحب عبد الرحمن بقدومه ورتب له ولاولاده مرتبات كبيرة كما خصص له حرسا خاصا من الفرسان يصحبه في تنقلاته .

هذه هي رواية ابن حيان ويلاحظ فيها أن زرياب ترك المشرق في خلافة هارون الرشيد الذي حكم من سنة ١٧٠هـ الى ١٩٣هـ. فاذا افترضنا جدلا انه رحل في السنة الأخيرة من حكم الرشيد اي سنة ١٩٣ هـ فانه بذلك قد استغرق في رحلته الى الاندلس ١٣ سنة اذ انه من المعروف انه بلغ الاندلس سنة ٢٠٧هـ.

هناك رواية أخرى يرويها المؤرخ الاندلسي ابن القوطية تقول بأن زرياب كان مقيما في بغداد في عهد الرشيد وفي عهد ولده الأمين أيضا وانه كان يتمتع في ايامهما بنفوذ كبير . ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ، التي انتهت بمقتل الأمين ، أخذ المأمون يتعقب أصدقاء اخيه وأفراد حاشيته اعتقادا منه بأنهم كانوا السبب في فساد اخلاق اخيه الأمين . وكان من بين هؤلاء ، المغني زرياب الذي

لم يجد وسيلة للخلاص سوى الفرار الى الأندلس خوفا من المأمون . هذه الرواية الثانية قد تكون أقرب الى المعقول من ناحية التقارب الزمني .

وكيفما كان الأمر ، فالمهم أن زرياب انتقل الى الاندلس ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية . ولقيت مدرسته الموسيقية الممثلة في شخصه وفي ابنائه وبناته وجواريه ، نجاحا كبيرا طغى على مدرسة الحجاز القديمة التي أخذت في الضعف والزوال وان كان تأثيرها ظل باقيا في حدود ضيقة الى ما بعد القرن الرابع الهجري (١٠م).

وتصف لنا المراجع المعاصرة مدى تأثير زرياب في الحياة الاندلسية حتى ليخيل الينا أن زرياب قد حمل معه بغداد ووضعها في قرطبة :

فهو الذي علّم الأندلسيين طرقا موسيقية جديدة في كيفية ابتداء الغناء وكيفية انهائه ، وجعل مضراب العود من قوادم النسر بدلا من الخشب مما يساعد على نقاء الصوت وسلامة الوتر . ثم انه اضاف وترا خامسا للعود جعله في الوسط وهو يقابل النفس من الجسد ، بينما الأوتار الأربعة الأخرى تقابل الطبائع البشرية الأخرى وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم . وما زالت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الاندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس .

كذلك علم زرياب الاندلسيين طريقة الطهي العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة بدلا من وضعها دفعة واحدة ، فيبدأ الانسان بالحساء أو المقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة واشار عليهم بأكل الاسفراج (الهليون) Esparragos واستعمال الأواني الزجاجية بدلا من الأواني الفضية والذهبية .

كذلك علم القرطبيين طريقة تصفيف شعورهم ورفعه خلف الآذان بدلا من تركه مسدولا على جباههم واعينهم ، كما اشار عليهم بلبس الملابس في اوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفة والثقل . فالشتاء يحتاج الى المعاطف الصوفية أو الجلدية والملابس الفاتحة اللون بينما تستعمل الملابس الخفيفة الزاهية

الألوان في الصيف والربيع .. الخ وقد عرف هذه الاصلاحات كلها باسم مراسم زرياب . [1]

والواقع ان مراسم زرياب ما هي الا رمز لتلك الحضارة الشرقية العراقية التي غمرت الاندلس ايام عبد الرحمن الأوسط والتي تمثل نزعة التجديد والاناقة (المودة) في ذلك العصر .

على انه ينبغي أن يلاحظ في هذا الصدد ان الاندلسيين لم يتقبلوا هذه الحضارة العراقية بسهولة اذ قام بعض علمائهم ووزرائهم بمعارضة زرياب وحضارته امثال تمام بن علقمة والشاعر يحيى الغزال مما اضطر الامير عبد الرحمن الى التدخل لحماية زرياب فنهر تمام بن علقمة ونفى يحيى الغزال ، وصالح بين زرياب وبين الوزراء ، وهذا يدل على أن الاندلسيين كانوا يتجهون اتجاها واعيا نحو الحضارة التي يأخذون منها .

٢ ــ جهاده البحري ضد المسيحيين والنورمانديين الوثنيين :

تشرف شبه جزيرة ايبيريا بسواحلها الطويلة على مياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسي شرقا وغربا وجنوبا . وهذا جعلها عرضة لأي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي . ولا شك ان المسلمين ادركوا هذه المشكلة منذ بادىء الأمر ورسموا لأنفسهم سياسة بحرية اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التي كانت منتشرة على تلك السواحل مثل : طرطوشة وطركونة ودانية وبجّانه والجزيرة الخضراء واشبيلية وغيرها . كما انهم لم يجدوا صعوبة في الحصول على خامات الخشب والحديد وكل ما هو ضروري لبناء الاساطيل ، فكل ذلك كان وما زال متوفرا في اسبانيا .

وكما اعتمد الأمويون في الشام على القبائل اليمنية الكلبية في أعمالهم البحرية ، فكانوا النواة الأولى للبحرية العربية في الشرق ، [2] اعتمد كذلك الأمويون في

(١) المقرى : نفح الطيب حـ ٤ ص ١٢٠ ١٢٤ .
(٢) هونيرباخ . البحرية العربية في عهد معاوية ص ١٩ .

الأندلس على اليمنيين القضاعيين في أعمالهم البحرية في بادىء الأمر ، فأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية ، وأسندوا اليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل. وقد سمي هذا الأقليم أرش اليمن أي أعطيتهم من الأرض أو الاقطاع . وكانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم) Pechina بالقرب من المرية ، هي أهم قاعدة لهم في هذا الاقليم الشرقي لما تمتاز به من موقع حصين مأمون ، وأرض خصبة عند مصب نهر أندرش Andarax المعروف أيضا بوادي بجانة . [1] وإلى جانب هذه العناصر العربية اليمنية ، اعتمد الأمويون كذلك في حماية سواحلهم ، على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين Mazarabes الذين كانوا يتكلمون بعجمية اهل الاندلس Romance . وانتشر هؤلاء البحريون في بلدان الساحل الشرقي الأندلسي التي كانت تعرف أيضا باسم البلاد البحريـــة . . وكانت لهم فيها مراسي ورباطات ودور صناعـــة بجوار العناصر اليمنية العربية . كذلك انتشر هؤلاء البحريون في بعض جهات الساحل الافريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية متفرقة . ومن أهم المدن التي أسسوها هناك نذكر مدينة تنس Tenes سنة ٢٦٢هـ ومدينة وهران Oran سنة ٢٩٠هـ في الجزائر . ويشير البكري أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم في كل عام بين شواطىء المغرب والأندلس ، فيقضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الأندلس . كذلك كان لهؤلاء البحريين الأندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات لكشف غياهبه وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري . ومثال ذلك ما أورده البكري عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعة من الأحداث فركبوا المراكب ودخلوا البحر وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة واخبار مشهورة . وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بجانة ، ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة بني الأسود ، ولعله رباط القابطة أو القبطة المشهور في كتب التاريخ ومكانه اليوم Cabo de Gata على ساحل المرية ، وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود ، ضمن قادة الأساطيل التي قاتلت النورمانديين

---

(١) الحميري : الروض المعطار ص ٢٨ ، ٣٧ ، العذرى . ترصيع الأخبار ص ٨٦ — ٨٧ .

في عهد الامير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .[1]

وحديث خشخاش واصحابه يذكرنا بحديث الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة Lisboa (عاصمة البرتغال حاليا) الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي في منتصف القرن الثالث الهجري أيضا . وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد من جزر الخالدات التي تعرف اليوم باسم جزر كناريا Canarias .[2]

أما عن النشاط الحربي لهذه الجماعات البحرية في حوض البحر المتوسط ، فيظهر بوضوح في الغارات البحرية التي شنتها أساطيلهم على سواحل وجزر الدولتين الرومانية المقدسة (الكارولنجية) والبيزنطية في البحر المتوسط . وقد سبقت الإشارة إلى استيلاء الربضيين على جزيرة كريت البيزنطية سنة ٢١٢هـ والنتائج التي ترتبت على ذلك .

ولقد تحدثت المصادر اللاتينية والبيزنطية باسهاب عن هذه الغارات ، ووصفت أصحابها بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص . والواقع إن أعمال القرصنة في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم ، بل كانت شائعة بين المسيحيين والوثنيين النورمانديين ايضا . وكثيرا ما استعان أمراء الأندلس بخبرة رعاياهم البحريين في حماية سواحلهم وقيادة اساطيلهم . كذلك يلاحظ أن السفارات التي كان يرسلها كل من أباطرة الدولة الرومانية المقدسة والدولة البيزنطية إلى أمراء وخلفاء قرطبة ، كانت تنص على طلب الحد من نشاط واعتداءات هؤلاء البحريين باعتبارهم من رعاياهم وتحت سلطانهم .

ومهما يكن من شيء ، فان ما ورد في الحوليات الأوروبية يشهد بوضوح على أن هؤلاء المجاهدين الأندلسيين قد ركبوا البحر وعرفوا القتال فيه وحذقوه منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي على عهد الحكم الأول الربضي .

هذا ، ومن الطريف أنه في نفس السنة التي استولى فيها الاندلسيون على

---

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٦١ — ٦٢ ، ٨١ .

(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٨٤ — ١٨٥ .

جزيرة كريت اي سنة ٢١٢هـ، استولى ايضا الأغالبة حكام أفريقية على جزيرة صقلية بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات . واقد شارك في هذه الحملة بعض الأندلسيين المقيمين في افريقية . ولم يقتصر الأمر على هذه المساهمة في فتح الجزيرة ، بل عمل الاندلسيون بعد ذلك على دعم الجيوش الاسلامية هناك ، إذ يروي كل من ابن الأثير وابن عذاري ، أن أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط ، وجه إلى تلك الجزيرة حملة بحرية خرجت من ميناء طرطوشة سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) واتجهت الى صقلية لتعزيز الحامية الاسلامية هناك . (١)

على أنه يبدو أن المساعدات الأندلسية لجزيرة صقلية لم تستمر بعد ذلك طويلا بسبب المعاهدة الودية التي ابرمت بين الامبراطور البيزنطي تيوفيل . وبين عاهل الأندلس عبد الرحمن الاوسط سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م). وكان الدافع لها هو اجتماع البيزنطيين والأمويين على عداوة العباسيين الذين كانت صقلية تقع تحت سلطانهم . إلا أنه يلاحظ أن الأمير الاندلسي لم يلتزم في هذه المعاهدة بأي عمل مضاد لنشاط الأغالبة في صقلية رغم كونهم حلفاء العباسيين ، بل اعتبرهم مجاهدين في سبيل الله .

على أن هذه السياسة التقربية التي سلكها الأمويون في الأندلس نحو بيزنطة ، كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم الكارولنجيين في فرنسا ، إذ لم ينس الأندلسيون صراعهم الطويل مع هؤلاء الفرنجة أيام شارل مارتل وابنه بيبين وحفيده شرلمان الذي حاول غزو الأندلس في حملته الفاشلة على عهد الأمير عبد الداخل . ثم جاء والده لويس الحليم Débonnaire (٨١٤ — ٨٤٠م) ، — على عهد عبد الرحمن الأوسط — فسار على سياسة آبائه العدائية نحو الأندلس ، وبسط حمايته على الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية وقورسيقة .

ورأى الأمير عبد الرحمن الأوسط أن البحر هو الميدان المناسب الذي يستطيع أن يعلو فيه خصومه الكارولنجيين ، إذ كان يعلم أن قوتهم الحقيقية تعتمد أساسا

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٣٨ .

على قواتهم البرية ، وأن قواتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفا في عهد هذا الامبراطور اويس التقي أوالحليم . ولهذا قام عبد الرحمن بحشد اساطيله على طول الساحل الشرقي الأندلسي ولا سيما في طرطوشة وبلنسيه ، ثم أخذ يشن غارات مستمرة من سنة ٨٣٩ إلى سنة ٨٥٠م على الشواطىء الكاروانجية في جنوب فرنسا حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وآرل وما حولهما .

ولم تقتصر غارات الاسطول الأندلسي على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية ، بل شملت أيضا جزر البليار التي كانت خاضعة لحمايتهم . ويبدو أن حكام هذه الجزر قد شعروا بعدم جدوى الارتباط بعجلة الدولة الرومانية المقدسة (الكاروانجية) ، فسارعوا إلى قبول سيادة الأمويين ، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين ، وفي ذلك يقول المؤرخ القرطبي ابن حيان : « وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين (٨٤٨م) أغزى الأمير عبد الرحمن اسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد واضرارهم بمن مر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله عليهم ، واظفر بهم ، فأصابوا سباياهم وفتحوا اكثر جزائرهم . وأنقذ الأمير فتاه شنظير الخصي إلى ابن ميمون عامل بلنسيه ليحضر تحصيل الغنائم ، ويقبض الخمس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، واحصيت رباعهم وأموالهم ، وقبض منهم ما عليه صولحوا». [١]

وفي السنة التالية سنة ٢٣٥هـ (٨٤٩م) ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن ، يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم ، فكتب إليهم ما جاء فيه :

«أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم ، واغارة المسلمين الذين وجهناهم اليكم لجهادكم ، واصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم ، وما أشفيتم عليه من الهلاك ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكروههم ،

(١) ابن حيان : المقتبس — القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط — نشرها محمود مكي (تحت الطبع)

والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ، وتمنعكم عن العود إلى مثل ذلك الذي كنتم عليه ، وقد اعطيناكم عهد الله وذمته». (1)

من هذه النصوص المتقدمة يتضح لنا أن الجزر الشرقية (البايار) قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة في سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨م)، وان كان من المعروف أن هذه الجزر لم تضم نهائيا، وتحكم حكما مباشرا بواسطة عمال الدولة الأموية إلا منذ سنة ٢٩٠هـ (٩٠٢م) حينما أرسل اليها الأمير عبد الله بن محمد ، قائده عصام الخولاني حاكما عليها .

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أنه رغم هذه الانتصارات التي أحرزها الأمير عبد الرحمن الثاني على خصومه الفرنجة وحلفائهم في حوض البحر المتوسط ، فإن البحرية الاندلسية في عهده كانت لا تزال محدودة في امكانياتها ووسائلها ، فلم تكن لديها القواعد والمحارس والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها . ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أساطيل النورمان أو الفايكنج بتحركاتها السريعة ، وأسهمها النارية الخاطفة ، وأشرعتها السوداء التي جعلت بعض المعاصرين يراها وكأنما ملأت البحر طيرا جوناً» . والجون هو ضرب من القطا سود البطون والأجنحة .

ولقد ورد ذكر هؤلاء الأقوام المتبربرين في المراجع العربية باسم الأردمانيين والمجوس . وواضح من التسمية الأولى أنها تحريف للكلمة Norsemen الانجليزية، أو Normandos الأسبانيـــــة وهي تعني سكـــان الشمال أي سكان الدول الإسكندنافية . أما تسميتهم بالمجوس فلأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون فيه بل كانوا يحرقون بها جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم ، فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزردشتية أو المجوس . كذلك أطلق عليهم اسم الفايكنج Vikingos وهي مشتقة من الكلمة النرويجية فيك Vik التي تعني ساكن

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣٢ – ١٣٣ .

الخليج ، لهذا أطلقوها على سكان شبه جزيرة اسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وإن كانت قد وردت في المعاجم الاسبانية Vikingos بمعنى المحاربين .

وأصل هذا الشعب جرماني أو تيوتوني ، وينقسم إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون ، والدنماركيون . والمجموعة الأخيرة هي التي هاجمت سواحل فرنسا وانجلترا ثم سواحل المسلمين في الأندلس والمغرب .

هذا ويلاحظ أن غارات النورمانديين لم تكن مركزة في مجموعة واحدة أو ذات قيادة موحدة ، بل كانت في مجموعات متعددة وفي أماكن مختلفة ، ولهذا كثيرا ما كانوا يغيرون في وقت واحد وفي أماكن متفرقة أو متقاربة ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الروايات الاسلامية التي دونت أخبارهم .

كذلك عرف عن النورمانديين أنهم كانوا يتحاشون الأماكن المحصنة بوسائل الدفاع والحراسة ، ويهاجمون السواحل المكشوفة التي لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم . وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع الأخير ، ولهذا لم يجد هؤلاء الشماليون صعوبة في احتلال مدينة قادس ثم اختراق نهر الوادي الكبير من مصبه ، والصعود فيه بسفنهم ، ثم الاستيلاء على مدينة اشبيلية وضواحيها عدة أيام عاثوا خلالها قتلا ونهبا وحرقا وتخريبا سنة ٢٣٠هـ (٨٤٤م) على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ..

ولما كان معظم الأسطول الأندلسي مرابطا على الساحل الشرقي ، فقد اعتمد الأندلسيون في مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية ، فأخذوا يضعون لهم الكمائن ، ويبثون لهم السرايا من فرق الفرسان الخفيفة كي تحول بينهم وبين العودة إلى مراكبهم ، ويقذفونهم بالمنجانيق من جنبي نهر الوادي الكبير . إلا أنه يبدو أن انسحاب النورمانديين من اشبيلية لم يتم إلا بعد وصول وحدات الأسطول الأندلسي إلى مكان المعركة ، يؤيد ذلك قول العذري : « ثم هبطت للإمام عبد الرحمن خمسة عشر مركبا بالمقاتلة والعدة ، فنزلوا اشبيلية ، فلما أحس المجوس بهم لحقوا بلبلة [1] Niebla

(١) العذرى : المرجع السابق ص ١٠٠ .

وقد انتهت هذه الغارة بانهزام النورمانديين في موقعة كبيرة عند بلدة طلياطة Tejada بين لبلة واشبيلية ، انسحبوا على اثرها من الاندلس بعد أن تركوا في يد المسلمين عددا كبيرا من الأسرى الذين لم يتمكنوا من اللحاق بهم أثناء انسحابهم . وقد خيرهم المسلمون بين الإسلام أو القتل ، فاعتنقوا الإسلام واختلطوا بالأهالي ، وتكونت منهم جالية نورماندية اشتغلت بتربية المواشي وصناعة ألوان من الجبن والمنتجات الألبانية ، وهي الصناعة المشهورة في بلادهم الدانمرك حتى اليوم .

هذه هي الغارة النورماندية على الاندلس ، وقد تركت أحداثها المؤلمة آثارا بعيدة المدى ظل صداها مسموعا في الأدب الأندلسي إلى وقت متأخر .

ولا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه الأذهان إلى ضرورة اتخاذ اجراءات دفاعية ضد أي هجوم مفاجىء يقع على الأندلس من ناحية البحر . ولهذا قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بعدة أعمال هامة في هذا السبيل ، ومثال ذلك أنه أحاط مدينة اشبيلية بأسوار حجرية عالية كما بنى في مينائها دار صناعة لبناء السفن الحربية ، وزودها برجال البحر المدربين ، وبالآلات وقوارير النفط التي كانت تقذف على سفن العدو . هذا إلى جانب المحارس والرباطات التي أقامها على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي ، على غرار ما هو معمول به على الساحل الشرقي المطل على البحر المتوسط . وقد جرت العادة أن تكون الحراسة في مراقب عالية ملحقة بالرباط تكشف سفن العدو من مسافة بعيدة ، ويقيم فيها المرابطون والحراس الليليون المعروفون باسم السمار . وكانت هذه المراقب أو الربط مزودة بالمناور أو المنائر أو المنارات التي عرفت ايضا باسم الطوالع أو الطلائع جمع طالعة أو طليعة Atalaya . فكان على أولئك السمار أو المرابطين إذا ما كشفوا عدوا في البحر مقبلا من بعيد ، أشعلوا النار على قمم المناور أو الطلائع إن كان الوقت ليلا ، أو أثاروا منها الدخان إن كان الوقت نهارا . هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو مثل صفارات الإنذار

في وقتنا الحاضر . وكثيرا ما استعمل المرابطون اشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وان كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات .

وكيفما كان الأمر ، فإن المجهودات الكبيرة التي بذلها الامير عبد الرحمن الأوسط في تقوية اسطوله وتحصين سواحله ، قد استمرت واينعت في عهد ولده الامير محمد الأول الذي هزم النورمانديين وردهم على أعقابهم خاسرين عندما عاودوا الهجوم على سواحل الأندلس في عهده . وكل هذا يدل على أن النورمانديين لم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم في اسبانيا كما فعلوا في كثير من البلاد مثل فرنسا وانجلترا . وهذا راجع الى حد كبير الى سياسة عبد الرحمن الذي يعتبر بحق المؤسس الحقيقي للبحرية الأندلسية .

٣ ــ العلاقات الدبلوماسية الأولى بين الأندلس والدولة البيزنطية :

لم تنعم الامبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بالهدوء والاستقرار بسبب غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها : فالأغالبة حكام افريقية قد انتزعوا منها جزيرة صقلية وأخذوا يغيرون منها على سواحل البحر الادرياتي وجنوب ايطاليا حتى بلغوا أسوار روما نفسها . والأندلسيون الربضيون قد انتزعوا منها ايضا جزيرة كريت وشنوا منها الغارات على جزر بحر ايجه وساحل تراقيا وجبل آتوس ومدينتي ميتاين وسالونياك وغيرهما . هذا إلى جانب غارات الجيوش العباسية التي كانت تخرج باستمرار من ثغور الشام والجزيرة لتغير على الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى .

وكان يحكم الدولة البيزنطية في أيام عبد الرحمن الأوسط ، الامبراطور تيوفيل Theophilus (٨٢٨ ــ ٨٤٢م) وكان رجلا متعصبا ضد الاسلام ويتوق إلى الانتقام من المسلمين . وفي سنة ٢٢٢هـ (٨٣٧م) دخل هذا الامبراطور في نزاع مع الخليفة العباسي المعتصم ، وانتهز فرصة انشغاله بقتال الخُرَّميين وأغار

على الحدود الاسلامية وهاجم مدينة زبطرة Zapetra وهي أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم ، فأحرقها وخربها . وغضب المعتصم لهذا الحادث خصوصا وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته التركية . فأقسم بأن ينتقم من الروم وأن يخرب مدينة عمورية Amorium مسقط رأس والد الامبراطور البيزنطي وأهم مدينة في الاناضول . ثم حشد المعتصم جيشا كبيرا تولى قيادته بنفسه ، ويقال إن اسم عمورية كان منقوشا على درع كل جندي من جنود المسلمين . ثم تقدم المعتصم بجيوشه حتى التقى بالامبراطور تيوفيل فهزمه وخرب مدينة انقرة ثم حاصر مدينة عمورية التي تقع بجوارها ، وبعد حصار شديد تمكن اقتحام أسوارها وتخريبها .

وهكذا انتقم المعتصم من الروم وكان انتقاما رائعا عبر عنه الشاعر ابو تمام بالقصيدة الى مطلعها :

السيف أصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

ورأى تيوفيل بعد هذه الهزيمة أن يبحث عن حلفاء جدد يؤازرونه ضد العباسيين وحلفائهم ، فاتجه بطبيعة الحال إلى القوى الأوربية المسيحية في بادىء الأمر ، ثم اتجه إلى حكومة قرطبة الأموية ، مستغلا العداء القائم بينها وبين حكومة بغداد .

وفي سنة ٢٢٥ ه (٨٤٠ م) أرسل الامبراطور تيوفيل سفارة إلى عاهل الأندلس عبد الرحمن الثاني . وكان على رأس تلك السفارة رجل يوناني يجيد اللغة العربية اسمه قرطيوس ، كما أرسل معه هدايا فاخرة ورسالة يخطب فيها وده ويسأله عقد تحالف معه ضد أعدائه العباسيين الذين قضوا على ملك أجداده الأمويين بالمشرق . كما يطلب منه أيضا مساعدته ضد الأغالبة في صقلية وضد الربضيين في كريت .

ولقد استقبل عبد الرحمن الرسل استقبالا فخما ، وقبل الهدايا البيزنطية ، ورد عليها بمثلها ، كما أوفد سفارة مماثلة إلى الامبراطور البيزنطي برئاسة الشاعر

يحيي الغزال . وكان رجلا طويلا عريضا وسيم الوجه موفور النشاط ولهذا لقب بالغزال . وفي ذلك يروي أن يحيي الغزال دخل على الأمير عبد الرحمن يوما ، فقال الأمير : « جاء الغزال بحسنه وجماله » . وربما كانت هذه الصفات هي التي جعلت عبد الرحمن يختاره للسفارة بينه وبين الملوك كي يحسن وقعه على النفوس .

ولما وصلت السفارة الأندلسية إلى القسطنطينية صحبة السفير البيزنطي عن طريق البحر ، استقبلها الامبراطور تيوفيل بالحفاوة والترحاب وتسلم منها هدية العاهل الأندلسي ورسالته التي يرد فيها على خطابه .

والرسالة أوردها ابن حيان في كتابه المقتبس وهي رسالة طويلة في مجموعها ، وعباراتها معسولة جميلة ، ولكننا لا نخرج منها بشيء ايجابي فعال ، بمعنى أن عبد الرحمن في هذه الرسالة لم يأخذ على نفسه ، أي تعهد حربي يقوم به ضد أعدائه سواء في الحاضر أو المستقبل . فهو يشاطر الامبراطور سخطه على العباسيين ويرجو من الله أن يقطع دابرهم . وكذلك الربضيون في كريت فهو يتبرأ منهم لأنهم خرجوا عن طاعته ويترك للامبراطور البيزنطي حرية معاقبتهم وطردهم من الجزيرة ، أما الأغالبة فهو يعتذر عن محاربتهم لأنهم يجاهدون في سبيل نصرة الاسلام .

وبعد أن أدت السفارة الأندلسية مهمتها عادت إلى قرطبة عن طريق البحر أيضا . وقد دون يحيي الغزال مشاهداته في العاصمة البيزنطية ، وأحاديثه مع الامبراطورة تيودورا زوجة تيوفيل ، ومع ابنه وولي عهده الأمير ميشيل (الثالث فيما بعد) وقد نقل المؤرخ الأندلسي ابن حيان هذا الوصف في كتابه المقتبس في أخبار بلد الأندلس [1] .

هذا وقد ورد في بعض الكتب الأندلسية المتأخرة أن الأمير عبد الرحمن أرسل يحيي الغزال في سفارة أخرى إلى ملك النورمانديين في شمال أوربا عقب

---

(١) القسم الخاص بعصر عبد الرحمن الأوسط من كتاب المقتبس نشره الدكتور محمود مكي .

غارتهم على الأندلس . ومصدر هذه الرواية أديب أندلسي من كتاب القرن السادس الهجري (١٢ م) وهو ابن دحية الكلبي في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب (١) . ففي هذا الكتاب وصف ابن دحية هذه الرحلة وصفا مضطربا غامضا يشبه تماما في تفاصيله وصف رحلة الغزال إلى القسطنطينية التي دونها ابن حيان في القرن الخامس الهجري (١١ م) . نجد نفس الأشخاص ، ونفس الوصف الذي يتكلم عن هياج البحر ومشقة الرحلة ، ونفس الأحاديث التي دارت بينه وبين الامبراطورة وولي العهد .. الخ . بمعنى أن السفارة الثانية هي صورة مشوهة للسفارة الأولى . وهذا الالتباس والخلط بينهما أثار شك بعض المؤرخين في صحة السفارة الثانية التي أوردها ابن دحية إلى بلاد المجوس أو النورمانديين ، إذ تظهر فيها الصنعة والاختراع . ولعل الحركة الدبلوماسية الغريبة التي قام بها الامبراطور البيزنطي تيوفيل في قرطبة لأول مرة ، والهجوم الجريء المفاجيء الذي قام به النورمانديون في نفس هذا الوقت تقريبا ولأول مرة كذلك ، لعل هذا وذاك قد ولدا في أذهان الأندلسيين أفكارا قصصية مختلطة متضاربة ، لم تلبث أن تحولت إلى حقائق تاريخية كما هو ظاهر من رواية ابن دحية عن هذه السفارة لبلاد النورمان .

وكيفما كان الأمر فإن هذه العلاقات الدبلوماسية التي قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينية ، ترينا أن كلا من العالم المسيحي والإسلامي قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التي أصبحت هي المتحكمة في سياسته لا الاعتبارات الدينية كما كان الحال من قبل .

٤ ــ فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة :

كان المجتمع الأندلسي حتى ذلك الوقت يتكون من طبقة الفاتحين العرب والبربر ثم من طبقة المولدين الذين هم ثمرة اختلاط وتزاوج الفاتحين بأهالي البلاد الأصليين . وإلى جانب هؤلاء كانت توجد عناصر أخرى من أهالي

(١) نشر هذا الكتاب ابراهيم الا بياري بالاشتراك مع حامد عبد المجيد.

البلاد ظلت محافظة على دينها المسيحي ولكنها اندمجت في الحياة الاسلامية الجديدة وتعلمت اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأعجمية الدارجة المعروفة بالرومانسية Romance وهي لهجة عامية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الاسبانية .

ولقي أفراد هذه الطبقة تسامحا كبيرا من جانب الأمويين ، واحتل بعضهم مناصب كبيرة في الجيش والادارة والقصر ، كما أقبل الكثيرون منهم على التعمق في دراسة علوم العرب وآدابهم وأشعارهم ، ونبغ منهم عدد غير قليل في هذا الميدان حتى فاقوا العرب أنفسهم في الشعر والنثر . ولهذا عرف أفراد هذه الطبقة باسم المستعربه أو المستعربين Mozarabes أي الذين تعربوا لغة وثقافة .

ولقد أثار إقبال المسيحيين على الثقافة العربية ، حسد القساوسة ورجال الدين الذين كانت لهم أديرة وكنائس في شتى أنحاء الأندلس . فأخذوا يعيبون على الشباب المسيحي إقباله على قراءة اللغة العربية وتركه اللغة اللاتينية لغة الكتاب المقدس وسير القديسين .

وكان زعيم هذا الحزب المعارض المتعصب راهبا اسمه ايلوخيو Eulogio . كان من أسرة مستعربة ميسورة الحال ، وله أخ موظف في الدولة الأموية ، واخوة آخرون يشتغلون بالتجارة . وحاول الراهب ايلوخيو بشتى الطرق أن يحمل الشبان المسيحيين على قراءة اللغة اللاتينية فوضع لهم شعرا لاتينيا جديدا يقوم على القافية والوزن مثل الشعر العربي ، إلا أن محاولته باءت بالفشل نتيجة لإقبال الشباب المسيحي على تعلم اللغة العربية وآدابها .

عندئذ تحول هذا الفريق المتطرف من مهاجمة الثقافة الإسلامية إلى مهاجمة الإسلام نفسه . وكانت معلومات هؤلاء الناس عن الدين الاسلامي لا تزال ضئيلة وسطحية ، ولهذا لم يفهموه حق الفهم ، وأخذور يتقولون على الإسلام ونبيه أقاويل مختلفة مبنية على الخرافات والأباطيل .

وانقياد لهؤلاء القساوسة عدد من الشباب المسيحي من الرجال والنساء والرهبان ،

فأخذوا يحرضونهم على الاستشهاد . وكانت طريقتهم في الاستشهاد عجيبة حقا ، فما كان على طالب الاستشهاد إلا أن يذهب إلى مكان عام كالمساجد والميادين العامة ، ويسب الاسلام والرسول علنا ، فيقبض عليه ، ويقاد إلى القاضي الذي يحاول اقناعه بالعدول عن أقواله ، ولكنه يرفض ويكرر السب والتجريح ، فيأمر القاضي بإعدامه .

ولقد بدأت هذه المأساة على شكل حادث فردي ملخصه أن قسيسا في إحدى الكنائس بقرطبة ، اسمه برفكتو Perfecto ، دخـل في نقاش مع أحد المسلمين حول فضائل ومميزات كل من محمد وعيسى ، وتطورت المناقشة إلى جدال عنيف فقد القسيس فيه صوابه فسب الإسلام كما سب الرسول علنا ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام . وقد حرصت حكومة قرطبة على تنفيذ هذا الحكم علنا في أول أيام عيد الفطر سنة ٢٣٥ هـ (سنة ٨٥٠ م بغية ارضاء العامة وتسكين غضبهم .

غير ان الراهب ايلوخيو Eulogio وغيره من زعماء هذا الحزب المتعصب استغلوا هذا الحادث وقاموا بدعايات واسعة النطاق ضد الاسلام والمسلمين مما زاد في اشعال نار الفتنة ، وعمت البلاد موجة من التعصب الديني كان مركزها العاصمة قرطبة .

فبعد مقتل برفكتو ، نجد راهبا اسمه اسحاق يسب الرسول أمام القاضي كي يحكم عليه بالاعدام ، وحاول القاضي تخفيف هذا الحكم عليه متهما إياه بالجنون ، ولكن الأمير عبد الرحمن الأوسط رأى أن سياسة الحزم تقتضي اعدامه قبل أن يستفحل الأمر . وفي سنة ٢٣٦ هـ (٨٥١ م) اعدم اسحاق واحرق شلوه حتى لا يحتفل اخوانه بدفنه كما فعلوا مع برفكتو من قبل .

ولم تقتصر هذه الحوادث على الرجال فقط ، بل ساهمت النساء أيضا بنصيب فيها ، ومثال ذلك حادث الفتاة الصغيرة التي تدعى فلورا Flora . هذه الفتاة كانت من طبقة المولدين ، من أب مسلم وأم مسيحية ، فهي مسلمة

بحكم نشأتها . ولكن هذه الفتاة وقعت تحت تأثير ايلوخيو وأصحابه فاعتنقت المسيحية وهربت من منزل أبيها وأقامت عند أسرة مسيحية . وبحث عنها أخوها حتى عثر عليها وعلم بحقيقة أمرها فاقتادها إلى القاضي . وهناك طلبت فلورا الاستشهاد على هذا النحو الذي ذكرناه ، وقد تأثر القاضي بجمالها وحاول أن يثنيها عن موقفها ، ولكنها رفضت وأصرت على موقفها ، فأرسلت إلى السجن. وانتهى أمرها بالإعدام سنة ٢٣٦ هـ . وظلت موجة الاستشهاد مستمرة في قرطبة حتى ضج الكثيرون من المسيحيين المعتدلين في جميع أنحاء الأندلس ، فأعلنوا استنكارهم لهذه الحركة التي يتزعمها الراهب ايلوخيو وأبلغوا قرارهم هذا للأمير عبد الرحمن .

ورأى عبد الرحمن أن يعقد مجمعا دينيا في قرطبه يضم جميع أساقفة الأندلس برئاسة مطران اشبيليه واسمه ريكافريدو Recafredo . وفي سنة ٢٣٧ هـ (٨٥٢ م) عقد هذا الاجتماع ، وكان ممثل الحكومة فيه موظفا مسيحيا يدعى جومز بن انطونيان . وفي هذا المجمع عرض ممثل الحكومة الحالة على المجتمعين مبينا خطورتها ومدى ما يترتب عليها من عواقب وخيمة ، ثم طالب المجتمعين من الأساقفة اعلان استنكارهم لهذه الحركة والعمل على محاربتها . ووافق الجميع على هذا الكلام ما عدا اسقف قرطبة واسمه ساؤول Saul الذي دافـــع عن مسلك هؤلاء المتطرفين . ثم أصدر المجمع قرارا يستنكر فيه حركة هؤلاء المسيحيين المتطرفين واعتبرها حركة جنونية انتحارية وخروجا على تعاليم الكنيسة . وقد علق الراهب ايلوخيو على هذا القرار بأنه ثمرة الحرص والخوف .

ثم اعتقلت الحكومة هذا الراهب واتباعه من زعماء هذه الحركة وأودعتهم السجن، ولكن هذا الاجراء لم يحل دون استمرار هذه الفتن الدينية . فيروى أن عددا من هؤلاء المتطرفين اقتحموا مسجد قرطبه وأخذوا يسبون الاسلام فيه. فقبض عليهم وحكم عليهم جميعا بالموت سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) . ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد هذا التأريخ بستة أيام ، فاعتبروا ذلك انتقاما إلهيا . وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن افرج عن الراهب ايلوخيو وعين

اسقفا على مدينة طليطلة فهدأت الفتن قليلا في قرطبة . ولكنه لم يلبث أن عاد ثانية إلى قرطبة ليواصل نشاطه القديم فيها . عندئذ لم يطق الأمير محمدا صبرا ، فقبض عليه وقتله سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) وأخذت هذه الفتنة بعد ذلك تضعف تدريجيا حتى انتهت من تلقاء نفسها .

مما تقدم نرى أن هذه الفتن الدينية المتطرفة جاءت في الواقع نتيجة لحركة الاستعراب وتعلم الآداب الاسلامية التي عمت الشباب المسيحي في اسبانيا .

٥ ـ أعماله الإدارية والعمرانية :

كان عصر عبد الرحمن الأوسط عصرا حافلا بجليل الأعمال الإدارية والعمرانية حتى قيل إن البلاد في عهده خرجت من طور البداوة إلى عهد الحضارة .

فمن الناحية الإدارية نجد أن هذا الأمير هو الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس ، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة ، ومن أهمها خُطّة [1] الوزارة التي خصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة . وقد أمدنا كل من ابن حيان ، وابن خلدون ، وابن سعيد المغربي ، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة . فقال ابن حيان :

« والأمير عبد الرحمن ، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم ، والتكلم معهم في الرأي ، والمشورة لهم في النوازل وأفرد لهم بيتا رفيعا داخل قصره مخصوصا بهم ، يقصدون إليه ، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم . فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا ، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه . وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة) أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه ، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه ... وجرى على ذلك من تلاهم » [1] .

---

(١) الخطة بضم الخاء معناها نظام Institution فيقال خطة الوزارة مثلا بمعنى نظام الوزارة وهكذا. اما الخطة بكسر الخاء فتعني الحي أو المنطقة فيقال خطط القاهرة أو الشام بمعنى احياء القاهرة أو الشام فالخطة بالضم ما يدبر عقلا ، والخطة بالكسر ما يدبر مكانا .

(٢) ابن حيان : المقتبس في أخبار بلد الاندلس ورقه ١٩٦ .

ويشير ابن عذارى إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعة ، وان رزق كل واحد منهم كان ثلاثمائة دينار [1] . ولم يحدد ابن عذارى المدة المستحقة لهذا الراتب وإن كان يبدو أنه عن كل شهر في الغالب ، وهذا يعتبر قليلا إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد .

أما ابن خلدون ، فقد أمدنا ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطة بقوله :

« وأما دولة بني أمية في الأندلس ، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خـُطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا . وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم . وينفذون أمر السلطان هناك كلٌّ فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم »[٣] .

أما ابن سعيد المغربي ، فيشير إلى أن مناصب الوزارة في الأندلس كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعلومة أمثال بني حدير ، وبني أبي عبدة ، وبني شهيد ، وبني فطيس ، وكلهم من موالي الأمويين المشرقيين أو الأندلسيين .

من هذه النصوص السابقة نفهم أنه كان يوجد بالأندلس منذ عهد الأمير عبد الرحمن الاوسط ، وزارة متعددة المناصب ، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة . وهذا التعدد في مناصب الوزراء لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي ، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد وقلما وجد وزيران . أما في الأندلس ، فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ١٢١ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٣) المقري : نفح الطيب حـ ١ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

مختص بها ، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابة ، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة . فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة ، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق في العصر الوسيط .

ومن الطريف أن ابن حيان حينما تكلم عن وزراء الأمير عبد الرحمن الأوسط ذكر من بينهم وزيرا سكندريا ذهب إلى الأندلس في صباه ، وظل يترقى إلى أن صار وزيرا ، فيقول : « ومن وزرائه عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني الذي حضر إلى الأندلس وهو فتى ، وكان يشدو شيئا من الغناء على مذهب الفتيان ، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله : أمسك عن الغناء البتة فإنه يريبك لدنيا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بصنعك ، ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى بن شهيد ، فظل يترقى في منازل الخدمة حتى رقي إلى الوزارة والقيادة » (١) .

هذا ويلاحظ أن ابن حيان ذكر في موضع آخر من كتابه اسم هذا الوزير السكندري ضمن قواد الأمير عبد الرحمن الثاني ، وهذا يثبت ما قاله آنفا من أنه رقى إلى الوزارة والقيادة (٢) .

اهتم عبد الرحمن الاوسط كذلك بمشاكل الأمن الداخلي في العاصمة ، فبعد أن كانت كلها مركزة في يد شخص واحد يدعى بصاحب السوق ، جعلها مقسمة على عدة أشخاص وهم :

١ ــ صاحب السوق وقد اقتصر عمله على مراقبة الأسواق والنظر في مشاكلها التموينية ، وهي وظيفة المحتسب فيما بعد .

٢ ــ صاحب الشرطة العليا وينظر في قضايا علية القوم .

٣ ــ صاحب الشرطة السفلى وينظر في قضايا عامة الناس .

---

(١) ، (٢) ابن حيان : المقتبس ورقة ١٩٧ .

٤ ــ صاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة في المدينة التي تقوم مقام المجلس البلدي اليوم .

وهذه الوظائف كانت تتغير في اختصاصاتها أحيانا ولكنها تتفق جميعا في الاشراف على الأمن الداخلي أو ما يسمى بالقضاء المدني . كذلك وضع عبد الرحمن نظاما جديدا للسكة (العملة) ، فأنشأ في قرطبة دارا جديدة للسكة . قبل ذلك الوقت كانت النقود التي تضرب في الأندلس قليلة ونادرة وكلها دراهم برونزية وفضية بسيطة . أما الدنانير الذهبية فكانت قليلة التداول وكلها مضروبة في المشرق أو في شمال افريقيا . وكان البيع والشراء في معظم الحالات يقوم على أساس المقايضة أو التبادل بالسلع والبضائع . فعبد الرحمن الثاني هو أول من ضرب نقودا أندلسية مستقلة ثابتة .

أما الأعمال الانشائية التي تمت في عهده فهي كثيرة أيضا حتى شبهه المؤرخون بخليفة دمشق الأموي الوليد بن عبد الملك الذي كان هو الآخر محبا للفنون ، مشيدا للعمارات الكثيرة وأخصها الجامع الأموي بدمشق أما عبد الرحمن الأوسط ، فقد بنى مسجدا جامعا في مدينة اشبيلية وهو مسجد ابن عَدَبَّس على اسم القاضي عمر بن عدبس الذي أشرف على بنائه سنة ٢١٤ هـ . كذلك أمر عبد الرحمن ببناء مسجد آخر في مدينة جيان Jaen سنة ٢١٠ هـ ، أما المسجد الجامع بقرطبة فقد زاد فيه عبد الرحمن الأوسط زيادة كبيرة من ناحية المحراب جنوبا . وقد بلغ طول هذه الزيادة خمسين ذراعا ، وعرضها مائة وخمسين ذراعا ، وعدد سواريها ثمانين سارية . ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه زيادته سنة ٢٣٤ هـ [(١)] كذلك حرض جواريه على بناء المساجد في مختلف أحياء العاصمة من مالهن الخاص ، فتسمع عن مسجد طروب ، ومسجد الشفاء ، ومسجد فجر ... الخ .

وإلى جانب هذه المنشآت الدينية هناك منشآت أخرى دنيوية يذكر منها

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨٢ ، ٢٣٠ ، عبد العزيز سالم : المساجد والقصور في الاندلس ص ١٩ وما بعدها .

بناء مدينة مرسية Murcia (لعلها تصغير مرساة) سنة ٢١٦ ﻫ (٨٣١ م) على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير وكانت مرسية قبل ذلك قرية خاملة في كورة تدمير على الساحل الشرقي الأندلسي، ثم لم تلبث ان صارت قاعدة للكورة، ثم سميت الكورة كلها باسمها. كذلك أحاط اشبيلية بسور حجري كبير بعد غارة النورمانديين عليها. وفي قرطبة أقام على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير طريقا ساحليا أو كورنيشا عرف بالرصيف وذلك في سنة ٢١٢ ﻫ (٨٢٧ م).

كذلك بنى عبد الرحمن لنفسه قصرا جديدا بجوار قصر الإمارة القديم، وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحيطة بقرطبة، كما أقام فيه ابراجا مغطاة بالزجاج الشفاف لتكشف المناظر الطبيعية التي أمامه مثل الوادي الكبير وما فيه من سفن، وصحراء الربض وما وراءها من مزارع، وهي المعروفة باسم القنبانية Campiña. وكثيرا ما كان الأمير عبد الرحمن يصعد إلى هذه الأبراج ليسرح ببصره في هذه المناظر الخلابة.

صفات عبد الرحمن الثاني ونهايته:

امتاز هذا الأمير بثقافة واسعة وعلم غزير وشغف بالفنون والآداب، ويجمع المؤرخون على أنه كان أكثر أمراء الأمويين علما وثقافة باستثناء الحكم المستنصر الذي حكم بعده بأكثر من قرن. ولهذا كان بلاط عبد الرحمن حافلا بالعلماء والشعراء والمغنيين، أمثال المغني زرياب والشاعر يحيى الغزال والعالم عباس بن فرناس وقد سبق أن أشرنا إلى زرياب ويحيى الغزال. أما عباس بن فرناس فهو شخصية عجيبة مثلهما، ولا يعرف أصله بالضبط، فالبعض يجعله اسباني مولد من اقليم رنده، والبعض الآخر يرى أنه مغربي الأصل. وكيفما كان الأمر، فإن هذا الرجل كان عالما بعلوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء. يروي المؤرخون أنه حاول الطيران فكسا نفسه بقوادم النسر وصنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور وربطها في جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين.

ثم قام بمحاولته من ناحية الرصافة فحلق في الهواء مدة واستطاع أن يطير إلى مسافات بسيطة ولكنه اخفق في تقدير وزن الجسم فسقط على الأرض وأصيب ببعض الكدمات . ويقال إن اخفاقه يرجع إلى عدم اتخاذه ذنبا أو ذيلا يعينه على السقوط . وكيفما كان الأمر فإن هذه المحاولة هي أول محاولة للطيران في التاريخ .

يروون كذلك أن عباس بن فرناس صنع في بيته قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وأفلاك ، وانه استطاع أن يحدث فيها ظواهر الرعد والبرق بطرق آلية . فهي دراسة تجريبية تطبيقية لعمليات الظواهر الطبيعية .

كذلك ينسبون إليه أنه اشتغل بالكيمياء وأحرق النار في بيته وأنه كانت تخرج من داره قناة يجري فيها ماء أحمر كالدم ، وأنه عرف نوعا من الزجاج الشفاف الطبيعي وقلده بالزجاج الصناعي لأنه عرف تكوينه عن طريق الصناعة كذلك .

وإلى جانب هذه النواحي العلمية ، كان عباس بن فرناس عالما باللغة العربية وآدابها ، ويروون في ذلك أن تاجرا عراقيا حمل إلى الأمير عبد الرحمن كتاب العروض للخليل بن أحمد فاستعصى على الأمير فهمه ، وظل الكتاب مهملا في القصر لا يفهمه أحد إلى أن سمع به العباس فطلب من الأمير أن يأذن له بالاطلاع عليه . فلما قرأه لاحظ بذكائه أن الكتاب ناقص من أوله ، فأرسل الأمير إلى المشرق من أحضر هذا الجزء الناقص ، واستطاع عباس بن فرناس بذلك أن يفهمه ويشرحه للناس ، فكان أول من أخذ عنه علم العروض بالأندلس ، وقد منحه الامير عبد الرحمن ثلاثمائة دينار وكساه .

هذه هي قصة عباس بن فرناس باختصار ، وهي قصة تثير الاعجاب حقا خصوصا وأن عقلية الناس في العصور الوسطى كانت تنفر من المشتغلين بالكيمياء والفلك وترميهم بتعاطي السحر . وكان السحر في العصور الوسطى من الصناعات المكروهة . ولهذا كان عباس بن فرناس هدفا لحملات العامة وبعض الخاصة الذين هم مثل هذا التفكير . فاتهموه بالزندقة وتعاطي السحر ورفعوا عليه دعوى

الى القضاء، وسمع القاضي شهادة الناس وهي انه كان يشتغل بالليل في بيته باحراق النار وأن المياه الملونة بالأحمر تجري في قناة داره وأنه في روحاته وغداواته كان يهذي ويقول فعول فعيل !!

ولكن القاضي كان واسع التفكير فلم يجد ما يؤخذ على الرجل وبرأه من هذه التهمة .

نهاية عبد الرحمن كانت مؤلمة مليئة بالدسائس والمؤامرات التي دبرت في قصره بين حريمه وأتباعه . والسبب في هذا راجع إلى كثرة نسائه وأولاده وحرص كل أم على تنصيب ابنها وليا للعهد .

ويبدو أن عبد الرحمن كان يحس بهذه المشكلة بدليل أنه لم يقم أحدا من أولاده وليا للعهد وسميا كما فعل ابوه الحكم الربضي من قبل . ولكن كان معروفا بين الناس أن المرشح لولاية العهد هو ابنه الأكبر محمد .

وتشير بعض المصادر إلى أن جاريته طروب التي كان لها تأثير عليه حاولت أن تقيم ولدها عبد الله وليا للعهد ولكنها لم تستطع تحقيق هذه الرغبة ، عندئذ اتفقت مع شخصية قوية في الدولة وهو نصر الخصي قائد الحرس والقصر على التخلص من الأمير عبد الرحمن وولده الأكبر محمد بدس السم لهما .

وتصادف أن وصل إلى قرطبة في ذلك الوقت طبيب عراقي يعرف بالحراني (نسبة إلى مدينة حرّان بشمال العراق) فطلب منه نصر أن يعد له سما زعافا ومنحه ألف دينار ابتداء. ولم يجرؤ الطبيب على رفض طلبه، ولكنه أخبر احدى نساء الأمير واسمها فجر بما حدث. وسارعت فجر — ضرة طروب — وأبلغت الأمير ما حدث ليأخذ حذره . قال ابن حيان : « وعندما قدّم نصر الشراب المسموم لعبد الرحمن، أشار عليه عبد الرحمن بشربه . فذهب نصر يعتذر بعدم الرغبة فيه ، فزجره عبد الرحمن وقال : سبحان الله ! شيء اجتهدت لي فيه ، وألطفت تركيبه ، وانتقيت اخلاطه ، تخاف غائلته ؟ عزمت لتشربنّه . فعلم نصر أنه لا يمكن خلافه فشربه بين يديه ، واستأذنه في الخروج إلى منزله فأمره ، فانطلق يركض وركضه يزيده

شرا ، واستغاث بالحراني فقال له عليك بابن المعز ، ففرّق غلمانه في طلبه ولكنه عوجل قبل أن يؤتى به ومضى لسبيله «وسر الناس بحتفه».

بعد هذا الحادث بسنتين توفي الأمير عبد الرحمن الثاني سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) وخلفه ابنه الأكبر محمد . وبذلك ينتهي هذا العصر الحافل الذي أجمله المؤرخ الأندلسي ابن الابار بالعبارة الموجزة التالية :

«وعبد الرحمن هو الذي استكمل فخامة الملك وترتيب الخدمة بالأندلس ، وكسا الإمارة ابهة الخلافة ، وظهر في أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور ، وشيد القصور ، وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادي الكبير».

- ٥ -

(عصر دويلات الطوائف الأولى)

(٢٣٨ — ٣٠٠هـ — ٨٥٢– ٩١٢م)

الفترة التي تلت وفاة عبد الرحمن الثاني حتى تولية عبد الرحمن الثالث ، فترة مضطربة وتقدر بنحو ٦٢ سنة ، حكم خلالها ثلاثة من الأمراء الامويين وهم على التوالي :

محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ — ٢٧٣هـ = ٨٥٢ — ٨٨٦م

المنذر بن محمد ٢٧٣ — ٢٧٥ = ٨٨٦ — ٨٨٨م

عبد الله بن محمد ٢٧٥ — ٣٠٠هـ = ٨٨٨ — ٩١٢م

هذه الفترة في مجموعها كانت مايئة بالاضطرابات السياسية ، كما كانت سلطة الحكومة الأموية بقرطبة في خلالها ضعيفة محدودة ، ولهذا يحسن أن نتناولها كعصر واحد وأن نجمل الكلام عليها اجمالا عاما ؛ على اعتبار أن الأحداث التي وقعت فيها كانت واحدة متصلة .

اسبانيا حتى هذه الفترة لم تكن شعبا واحدا ، بل كانت شعوبا وأجناسا مختلفة : فهناك الأهالي الأصليون ويكونون الأكثرية العظمى في البلاد ؛ بعضهم كان مسلما وعرفوا باسم المولدين ، والبعض الآخر استمر على ديانته المسيحية ولكنه استعرب وهم المستعربون . ثم هناك الفاتحون ومنهم العرب وهم أقلية من حيث العدد ، بعضهم من عرب الجنوب والبعض الآخر من عرب الشمال ،

وبين الفريقين عداوات تقليدية قديمة . ومن الفاتحين أيضا نجد البربر أو المغاربة وهم أكثر من العرب بحكم اتصالهم المستمر بوطنهم الأصلي في شمال افريقيا ولهذا فهم شعب قوي له كيانه المستقل . يضاف إلى هؤلاء شعوب الولايات الشمالية الاسبانية مثل الجلالقة سكان جليقية ، والبشكنس سكان نافارا والجبال الشمالية ، والقطلان سكان قطالونيا وغيرهم .

فجزيرة الاندلس كانت تضم شعوبا مختلفة لم يندمج بعضها ببعض ، فإذا قويت الحكومة المركزية في قرطبة ، أمكن لهذه الأجناس أن تعيش في وئام مع بعضها ، وإذا ضعفت هذه السلطة المركزية ، ظهرت أطماع هذه الأجناس على شكل استقلال محلي في الجهة التي يعيشون فيها . وكانت طبيعة اسبانيا الجغرافية الجبلية تساعدهم على ذلك .

ولقد استغلت هذه العناصر المختلفة ضعف حكومة قرطبة بعد وفاة عبد الرحمن الثاني ، وأخذ كل عنصر منها يستقل بناحية من الأندلس .

فالمولدون كونوا عدة دويلات مستقلة عن قرطبة نذكر منهم : —

١) بنوقسي أو بنو موسى وقد استقلوا بمنطقة سرقسطة أو الثغر الأعلى التي كانت ثغرا على اراجون وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا .

٢ — بنو مروان الجليقي ، وقد استقلوا بولاية بطليوس Badajoz في غرب اسبانيا وتقع حاليا على الحدود البرتغالية .

٣ — بنو حفصون وزعيمهم عمر بن حفصون وقد استقلوا بالمرتفعات الجنوبية الاسبانية الممتدة بين مدينتي رندة غربا ومالقة شرقا ، وكانت قاعدتهم قلعة ببشتر Bobastro .

أما زعماء البربر الذين استقلوا عن قرطبة فنذكر منهم :

١ — بنو ذي النون في الثغر الأدنى طليطلة ، الذي كان ثغرا على بلاد الجلالقة ومنطقة القلاع (قشتالة) في شمال غرب اسبانيا .

٢ – بنو الملاخ الذين استقلوا بمدينة جيان

أما زعماء العرب الذين استقلوا عن قرطبة في تلك الفترة فنذكر منهم :

بنو حجاج في اشبيلية وكانوا عربا من قبيلة لخم اليمنية وقد عاش في كنفهم وعدد من الشعراء والكتاب نذكر منهم احمد بن عبد ربه (ت ٩٤٠م) صاحب كتاب العقد الفريد ، وهو موسوعة أدبية تاريخية تناولت أخبار المشرق والمغرب . هذا الكتاب هو الذي قال فيه الصاحب بن عباد وزير بني بويه في العراق حينما قرأه :« بضاعتنا ردت إلينا ». كذلك هاجم هذا الكتاب بعض الأندلسيين المنافسين لابن عبد ربه أمثال الشاعر القلفاط الذي سماه بعقد الثوم . ولكن على الرغم من ذلك فإن كتاب العقد الفريد له أهميته العلمية وله شخصيته الأندلسية التي تظهر في كثير من أجزائه . وقد أراد المؤلف من تأليفه أن يعارض به أدباء المشارقة . وكان زعيم هذه الإمارة العربية في اشبيلية سيد عربي اسمه ابراهيم بن الحجاج الذي نافس أمير قرطبة الأموي في اجتذاب العلماء والشعراء والفنانين ويروي على سبيل المثال أنه علم بمغنية مشهورة في العراق اسمها قمر البغدادية فبعث في طلبها وقدمت فعلا الى اشبيلية ونشرت فنها في الأندلس . ومن جميل ألحانها في مدح سيدها

ما في المغـــارب من كريم يرتجى إلا حليف الجـــــود ابراهيم
إني حللت لديـــه منزل نعمـــــة كـــــل المنازل مـــا عداه ذميم

ومن الزعماء العرب الذين استقلوا عن امارة قرطبة نذكر أيضا الأمير الشاعر العربي سعيد بن جودي السعدى الذي استقل بغرناطة وكان عدوا لعمر بن حفصون واتباعه المولدين وله معهم وقائع حربية كثيرة .

هذه الأسر السابقة تمثل العناصر الثلاثة الكبيرة في اسبانيا ويوجد غيرها كثير ولكننا ذكرنا الأهم على سبيل المثال لا الحصر .

على أن أهم هذه الشخصيات السابقة وأخطرها جميعا هي شخصية زعيم

المولدين عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الاسلامي . ويلاحظ هنا ان اسم حفصون هو صيغة تكبير لاسم حفص لان الواو والنون في آخر اللفظ تدل على التكبير أو التفخيم وهي مأخوذة عن المقطع الاسباني un أو on في آخر الكلمة للدلالة على التكبير ايضا مثل قولهم Soltero بمعنى أعزب ثم Solteron بمعنى عانس أي الذي أسن ولم يتزوج . وهناك أسماء أندلسية كثيرة تأثرت بهذه الصيغة الاسبانية مثل غلبون بزيادة الواو والنون على غالب ، وزرقون على أزرق ، وعبدون على عبد أو عابد ، وخلدون على خالد وزيدون على زيد وهكذا .

كان عمر بن حفصون من اسرة فقيرة اعتنقت الاسلام منذ أيام جده جعفر اسلامي في عهد الحكم الربضي . ولما ترعرع عمر ظهرت منه شراسة وحدّة دفعته إلى قتل أحد جيرانه ثم فر إلى المغرب حيث اشتغل عند خياط . ثم حدث ان زار هذا الخياط شيخ أندلسي أخذ يحدثه عن سوء حالة المولدين وما يلاقونه من عنت ومشقة في الأندلس . وتضيف الرواية ان الصبي عمر بن حفصون أخذ يصغي إلى هذا الحديث باهتمام شديد . ولما علم الزائر بأنه أندلسي من طبقة المولدين نصحه بأن يعود إلى بلاده ويستخدم السيف بدلا من الإبرة متنبئا له ملكا عظيما . فأثرت هذه العبارة في نفسه وعاد إلى كوره ريه مسقط رأسه في جنوب الأندلس ، وخبزه في كمه كما يقال . وهناك جمع حوله عددا كبيرا من شباب المولدين ثم استولى على حصن روماني قديم منيع اسمه ببشتر Bobastro في أعلا الجبال الاسبانية الجنوبية . ومن هناك أخذ يوسع حدود سلطانه بالإغارة على الجهات المقابلة حتى بلغ حصن بلى Poley المطل على قرطبة نفسها .

ولقد عاصر عمر بن حفصون الأمراء الأمويين الثلاثة الذين ذكرناهم ، (٢٦٨ — ٣٠٥هـ) ولم يستطع واحد منهم القضاء عليه . إذ كان له من المناعة من حيث الموقع وكثرة الاتباع ما يمكنه من الوقوف في وجه أعدائه .

ولقد اعتبره المستشرق الهولندي المعروف دوزي ، بطل المولدين الذي يمثل آمالهم ومطامعهم ويدلل على ذلك ببعض خطبه التي ألقاها في أتباعه مثل قوله لهم :

«طالما عنّف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحمّلكم فوق طاقتكم وأذلكم العرب . وأنا أريد أن آخذ بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم».

هذه العبارة الصريحة تبين بوضوح الهدف الذي كان يسعى اليه عمر بن حفصون وهو اسقاط دولة العرب في الاندلس .

ويشير ابن حيان إلى أن عمر بن حفصون كان كثيرا ما يستعمل كلمات اعجمية (اسبانية) في كلامه مثل قوله عندما قيل له بوجود قطيع من خيل العدو وماشيته على مسافة بعيدة فقال : «هذا توهيم لا بياطة» فكلمة بياطة Boyada معناها بالاسبانية القطيع من البقر والخيل . ويضيف ابن حيان أن عمر بن حفصون في أواخر أيامه ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية وسمى نفسه صمويل . وكان يريد من وراء ذلك ان يضم إلى جانبه جميع العناصر المستعربة غير أن هذا العمل في الواقع أضر بقضيته إذ تخلى عنه كثير من المولدين المسلمين فضعف أمره ولم ينضم اليه المستعربة لضعفه . ومع ذلك ظل عمر بن حفصون مستقلا بولايته إلى أن مات سنة ٣٠٥هـ بعد مرض شمل الطفح به جسده حتى تشقق جلده . وانتقل الأمر إلى أبنائه من بعده وهم جعفر وسليمان وحفص ، ولكن عبد الرحمن الثالث استطاع القضاء عليهم والاستيلاء على قلعتهم ببشتر كما استطاع القضاء على بقية الثورات الأخرى ، وإعادة توحيد الأندلس تحت سلطان بني أمية من جديد .

على أن المهم هنا هو أن هذه الحروب والاحتكاكات بين المولدين والعرب والبربر والمستعربين قد عملت على خلط ومزج هذه العناصر وهذه الحضارات المختلفة وصهرها في البوتقة الأندلسية فخرج من هذا كله حضارة أندلسية وأمة أندلسية لها كيانها الخاص وشخصيتها المستقلة .

ومن مظاهر نضوج الشخصية الأندلسية ، أن الأندلس منذ ذلك الوقت صارت تحكم بيد أبنائها جميعا ولم يعد للارستقراطية العربية تلك السيادة القديمة والمكانة المرموقة في الحكم . كذلك انتشرت ظاهرة اللغة المزدوجة العربية والاسبانية القديمة Romance نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب والاسبان في تلك الحروب

المتصلة السالفة الذكر . ومن يتصفح الكتب الأندلسية مثل كتاب القضاة بقرطبة لمحمد بن حارث الخشني (ت ٣٦١هـ/ ٩٧١م) يجد اشارات واضحة تدل على أن الخلفاء والقضاة وعلية القوم في الأندلس كانوا يتكلمون هذه اللغة الاسبانية القديمة أو الرومانية إلى جانب اللغة العربية . وكان القضاة يناقشون بها المتهمين اثناء محاكماتهم . (١)

كذلك نتج عن ظاهرة انتشار اللغتين العربية والاسبانية بين الأندلسيين ، اختراع فن شعبي أندلسي جديد وهو فن الموشحات . ويقال إن مخترع هذا الفن رجل ضرير من بلدة قبرة Cabra بجوار قرطبة اسمه مقدم بن معافى القبرى الذي عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (٩م) في أيام الأمير عبد الله ابن محمد .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي وحركة من حركات التجديد فيه . وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ، فإن المغرب وأعني الأندلس قد أعطى المشرق فن الموشحة . ويلاحظ في الموشحة أنها لم تلتزم نظام القوافي الموحدة كالقصيدة الشعرية ، وانما اشتملت على قواف متعددة ، كذلك لم تكن وحدتها البيت الشعري وانما المقطوعة الشعرية التي تتكون من غصن وقفل ، أي أن الموشحة عبارة عن أغصان وأقفال ، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة . ومن شروط هذه الخرجة أن تكون إما باللغة العجمية أي الاسبانية ، وإما باللغة العامية الأندلسية الدارجة . كما يشترط فيها ان تكون حادة محرقة ، حارة منضجة على حد قول ابن سناء الملك . كذلك جرت العادة أن تكون الخرجة

(١) يروى على سبيل المثال (ابن عذارى جـ٢ ص ٢٢٧) أن الشاعر الوزير أبا القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأبيات من الشعر أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قال أمين الله في خلقه   لى لحية أزري بها الطول
لولا حيائي من إمامي الهدى   نخست بالمنخس « شو قول »

فلما بلغ لب إلى قوله « شو » سكت ، فقال له الناصر « قول » فأتم له على نحو ما أضمر ، فقال له : « أنت هجوته يا مولاي ! » فضحك الناصر وأمر له بصلة . وكلمة شو قول هي الكلمة الاسبانية Su Culo معناها الألية أو أسفل الظهر .

على لسان امرأة تتغزل احيانا في الرجل على عكس الشعر العربي الذي نجد فيه الرجل هو المحب بينما المرأة قاسية متكبرة معرضة . وقد أورد الأديب الأندلسي ابن بسام (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) في كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أي جزيرة الأندلس)، أن الوشاح كان يأخذ هذه العبارة الاسبانية أو العامية لتكون المركز أو الخرجة ثم يبني عليها بقية الموشحة . فكأن الموشحة تبدأ من آخرها على عكس القصيدة الشعرية التي تهتم بمطلعها أي بالبيت الأول منها .

وفيما يلي أمثلة لهذا الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة :

وخود جنت سقمي

بصوت برى جسمي

تغنيه للأم

كتال مي ألما   Que tal mi alma

كيكييري مي ألما   Que quiere mi alma

والخود هي المرأة الشابة . ويلاحظ أن الخرجة هنا بالاسبانية ومعناها كيف حالك يا عزيزتي أو يا روحي ، وماذا تريدين يا روحي ؟ (١)

مثال آخر :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلين

أنا قول قوقو

ليس بالله تذوقو

---

(١) عبد العزيز الأهواني : الاغنية الشعبية أصل التوشيح . المجلة ، العدد الثاني فبراير سنة ١٩٥٧ .

والخرجة هنا اسبانية أيضا Cuco ومعناها ماكر . فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة «انا أقول إنك مكار خداع» فاهتزت لها نفسه وجعلها مركزا لموشحته .

ولم يلبث هذا الفن الجديد ان انتشر في المغرب والمشرق ، وتفنن الشعراء في صياغته حتى صارت الموشحة كالقصيدة الشعرية . كذلك استخدمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم . على أن بعض الأدباء المتقدمين أمثال ابن بسام عارضوا هذا الشعر الجديد وأضربوا عن ذكره في كتبهم . مثال ذلك قول ابن بسام في كتابه الذخيرة : « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا ». وقوله كذلك : «واوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، إذ أكثرها على غير أعاريض اشعار العرب» (١)

وعلى الرغم من أن هذا الفن الجديد قد اخترع في الأندلس ، إلا أن أحسن دراسة تفصيلية وصلت إلينا من الموشحات كتبها عالم مصري عاش في القرن السابع الهجري (١٣م) وهو ابن سناء الملك المصري في كتابه دار الطراز الذي نشره جودة الركابي .

ومن أشهر الوشاحين الأندلسيين : ابن عبد ربه (ق٣ — ٤ هـ) عبادة القزاز (ق٤هـ)، الأعمى التطيلي (ق٦هـ) ابو بكر بن زهر (ق٦هـ)، لسان الدين بن الخطيب (ق٨هـ)، عبد الله بن زمرك (ق٨هـ) وغيرهم .

على أن موضع الأهمية هنا هو أن هذه الأغنية الشعبية العربية ذات الخرجة الأوربية ، وما تطور عنها من زجل بعد ذلك ، لم تؤثر في الشعر العربي فحسب ، بل أثرت أيضا في الشعر الشعبي الأوربي المعروف باسم الشعر البروفنسي الذي كان ينشده التروبادور أي المغنون المتجولون في جنوب فرنسا وايطاليا واسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية .

وكما انتشرت اللغة الاسبانية القديمة بين المسلمين ، انتشرت أيضا اللغة

---

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة حـ ١ ق ٤ ص ٢٢ ، حـ ٢ ق ١ ص ٢ .

العربية بين المسيحيين ، وظهرت طبقة جديدة في المجتمع الأندلسي أشرنا إليه من قبل وهي طبقة المستعربين الذين عاشروا العرب وتأثروا بهم في ثقافتهم ولغتهم وسلوكهم وعاداتهم وملابسهم ، بل انهم اتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية كالأسقف ربيع بن زيد الذي كان يعرف في المصادر المسيحية باسم Recemundo على عهد عبد الرحمن الثالث .

ولقد قام هؤلاء المستعربة بدور هام في نقل الحضارة الاسلامية إلى شمال اسبانيا المسيحي ، وذلك بحكم معرفتهم للغتين العربية والاسبانية ، وبحكم هجراتهم المستمرة إلى مملكتي قشتالة واراجون في شمال اسبانيا . وكانت النتيجة أن انتشرت الثقافة والعادات الاسلامية في تلك الجهات . وحسبنا أن نتصفح المعاجم الاسبانية لمعرفة مدى تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية عن طريق ألفاظها ذات الأصل العربي والتي تبلغ أعدادها بالآلاف .

الفصل الخامس

عصر الخلافة الأموية في الاندلس

(٣١٦– ٤٢٢هـ ــ ٩٢٩ ــ ١٠٣١م)

١ ــ الخليفة عبد الرحمن الثالث ، الناصر لدين الله .

٢ ــ الخليفة الحكم الثاني ، المستنصر بالله .

٣ ــ الخليفة هشام الثاني ، المؤيد بالله والدولة العامرية

٤ ــ الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري

٥ ــ أبناء المنصور بن أبي عامر (عبد الملك المظفر ، وعبد الرحمن شنجول)

١ ـ الخليفة عبدالرحمن الثالث ، الناصر لدين الله

(٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ ـ ٩١٢ ـ ٩٦١م)

تولى الحكم وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وحكم خمسين سنة ، فهو من أطول الملوك حكما . ولم يكن هذا الأمير ابنا للأمير عبد الله المتوفي ، بل كان حفيده ، فهو على هذا الأساس لم يكن يستحق الملك حسب النظام المتبع لأن الحفيد لا يملك مع وجود الأعمام ، والأمير عبد الله ترك أولادا كثيرين يستحقون الملك من بعده . ولكن يقال إن سبب تولية عبد الرحمن هو أن أعمامه آنسوا فيه مواهب ومخايل عظيمة تجعله أليق بالحكم منهم ، خصوصا وأن سوء الأحوال في الأندلس في ذلك الوقت قد جعلت الحكم محفوفا بالمخاطر مما زهّد هؤلاء الأعمام فيه ، فتنازلوا عنه لابن أخيهم عبد الرحمن من أجل المصلحة العامة .

هذا وقد كان والد عبد الرحمن وهو الأمير محمد ، قد توفي في حياة أبيه عبد الله ، وهناك رواية مشتبه فيها تشير إلى أن محمدا حاول الثورة على أبيه والانضمام إلى حركة ابن حفصون ، فأوعز أبوه إلى أخ له اسمه المطرف فقتله . هذه الرواية ــ إن صحت ــ تكون مأساة من مآسي ذلك العصر من حيث أن الأخ قتل أخاه بإيعاز من الأب . وكيفما كان الأمر فإن الأمير عبد الرحمن كان وقتئذ طفلا رضيعا حينما مات والده ، فرباه جده عبدالله وبالغ في رعايته لكي يعوض عليه حنان أبيه فأحسن تعليمه وتهذيبه وصار يؤثره على أبنائه .

وهكذا نشأ عبد الرحمن نشأة طيبة ، هذا إلى جانب استعداد فطري خاص

فيه مما جعل أعمامه يقدمونه على انفسهم في الإمارة لإنقاذ الموقف في الأندلس .

اعتلى الأمير عبد الرحمن الثالث عرش الأندلس وكان الحال يستلزم الحزم والعزم لجمع كلمة البلاد وتوحيدها . لهذا بدأ عهده بإصدار منشور عام إلى الثوار المستقلين في نواحيهم ، بعدهم فيه بكل أنواع الوعود الطيبة من مال وسلطان إذا عادوا إلى الجماعة والوحدة والطاعة . وفي الوقت نفسه هدد من لم يفعل ذلك بالحرب والتشريد ومصادرة الأموال .

ولقد جاء هذا المنشور في الوقت المناسب لأن الناس كانت قد ملّت هذه الحروب الطويلة الطاحنة التي أضرت بأمنهم وتجارتهم وأوقعت البلاد في فوضى حقيقية . لذلك سارع الكثيرون منهم إلى الخضوع لعبد الرحمن ، بينما بقيت أقلية صغيرة مثل بني حفصون ، لم يكن التغلب عليها صعبا خصوصا بعد موت زعيمها عمر بن حفصون . وهكذا لم تمض سنوات قليلة من حكم عبد الرحمن إلا وكانت الأندلس قد عادت إلى سابق وحدتها تحت السيادة الأموية .

عبد الرحمن يعلن نفسه خليفة للمسلمين :

بعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن في الأندلس ، أقدم على أمر خطير وهو تلقبه بلقب خليفة . يروي ابن عذاري أنه في سنة ٣١٦هـ (٩٢٩م) قرر عبد الرحمن بن محمد أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره فيه ، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم ، فعهد إلى أحمد بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة ، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك . وفي اليوم التالي ٢ ذي الحجة سنة ٣١٦هـ أصدر الخليفة الجديد منشورا عاما إلى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا ، وورودها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك ان يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء

الله ». كذلك أمر الناصر لدين الله باثبات عبارة «الناصر لدين الله أمير المؤمنين». في أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ونفذ الأمر بذلك .

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة ، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ﻫ (١٠٣١م)

على أنه ينبغي أن نقف هنا وقفة قصيرة لنناقش البواعث الخفية والظاهرة التي جعلت عبد الرحمن يقدم على إقامة خلافة سنية جديدة في غرب العالم الاسلامي رغم وجود خلافة أخرى قديمة بالمشرق وهي الخلافة العباسية .

لقد سبقت الإشارة إلى أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر وان كانوا قد قطعوا الدعاء لبني العباس ، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفة ، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف . وقلنا إن السبب في ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد وأن الخروج عنها عصيان وان الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ، وهو الخليفة العباسي في ذلك الوقت .

هذا كان هو الأصل النظري للخلافة السنية في بادىء الأمر ، غير أن مصلحة العمل وتغيرات الظروف السياسية بعد ذلك ، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه محل الاجتهاد . ومن ثمَّ أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضي بذلك . واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين . وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل الموشية من أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين طلبوا من الأمير عبد الرحمن الثالث أن يكون خليفة وبايعوه على ذلك ، وحملوه على حمل هذين الاسمين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله ، وصاروا يخاطبونه باسم خليفة قبل اعلانه رسميا . وكل هذا يدل على أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت تكيفا جديدا تبعا للواقع

وللضرورة السياسية ومصلحة المسلمين . والنظريات الناجحة هي التي تتبع الواقع وتتأثر به .

وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين . ولا شك أنه كان مدفوعا في ذلك بمصالح مختلفة في الخارج والداخل أهمها :

١) ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام المقتدر ، واستبداد القواد الأتراك بها ، وعجزها عن حماية العالم الاسلامي .

٢) قيام خلافة شيعية فتية معادية في المغرب وهي الخلافة الفاطمية التي كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر .

٣) ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة نتيجة للثورات والفتن الداخلية التي شغلت عهود ثلاثة من الأمراء قبله ، بحيث اصبحت الحاجة ماسة إلى رفع مكانته ومنزلته السياسية والدينية ، لاسيما وأن تلك الثورات الداخلية قد قضى عليها في بداية عهد عبد الرحمن الثالث .

٤) الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين .

هذه بصورة عامة هي الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيام هذه الخلافة الجديدة في الأندلس .

أما عن نظامها فهو نظام مُلك يقوم على أساس التوريث ، ويستند إلى السياسة أولا ثم إلى الدين ثانيا ، فهو يختلف تماما عن نظام خلافة الاسلام الأولى أيام الخلفاء الراشدين الذي كان يقوم على الشورى والانتخاب .

على أننا مع ذلك إذا قارنا خلافة الأندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها مثل خلافة العباسيين أو الفاطميين ، فإننا نجد أن الخلافة الأندلسية كانت أكثر ديمقراطية منهما . فالخليفة العباسي كان يحكم بتفويض من الله وقد صرح بذلك ابو جعفر المنصور حينما قال «انما أنا سلطان الله في أرضه» وهذه العبارة تشبه

تمـــاما نظرية الحق الإلهي في الحكم Divine Right of Rule التي كانت سائدة بين الفرس قديما والتي سادت أوربا في العصور الحديثة . كذلك كان الخليفة الفاطمي يرى نفسه إماما معصوما من الخطأ ولا يسأل عما يفعل لأنه المعلم الاكبر الذي ورث العلوم اللدنية بما فيها من اسرار الكون وخفايا الغيب عن النبي عن طريق الامام علي بن أبي طالب ثم أبنائه من بعده .

هذه القداسة التي اتسمت بها خلافة العباسيين والفاطميين لا نجدها في الخلافة الأموية الأندلسية ، فالخليفة انسان عادي قد يخطيء أو يصيب والناس أحرار في نقده وان استطاعوا عزله عزلوه .

ومن أمثلة هذه الروح الديمقراطية التي امتازت بها خلافة الأندلس ، أن عبد الرحمن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء وصرف عليها جزءا كبيرا من وقته ، ومن مال الدولة ، قامت ضده معارضة شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي الذي أخذ يعرّض بالخليفة في مسجد الزهراء أيام الجمعة . وقد أثارت هذه المعارضة غضب الخليفة الناصر وشكا ذلك لولده الحكم بقوله :

« والله لقد تعمدني منذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف علي وأفرط في تقريعي وتفزيعي ، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني ». ثم أقسم الناصر بألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبدا ، فصار يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء [1] . هذه الحادثة ترينا نوع العقاب الذي أنزله الخليفة بقاضيه المعارض لسياسته المالية في وقت كانت فيه أموال الشعب ملكا لرئيس الدولة سواء في الشرق أو الغرب ، فهو يظهر له احتجاجه دون عزل أو ايذاء .

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الأندلسية تخالف نشأة الخلافة في الممالك الاسلامية الأخرى من حيث أنها لم تستند على ما يسمى «بالحق الطبيعي الموروث» الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة ، أو عن طريق

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٠٦ .

الميراث عن العباس بن عبد المطلب عم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم في الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكـــائن لبني البنـــات وراثة الأعمام .؟

أما في الأندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد ، كل ما هنالك أن عبد الرحمن الناصر — كما هو واضح في المنشور الذي أصدره — رأى أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بها ولا سيما الفاطميين ، وعرض الأمر على الأمة فقبل الناس ذلك وبايعوه ، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم .

ومن الطريف أن هذه النزعة الاستقلالية الروحية عن خلافة بغداد ، لم تلبث أن سرت ايضاً بين اهل الذمة ، إذ تروي المصادر العربية أن الجاليات اليهودية الأندلسية ، أسرعت بعد اعلان خلافة عبد الرحمن الناصر ، بإلغاء تبعيتهـــا الروحية للأكاديميات اليهودية ببغداد . ثم تضيف في مكان آخر أن قائد الاسطول الاندلسي في ذلك الوقت محمد بن الرماحس ، أسر في عرض البحر أربعة من الأساتذة اليهود الذين أرسلتهم أكاديمية سورا Sura لجلب اعانات اقتصادية من يهود اسبانيا . وغير بعيد بالمرة أن يكون للحادث الثاني صلة بالحادث الأول خصوصاً وأن المراجع العربية تطلق اسم سورا على موضع جنب بغداد وقيل بغداد نفسها . (1)

سياسة الناصر الخارجية :

تتلخص هذه السياسة في معالجة أربع نقاط رئيسية وهي : —

١ — الخطر الفاطمي الشيعي في المغرب جنوباً .

٢ — خطر الدويلات المسيحية الاسبانية شمالا .

٣ — مقاومة الخطر النورماندي .

---

(١) صفي الدين البغدادي : مراصد الاطلاع ـ ٢ ص ٧٥٣ هذا ويطلق اسم سورا أيضاً على بلدة بجوار بابل القديمة في جنوب شرق بغداد وكذلك على بلدة في بمباي بالهند .

٤ ــ علاقاته الدبلوماسية مع ملوك أوربا .

١ ــ الخطر الفاطمي في الجنوب [(١)] :

قيام الدولة الفاطمية في المغرب :

اتخذ التشيع منذ نشأته الأولى اتجاها مضادا للعصبية العربية ، وكما أن التشيع في المشرق اعتمد على الموالي من الفرس ، فكذلك في المغرب اعتمد على الموالي من البربر . ولهذا كانت بلاد شمال افريقيا تربة خصبة لبث الدعوة الشيعية . يضاف إلى ذلك ان بلاد المغرب كانت بعيدة عن السلطة المركزية في بغداد مما جعل من الصعب على العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد وتعقب العلويين فيها .

ويرجع الفضل الاول في نجاح الدعوة الاسماعيلية ببلاد المغرب إلى الداعية أبي عبد الله الشيعي المؤسس الأول للدولة الفاطمية بالمغرب .

على أن هذا الداعية لم يكن أول من دعا للشيعة بالمغرب الاسلامي ، فقد سبقه في هذا المضمار دعاة آخرون مهدوا السبيل لنجاح دعوته . فيروي المقريزي أن الإمام جعفر الصادق (ت١٤٨هـ) أوفد الى المغرب داعيين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان وقال لهما « إن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » فذهبا إلى هناك واخذا يدعوان الناس لطاعة آل البيت حتى استمالا قلوب جمع كثير من قبيلة كتامة وغيرها وظلا هناك إلى أن ماتا .

أما الداعية أبو عبد الله الشيعي فأصله من الكوفة ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الامامية الباطنية . ذهب الى اليمن وكانت مركزا هاما للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج . وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها واسمه

---

(١) راجع مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٥٧) .

ابن حوشب او ابن جيوشب ، فأخذ يحضر مجالسه ويستفيد من علمه ويمتثل لأمره حتى وثق به ابن حوشب وأرسله إلى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيـــان والحلواني .

اتجه ابو عبد الله أولا إلى مكة في موسم الحج وهناك التقى برجال من قبيلة كتامة فاختلط بهم ووجد لديهم إلماما ومعرفة بالمذهب الاسماعيلي ثم سألوه عن مقصده فادعى انه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة ، فقبل الدعوة ونزل عندهم سنة ٢٨٨هـ. وكانت قبائل كتامة من أعظم قبائل البربر وتنزل منذ الفتح العربي بين جبال أوراس والبحر بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر ومكانها اليوم بلاد القبائل Kabylie .

وينقسم تاريخ الدعوة التي قام بها ابو عبدالله الشيعي في المغرب الى مرحلتين : المرحلة الأولى كانت مجرد دعاية سلمية لجذب الانصار ثم تلتها المرحلة الثانية وهي مرحلة جهاد طويل انتهى بقيام الدولة الفاطمية .

اما مرحلة الدعاية ، فقد استغرقت ثلاث سنوات (٢٨٨ — ٢٩١هـ) استخدم الداعي فيها التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية الناس في هذه المناطق . يروي ابن الأثير أنه حين نزل بافريقية سأل : أين فج الأخيار ؟ وهو جبل من جبال كتامة ولم يكونوا قد ذكروه له ، فعجبوا من ذلك وداوه عليه فقال : ما سمي إلا بكم ، ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان تنصره فيها الأخيار ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان (يعني كتامة). كذلك استخدم الداعي السحر وصنع من الحيل والطلاسم والرقي والاحجبة ما أذهل العقول ، فأتاه البربر من كل مكان فأخذ يبشرهم بظهور المهدي ويهيء عقولهم لقبول فكرته واعتناق المذهب الاسماعيلي . ولقي أبو عبدالله صعوبات جمة إذ أن دعوته أحدثت اضطرابا شديداً بين البربر وحاول بعضهم قتله ولكنه نجا، كما حاول بعض رجال العلم مناقشته فقبل الداعي ولكن قبيلة كتامة رفضت هذا العرض واعتبرته إهانة لمكانته ، وقامت حروب بين كتامة وبعض قبائل البربر اضطر الداعي إلى الاختفاء خلالها ، ولكن هذه المحنة انتهت بانتصار الفريق

الذي يحميه فكان هذا انتصارا للدعوة الفاطمية وصار ابو عبدالله ذا جند عظيم وسلاح كثير خلاف الأموال التي كان يأخذها من الناس كرسم لدخول المذهب الشيعي . (١)

مرحلة الحرب : وهي المرحلة الثانية من مراحل هذه الدعوة وقد امتدت ست سنوات تقريبا . وكان المغرب في ذلك الوقت تسيطر عليه أربع دول وهي :
١) دولة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦هـ) ومقر حكمها المغرب الأدنى أو أفريقية ، وامراؤها بنو الأغلب كانوا يحكمون باسم الخلافة العباسية وعاصمتهم الرسمية مدينة القيروان بينما كانت عاصمتهم الخاصة التي يقيمون فيها مدينة رقّادة جنوبي القيروان بأربعة أميال . وكان الأغالبة يمتلكون قوة بحرية هائلة مكنتهم من غزو صقلية ومالطة والسواحل الايطالية الجنوبية . وعلى الرغم من قوة الاغالبة في حوض البحر المتوسط إلا أن نفوذهم في داخل افريقية كان ضعيفا مما ساعـد على نمو حركة أبي عبدالله الشيعي في الجبال الجنوبية من دولتهم ، وتمكنه من الاستيلاء على بلادهم سنة ٢٩٦هـ.

٢) الدولة الرستمية (١٤٤ — ٢٩٦هـ) وهي دولة خارجية اباضية قامت في المغرب الأوسط (الجزائر) ومؤسسها اسمه عبد الرحمن بن رستم الذي يقال انه من أصل فارسي . وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت قرب مكان تياريت Tiaret الحديثة في مقاطعة وهران غربي الجزائر . وقد ازدهرت هذه المدينة على عهد الرستميين حتى صارت مجمعا للتجار والعلماء والطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي واكتسبت شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبيها لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل . ولجأ عبد الرحمن بن رستم لتقوية دولته إلى عقد حلف مع دولة خارجية أخرى قامت في سجلماسة في جنوب المغرب وهي دولة بني مدرار . وقد نتج عن هذا التحالف تلك المصاهرة التي تمت بزواج أروي بنت عبد الرحمن بالمنتصر بن اليسع بن مدرار ملك القبلة

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٨ ص ١٢ — ١٣ ؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ — ٧٧ .

(أي الجنوب) واقد انجب المنتصر من أروبي ولذا سماه بيمونا حكم بعده .

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨هـ (٨٧٤م) ترك الأمر شوري في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته ، وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون جانباً معارضاً ، ولهذا سموا بالنكّار أو النكّارية .

واستمرت الدولة الرستمية قائمة في المغرب الأوسط وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضي عليها الفاطميون سنة ٢٩٦هـ. على أن الخوارج الاباضية[١] وان كانت دولتهم قد زالت ، إلا أن حزبهم ظل باقياً في المغرب كحزب معارض للدولة الفاطمية . ولا زلنا إلى اليوم نرى الخوارج الاباضية في منطقة مزاب شرقي الجزائر حيث لعبوا دورا هاما ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ — الدولة المدرارية أو دولة بني واسول (١٤٠–٣٤٩ هـ)

وهي دولة خارجية صفرية . وعاصمتها مدينة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى وقد اندرست الآن وتقوم مكانها الآن مدينة الريساني في منطقة تافيلالت . ويلاحظ أن الصفرية والاباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا اكثر الخوارج تسامحاً واعتدالا مع المخالفين لمذهبهم إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق . فالصفرية والاباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين ولا يرون جواز سبي النساء والذرية بل لا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان . ومؤسس الدولة المدرارية كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الذي بنى العاصمة سجلماسة وقسم مياهها وأمر بغرس النخيل فيها [٢] .

ولكن يبدو أن عيسى بن يزيد أخذ يستأثر بالأموال في اواخر أيامه مما أثار معارضة مواطنيه . فيروي البكري أن زعيم المعارضة واسمه ابو الخطاب الصفري

(١) الاباضية نسبة إلى عبد الله بن اباض المري . راجع (سليمان الباروني النفوسي : الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية حـ ٢ ص ١٤ وما بعدها) .

(٢) لازالت هذه المنطقة تافيلات من أهم مراكز انتاج التمور في المملكة المغربية .

قال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : «السودان كلهم سُرّاق، حتى هذا، وأشار إلى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقاً إلى جذع شجرة في الجبل بعد ان طلوه بالعسل وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل . وولي بعد عيسى قاتله ابو الخطاب الصفري الذي تقرب إليه حداد من ربض قرطبه اسمه ابو القاسم بن واسول كان قد صنع سلاحاً جديداً اعجب ابا الخطاب ، فقربه إليه حتى صار هو المدبر لشؤون الدولة . فلما توفي أبو الخطاب ، ولي مكانه ابو القاسم بن واسول الذي تلقب بالمدرار . ويعتبر ابو القاسم هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بدليل أنها سميت باسمه فعرفت بالدولة المدرارية او دولة بني واسول . وقد استمر حكمها في يد أبنائه من بعده إلى أن قضى عليها قائد الفاطميين جوهر الصقلي سنة ٣٤٩ هـ [١]

٤ — أما الدولة الرابعة التي قامت في المغرب قبل الحكم الفاطمي فهي دولة الأدارسة (١٧٢—٣٦٣ هـ) وهي دولة علوية حسنية أسسها في المغرب الأقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وبنى عاصمتها مدينة فاس التي أتمها ابنه ادريس الثاني . هذه الدولة العلوية ولو انها لا تدين بالمذهب الاسماعيلي الفاطمي ، إلا أنها مهدت السبيل من غير شك لداعي الفواطم وهيأت الأذهان لقبول دعوته لآل البيت . ولكن على الرغم من ذلك فإن هذه الدولة تعرضت لعداء الفاطميين وهجومهم مما اضطر الأدارسة إلى الانسحاب شمالا إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا هناك في بعض القلاع مثل البصرة وأصيلا وحجر النسر .

هذه هي الدول الاربع التي كانت تحكم المغرب الكبير عندما قام الداعي الفاطمي ابو عبد الله الشيعي بمرحلته الحربية في المغرب .

وبدأ أبو عبد الله الشيعي جهاده الحربي بالنزول من جبال كتامه إلى سهول الأغالبة ومهاجمة حدودهم الغربية . وحاول أمير الأغالبة زيادة الله الثالث مقاومة هذا الهجوم فأرسل ثلاثة جيوش متوالية ، ولكنها هزمت كلها ، وانتهى الأمر

---

(٢) الصفرية نسبة إلى زياد بن محمد الأصفر . راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب ص ١٤٦ .

بفرار آخر أمراء الأغالبة إلى مصر ودخول أبي عبد الله الشيعي مدينة رقادة ثم القيروان ٢٩٦ هـ وبهذا ينتهي حكم الأغالبة بافريقية .

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن أبا عبد الله الشيعي خلال انتصاراته الأخيرة كان قد أرسل وفداً من كتامة إلى الإمام الفاطمي عبيد الله المهدي يدعوه للقدوم إلى المغرب . وكان الإمام الفاطمي في ذلك الوقت مختفياً ببلدة سلمية من أعمال حمص عازماً على الرحيل إلى اليمن خوفاً من قرامطة الشام . فلما وصلته دعوة أبي عبد الله الشيعي حول اتجاهه إلى المغرب .

وبدأ المهدي رحلته مخترقاً الشام وفلسطين ومصر ثم صحراء ليبيا متخفياً في زي التجار حتى لا يقع في أيدي العباسيين الذين كانوا يتعقبونه في كل مكان . وحينما وصل الى افريقية وجد أن الأغالبة ما زالوا أصحاب البلاد وأن الداعي أبا عبد الله الشيعي ما زال في حرب معهم . فاضطر المهدي إلى مواصلة السير غرباً عبر الصحراء . وحينما وصل إلى مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى شك أميرها اليسع بن مدرار في أمره نتيجة لوشاية اليهود المقيمين هناك [١] ، فقبض عليه وسجنه

في ذلك الوقت كان أبو عبد الله الشيعي قد استولى على القيروان ، فحينما علم بهذا الخبر أسرع بجيوشه إلى سجلماسة لتخليص سيده . وفي طريقه الى هناك مر ببلاد الدولة الرستمية فأخضعها واستولى على عاصمتها تاهرت سنة ٣٩٦ هـ ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة سجلماسة فحاصرها وحاول أميرها اليسع بن مدرار مقاومة الجيوش الفاطمية ولكنه هزم وقتل ، ودخل ابو عبد الله المدينة وأخرج الإمام عبيد الله المهدي من السجن وقال للناس وهو يبكي متأثراً «هذا هو أمامكم » [٢] .

---

(١) كانت سجلماسة بحكم وضعها الجغرافي على حافة الصحراء الكبرى في جنوب المغرب ، مركزا لتجارة الذهب الوارد من بلا د السودان الغربي في الجنوب . ولهذا أقبل اليهود على هذه التجارة واستقر عدد كبير منهم في هذه المدينة جريا وراء المال .

(٢) ايفانوف : مذكرات في حركة المهدي الفاطمي . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ .

وبعد أن انتقم المهدي من يهود سجلماسة لوشايتهم به ، اتجه الى مدينة رقّادة العاصمة الخاصة للأغالبة ، فاتخذها عاصمة له سنة ٢٩٧ ه ، وكان أهلها قد جلوا عنها ، ففرق المهدي دورها على رجال كتامه جند الدولة الجديدة كذلك اقيمت الخطبة يوم الجمعة باسم الخليفة الجديد الذي تلقب بالمهدي أمير المؤمنين وضربت السكة باسمه كما أرسل عماله إلى جميع انحاء البلاد بما في ذلك جزيرة صقلية وبذلك ينتهي الدور التأسيسي الأول للدولة الفاطمية .

على أن الدولة الفاطمية في ذلك الوقت كانت لا تزال مضطربة ناشئة وفي حاجة ماسة إلى استقرار وتدعيم وكان على الخليفة المهدي نفسه أن يقوم بهذه الأعمـــال .

وأول عمل في هذا السبيل قام به الخليفة المهدي (٢٩٧–٣٢٢ ه) هو اغتيال الداعي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨ ه أي بعد عام واحد من نشأة الدولة الفاطمية . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الخليفة الفاطمي كان يريد الاستئثار بالسلطان الذي تأسس باسمه ، بينما كان الداعي يحاول الاستمرار في ادارة شؤون الدولة ، ويؤيد ذلك قوله للمهدي :

« لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامه آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم ، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس » . غير أن المهدي استمر في سياسة جمع السلطات في يده . وقد أثار هذا العمل غضب الداعي وأصحابه ، فأخذوا يتآمرون على قتل المهدي ويؤلبون الناس ضده . يروي المقريزي أن أبا العباس شقيق الداعي أخذ يؤنب أخاه بقوله « ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه ». ثم أخذ يدعو الناس لعصيان المهدي ويقول لهم « إن هذا ليس بالذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه ، لأن المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة » . وقد تأثر بعض الناس بقوله حتى ان شيخاً من كتامه دخل على المهدي وقال له : « إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك » ، فقتله المهدي في الحال . ثم علم المهدي من جواسيسه أن الداعي وأصحابه يتآمرون على قتله فصمم على التخلص منهم وأخذ في توزيع المتآمرين على الولايات المختلفة وارسل سراً إلى

عمال تلك الولايات بقتلهم بمجرد وصولهم . اما الداعي وأخوه أبو العباس فقد وضع لهما من قتلهما وهما في طريقهما إلى القصر الخليفي . ويقال إن الداعي قال للقاتل : « لا تفعل يا بني » فأجابه : « إن الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك » .

وكان لقتل الداعي وقع سيء في نفوس رجال كتامه وأصحاب الداعي فقاموا بثورة ضد المهدي ، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت ، وأقاموا طفلا وقالوا هذا هو المهدي ، فخرج إليهم الخليفة الفاطمي وحاربهم وقتل الصبي وخضعت كتامة من جديد . (١)

أما العمل الثاني الذي قام به الخليفة المهدي لتدعيم اركان الدولة الفاطمية فهو بناء العاصمة المهدية . والسبب في ذلك يرجع الى شعور الفاطميين بالحاجة إلى مكان حصين يحتمون فيه اذا ما تغيرت عليهم نفوس رعاياهم خصوصاً وأن مدينة رقادة كانت تقع في وسط سهل فسيح لا يفي بالأغراض الدفاعية اللازمة . وبنى المهدي عاصمته الجديدة على شاطىء البحر مباشرة بالقرب من تونس وذلك لأنه رأى أن نفوذ الفاطميين في داخل البلاد لا يزال ضعيفاً وأن لا بد من أن يعتمد على أسطوله القوي لحماية العاصمة وتموينها من جهة البحر إبان الأزمات . يروي المقريزي أن المهدية كانت عبارة عن شبه جزيرة محاطة بالبحر من معظم نواحيها وأن الخليفة المهدي أشرف بنفسه على بنائها ، وأنه أنشأ على ساحلها داراً كبيرة للصناعة (أي لصناعة السفن) نقرت في الجبل وتسع مائة سفينة حربية كبيرة ، هذا خلاف صهاريج المياه ومخازن الأقوات والمسجد والقصر والدواوين ثم بنى المهدي حولها اسواراً محكمة ذات أبواب ضخمة . ويقال إنه لما فرغ من بنائها قال « آمنت اليوم على الفاطميات» ، وهذا دليل على حصانتها . (٢)

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا نشر جمال الشيال ص ٩٣ — ٩٧

(٢) اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء المهدية فابن عذارى يحدده بعام ٣٠٠ ﻫ أي بعد انتهاء المهدي من اخماد الثورات التي قامت ضده في أول حكمه . أما ابن الأثير فيرى أنها بنيت عام ٣٠٥ ﻫ وان المهدي انتقل إليها سنة ٣٠٨ ﻫ وأعطاها اسم المهدية نسبة إلى لقبه . (ابن الأثير . الكامل ﺟ ٨ ص ٣٥ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ﺟ ١ ص ٢٣٤) .

هذه كلمة مختصرة عن قيام الدولة الفاطمية الشيعية التي عاصر قيامها في المغرب بداية عصر الخلافة الأموية السنية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر (١).

ولا شك أن قيام خلافتين متجاورتين ، وعلى أسس مذهبية مختلفة ، كان من شأنه أن يحدث صداماً بينهما . وهذا ما حدث فعلا بالنسبة لخلافتي المغرب والأندلس . وقد يبدو هذا الصراع في ظاهره صراعاً بين الأمويين والفاطميين ، ولكنه كان في حقيقة أمره صراعاً بين السنة والشيعة . ويلاحظ أن المذاهب الدينية في ذلك الوقت كانت تقوم مقام المذاهب السياسية الآن وهذا هو سبب الاهتمام بها والتعصب لها . إذ كان في استطاعة كل حاكم أن يحقق باسم خلافته الروحية أن يحقق المكاسب المادية والسياسية التي ينشدها . فالفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب فكروا في غزو الأندلس ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجاسوسية من جهة أخرى ، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون اهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية .. وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كي يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب .

ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس، نذكر الرحالة أبا القاسم ابن حوقل النصيبي (ت سنة ٣٦٧ هـ — ٩٧٧ م) الذي يبدو أنه تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس ، اذ يسميه ياقوت بالتاجر الموصلي (٢) .

وقد اهتم ابن حوقل في تقريره الذي رفعه إلى الفاطميين ، بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الاشارة إلى ضعف أهلها وعجزهم عن الدفاع

---

(١) راجع مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ؛ مدريد سنة ١٩٥٧ .

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٨ .

عنها ، ليحمل مولاه المعز لدين الله الفاطمي على غزو تلك البلاد . ومثال ذلك قولــه :

« وليس لجيوشهم حلاوة في العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ورنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيري بها انساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم .. ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الأنجاد والأبطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها » (١)

ولا شك ان ابن حوقل كان متحاملا على الأندلسيين في كلامه ؛ ومبالغاً في اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية (٢) .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها في الأندلس كان محدوداً ، وذلك لما كان للمذهب السني هناك من قوة متأصلة في نفوس الأندلسيين ، وإن كان ذلك لا يمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب اسبانيا ضد الحكم الأموي أواخر القرن الثالث الهجري ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) ودعا له في مساجد

---

(١) راجع ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ طبعة بيروت ، محمود مكي التشيع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ١٩٥٤) .

(٢) قام ابن سعيد بالرد على ابن حوقل وأتهمه بالظلم والتعصب . راجع (المقري : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٧) .

بلاده . وقد أمده المهدي بالذخيرة والأسلحة [١] ، كما أرسل له داعيين أقاما عنده ، وأخذا يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين ، وإقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية ، وانما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين في قرطبة بدليل أنه في أواخر أيامه ، استغنى عن الداعيين ، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي [٢] .

وهناك أيضاً القائد علي بن حمدون الجذامي ، المعروف بابن الأندلسي [٣] الذي ورد إلى المغرب من الأندلس ، واتصل بالمهدي ثم بابنه القائم (٣٢٢-٣٣٤هـ) وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة ، وهي التي سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط .

ولما قامت فتنة أبي يزيد الخارجي في جبال أوراس ، كتب الخليفة القائم علي ابن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد تجلى فيها جلده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة ٣٣٤ هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١ هـ) لجعفر ابن علي بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك دولة مزدهرة ، وقصده العلماء والشعراء ، مثل الشاعر الغرناطي محمد بن هانيء الأندلسي الذي مدحه بقوله :

المُدْنَفَانِ من البريَّة كلِّهــا   جِسمي وطرفٌ بابليٌّ أحْوَرُ

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٢٤٧) .

(٢) محمود مكي : المرجع السابق ، وكذلك .
(Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne II, p. 125).

(٣) دخل جده الأكبر عبد الحميد إلى الأندلس من الشام ونزل بكوره إلبيره (غرناطة) ثم انتقل حفيده حمدون إلى بجاية في الجزائر . وهناك انضم هو وولده علي إلى حركة أبي عبد الله الشيعي الداعي ودخلا في مذهبه . فلما تغلب الشيعي على المغرب ظهر علي بن حمدون ثم ازداد ظهوره في أيام المهدي وابنه القائم . (ابن عذارى حـ ٢ ص ٢٤٢) .

والمشرقـاتُ النّيراتُ ثلاثـةٌ   الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجعفرُ[1]

وهذا الشاعر ، محمد بن هانىء الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م) ، يعتبر أيضاً من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) ، ويعتبر شعره في مدح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الاسماعيلية[2] مثل قوله :

ما شئت لا ما شاءت الاقـدار   فاحكم فأنت الواحد القهـار

ولقد زاد من خطورة الدولة الفاطمية ، أنها كانت تمتلك قوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية ، ورثتها عن الأغالبة ، ثم عملت على تنميتها وتقويتها منذ قيام دولتها ، وبنى الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقس مدينة المهدية التي أشاد المؤرخون بدار صنعتها التي نقرت في الجبل ، وبقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها[3] .

ولعل القصيدة التي أوردها الشاعر علي بن محمد الإيادي التونسي ، في وصف الاسطول الفاطمي على عهد الخليفة محمد القائم ، تعطينا فكرة عن قوة الاسطول في ذلك العهد ، وفيها يقول :

---

(١) راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ١ ص ٣١١ ، مفاخر البربر ص ٧ ، سيرة الاستاذ جوذر ص ١٧٥) .

(٢) راجع ديوان محمد ابن هانىء ؛ تحقيق وشرح كرم البستاني ، بيروت ١٩٥٢) . وكان ابن هانىء عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة . ويروي ان أبا العلاء المعري كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول : ما أشبهه إلا برحا تطحن قرونا أي تسمع قعقعة ولا طائل تحتها . راجع (ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر حـ ١ ص ٤٤٤) وقد توفي هذا الشاعر وهو في طريقه إلى مصر صحبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي حزن على وفاته وقال أردنا أن نفاخر به شعراء المشرق .

(٣) المقريزي : أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ص ٩٣ — ٩٧ ، ابن عذارى حـ ١ ص ٢٢٧ ، ابن الأثير : الكامل حـ ٨ ص ٢٠ — ٢١ . راجع كذلك
Ency. of Islam, art. Mahdiyya by G. Marçais

أعجبْ بأسطــول الامام محمد	وبحسنه وزمانــه المستغــربِ
لبست به الأمواج أحسن منظر	يبدو لعين النــاظر المتعجب
شرعوا جوانبهـــا مجاذف اتعبت	شادي الريـــاح لها ولمّا تتعب
والبحر يجمــع بينهـــا فكأنه	ليل يقرب عقربـــاً من عقرب
وعلى جوانبهـــا أسود خلافـــة	تختال في عدد السلاح المذهب(١)

على أن الحكومة الأموية في الأندلس ، لم تقف مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس ، اذ كان لها هي الأخرى عيون ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجه ، ووهران Oran ، وتنس Tenes ، وبونه (عنّابه الحالية شرقي الجزائر) ، وبجاية ، ومرسى الدجاج . وكانت هذه الجاليات ، قوية التمسك بالعقيدة السنية ، شديدة الكراهية للمذهب الشيعي (٢) .

وحسبي أن أضرب مثلا لهذه المقاومة المالكية الداخلية ، بالنص الذي أورده المالكي في كتابه رياض النفوس ، تعقيباً على احتلال الإمام عبيد الله المهدي لافريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيهاً مالكياً يدعى جبله ، ترك رباطه بقصر الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس ، ورجعت الى هاهنا ! » فقال : « كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا ، لأنه أشد علينا من الروم ! » .

---

(١) راجع (المقري : نفح الطيب جـ ٥ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ أبن الابار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٨٥) .

(٢) البكري : المرجع السابق ص ٥٥ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ويروي ابن عذارى (جـ ١ ص ١٨٤) أن في سنة ٢٩٠ هـ أسست مدينة وهران على يدي محمد بن أبي عون بن عبدوس وجماعة من الأندلسيين .

فهذا النص يدل بوضوح على مدى الإنقسام الديني الذي أحدثه حلول الفاطميين في المغرب [1] .

وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت ، رجل قوي الشخصية ، بلغت الأندلس في عهده ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذي حكم الأندلس مدة نصف قرن (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ — ٩١٢ — ٩٦١ م) .

وقد اضطر هذا الرجل أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ، نلخصها فيما يلي :

أولا : اعلان نفسه خليفة

أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة ٣١٦ هـ — ٩٢٩ م . وكان الدافع الأساسي لهذه الخلافة السنية الجديدة ، هو — كما ذكرنا آنفاً — مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب . وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفي ذلك يقول الخليفة المعز الفاطمي في خطاب له وجهه إلى الأندلس :

« وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آبائه ، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله . ونحن نقول : « اننا أهل ذلك دونه ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه ، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه ، من العداوة القديمة الأصلية

---

(١) ورد هذا النص في الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس الذي لم ينشر بعد ، ومن المعروف أن الجزء الأول منه نشره حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) وقد نقلنا هذا النص عن معجم دوزي المعروف باسم :

(R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes. I· p. 269).

والبغضة في الاسلام والجاهلية ... الخ » [1] .

وواضح من هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما .

ثانيا : تقوية الاسطول الاندلسي

اهتم الناصر منذ بداية حكمه ، بإعداد أسطول بحري كامل الاعداد والتنسيق وبذل في ذلك جهوداً جبارة لدرجة أن عمال دور الصناعة — كما يقول دوزي — لم يجدوا وقتاً للراحة . وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود . ولقد أصدر الناصر أوامره إلى الاسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « وفي سنة ٣٠١ هـ ، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدوة المغربية ، فأحرق جميعها . » [2]

ثالثا : تحصين الثغور الاندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب

عمل الناصر على تحصين سواحله وثغوره ولا سيما في المنطقة الجنوبية التي كانت عرضة لاي غزو مفاجىء يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده . ويروي المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) حيث أشرف على الاعمال الدفاعية في طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية آثاره إلى اليوم . [3] أما الجزيرة الخضراء فيروي الحميري أن الناصر بنى فيها دار صناعة الاساطيل ،

---

(١) راجع القاضي النعمان بن حيون : المجالس والمسايرات ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٣١١ وما بعدها) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) (Terrasse : Histoire du Maroc, I, p. 156).

أتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لان مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبته [1] ونظراً لاهمية موقع هذا الثغر وخطورته ، نقد حرص الامويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، في يد أمير من الاسرة الاموية . [2]

رابعا : احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق :

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل بلاده ، فيروي البكري أنه في سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) استولى الناصر على مدينة مليلة Melilla ، وبنى سورها ، وجعلها معقلا للزعيم المكناسي موسى بن أبي العافية حاكم هذه المناطق الشمالية الذي انضم اليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض أسرارهم إلى قرطبة لعرضهم في شوارعها . وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر أحمد بن موسى الرازي :

والملك الناصر دين الله	فيما يحوط الدين غير ساه
بنى لموسى عدة مدينه	صنيعة شاهقة حصينه
ذلت لها تاهرت والافارقة	ولم يطف بنيانها العمالقه

وفي ربيع الاول سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) [3] احتل عبد الرحمن الناصر مدينة سبته Ceuta على يد قائده فرج بن عفير ، وعمل على تحصينها لأهمية موقعها . وقد وصف ذلك ابن عذارى بقوله :

وشكها بالرجال ، واتقنها بالبنيان ، وبنى سورها بالكذان ، وألزم فيها من رضيه من قواده واجناده ، وصارت مفتاحاً للغرب والعدوة من الاندلس ، وباباً

---

(١) راجع (الحميري : الروض المعطار ص ٧٣ ، ٧٤) .
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧ .
(٣) راجع البكري كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٨٩ .
(٤) يؤرخ ابن خلدون سقوط سبته في يد الناصر ، بسنة ٣١٧ هـ وهذا يتنافى مع تاريخ البكري (نفس المرجع ص ١٠٤) وابن عذارى البيان المغرب جـ ٣ ص ٣٠٧ الذي هو مبين في المتن .

اليها ، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الاندلس من العدوة المغربية ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الاول من العام المؤرخ [١] .

هذا وقد أشار البكري إلى أنه كان يعيش بسبته جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة قالسانة Calsena هاجروا اليها واستوطنوها أيام المحل (الجدب) الذي حل بالأندلس (١٣١–١٣٦ ﻫ) ، وأنهم كانوا يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة من الحسنيين (أي الادارسة) . حتى افتتحها عبد الرحمن الناصر [١] .

وكان من الطبيعي بعد احتلال سبتة ، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها ، وقد أشار ابن عذارى إلى التحصينات التي أقامها عاهل الأندلس في هذه المدينـــة [٢] .

كذلك يروي البكري أن عبد الرحمن الناصر ، حاول في سنة ٣٢٠ ﻫ (٩٢٢ م) ، احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط ، وهو جزيرة أرشقول ، التي تسمى اليوم رشجون Rachgoun أمـــام مصب نهر تافنا بالجزائر . وهي جزيرة عالية منيعة ، تحصن بها أحد أمراء الأدارسة ، واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش . فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندئذ اضطر الأسطول الأندلسي أن ينصرف عنهم عائداً إلى المرية [٣] .

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية ، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة ومليله ، أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل في سياسة المغرب لاثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي .

---

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٣٠٧ .

(٢) البكري نفس المرجع ص ١٠٤ وحول سنوات المحل بالأندلس راجع ابن عذاري ﺣ ٢ ص ٥٥ .

(٣) ابن عذارى ﺣ ١ ص ٣١٦ .

(٤) راجع (البكري : نفس المرجع ص ٧٧ – ٧٨) .

خامسا : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصره ، وأصيلا ، وقلعة النسر أو حجر النسر بين قبائل غمارة . ومثل إمارة نكور أو بني صالح ، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح ابن سعيد . وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمني من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري ، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح . ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة . ولقد لعبت امارة نكور دوراً كبيراً في نشر الاسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجه ، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ، واقيت من وراء ذلك عناء كبيراً خفف من حدته تأييد الأمويين في الأندلس لها[1] .

ولم يقتصر الناصر على محالفة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولا سيما قبيلة زناته التي عمل على تحريضها ودفعها الى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين . وقد شرح لنا صاحب كتاب مفاخر البربر هذه السياسة بقوله :

« وتخطاهم عبد الرحمن الى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر ، يستألفهم ، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ، مُمداً لمن عجز برجاله ، مقوياً لمن ضعف بماله ، متعهداً بوجوه رسله وخواصه ، إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه ، وارتسموا بطاعته ، ولا سيما عند امتياز اضدادهم صنهاجة في

(١) عاشت نكور بعد ذلك مدة طويلة إلى أن افتتحها عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين وخربها سنة ٤٨٣ هـ . ومدينة نكور وان كانت قد اندرست ، إلا أنه لا يزال يوجد بعض أعمالها ومرانيها مثل ثغر المزمة الذي حرفه الاسبان إلى Alhucemas ثم عرب المسلمون هذا اللفظ إلى الحسيمة الحالية . راجع (البكري ص ٩٠ ، ٩٦ ؛ ابن عذارى جـ ١ ص ٢ ٢ ، ٢ ٢٥ ، أحمد المكناسي : المدن المندرسة في شمال المغرب ص ٤) .

حزب أعدائه بني عبيد الله ، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها ، ووقائع يبعد تقصيها ، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين ، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة [١] » .

سادسا : تأييد ثورة ابي يزيد الخارجي

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولـة الفاطمية ، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية . وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم ، وجزءاً من عهد والده اسماعيل المنصور [٢] (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) ، ولم يتردد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية ، وفي مقابل ذلك اعترف ابو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له ، فيروي ابن عذارى أنه في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤) ، أرسل أبو يزيد إلى الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما ، وهزيمته لجند القائم الشيعي ، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايته . وفي السنة التالية (٣٣٤ هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي . وفي السنة التي تلتها (٣٣٥ هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولده أيوب . فأكرمه الناصر ، وأنزله في قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطراً كبيراً على الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيراً بالفشل وبقتل صاحبها سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) [١] والفضل في ذلك يرجع إلى انضمام قبيلة صنهاجه الى جانب الدولة الفاطمية ، لأن أبا يزيد الخارجي كان زناتياً وتؤيده قبيلة زناتة المنافسة لها .

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٤ ، وكذلك .

(Levi Provençal : la politica africana de Abd al Rahman III, Al Andalus Vol XI fasc. 2,1946.)

(٢) راجع (ابن عذارى جـ ٢ ص ٢١٨ — ٣٣١ ، وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧) .

سابعا : التحالف مع اعداء الدول الفاطمية من ملوك اوربا والمشرق

لم يتردد الناصر في ابرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين ، فتحالف مع ملك ايطاليـــا هوج دي بروفانس Hugues de Provence الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة . كذلك تحالف مع قسطنطين السابع أمبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنا تشيد المصادر الاندلسية بالاحتفالات الفخمة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الناصر رسل الروم في سنتي ٣٣٤ ه (٩٤٥ م) ، ٣٣٨ ه (٩٤٩ م) [١] أما المصادر الاسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين : هؤلاء من الغرب ، واولئك من الشرق ، وفي ذلك يقول القاضي النعمان :

« وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة ، وأهدى اليه هدايا وأرسل اليه رسلا من قبله فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ، ومراكب بني أمية من الاندلس » .

والواقع أننا لا نستطيع الحكم على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك لا سيما وأن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار المحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والامبراطور تيوفيل ٢٢٥ ه (٨٤٠ م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية ولكن دون الارتباط معهم في عمل حربي مشترك [٢] .

---

(١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ح ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٢ وكذلك مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، (المرجع السابق) .

(١) راجع النعمان : المجالس والمسايرات ح ١ ص ٢٢٦ ، حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٤٠).

(٢) راجع .Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane, II, p. 144-145)

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الاخشيديين ملوك مصر ، فأرسل اليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالماً أندلسياً اسمه أبو اسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي ، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو على نفسه بالموت قبل مجيء دولتهم وقد توفي فعلا في سنة ٣٥٥ هـ أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات [١] .

على أن النزاع بين الفاطميين والامويين لم يقتصر على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق في التسلح ، واحتلال المواقع الهامة واثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتدبير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الاثير وصفا لبداية هذا الاشتباك بقوله :

وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي ، صاحب الاندلس ، مركباً كبيراً لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي فقطع عليه أهل المركب الأندلسي ، وأخذوا ما فيه ، وأخذوا الكتب التي إلى المعز ، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولا واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية ، وسيره إلى الاندلس فوصلوا إلى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب ، وأخذوا ذلك المركب ، وكان قد عاد من الاسكندرية ، وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات وصعد من في الاسطول الى البر فقتلوا ونهبوا ، ورجعوا سالمين إلى المهدية [٢] .

واضح من هذا النص السابق ، أن السبب الاساسي للاشتباك المسلح بين الدولتين ، هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها والي الفاطميين بصقلية الى

---

(١) محمود مكي : التشيع في الأندلس (المرجع السابق) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤٨ .
(٢) راجع (ميشيل أماري . المكتبة العربية الصقلية ص ٣١٢) .

الخليفة المعز بالمهدية . وقد رجح دوزي أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس ، وأن قائد السفينة الاندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها (١) .

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء ، أن أمر عماله باطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس ، كما أمر مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصري بالابحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في افريقية (٢) . إلا أنه يبدو أن القائد غالب لم يوفق كثيراً في هذه الغارة ، إذ يقول ابن الاثير في هذا الصدد .

« فنزلوا ونهبوا ، ثم قصدتهم عساكر المعز ، فعادوا إلى مراكبهم ، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم » (٣) على أن القائد غالب لم يتردد في معاودة الكرة في السنة التالية (٣٤٥ هـ – ٩٥٦ م) ، فهاجم بأسطول من سبعين سفينة ، مدينة الخرز – حاليا La Calle – ، وكانت كما يقول البكري ، قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية (٤) ، فأضرم النار فيها ، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت (٥) .

هذا ، ويعطينا ابن عذارى وصفاً طريفاً يصور لنا بروز إحدى هذه الحملات الموجهة ضد الفاطميين ، من العاصمة قرطبة ، ومدى الحماس والهرج الذي انتاب الأهالي والجنود خلال هذا الاحتفال الشعبي ومثال ذلك قوله : –

« وفي سنة ٣٤٧ هـ ، في أول المحرم ، أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازياً في الأسطول الى بلد الشيعى معد ابن اسماعيل (المعز) صاحب أفريقية . فبرز ابن يعلى الى محلة الربض لغزاته هذه ، يوم

(١) أنظر Dozy . Hist. des Musulmans d'Espagne, II, p. 165.
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٣٠ .
(٣) أمارى : نفس المرجع السابق ص ٣١٢ .
(٤) البكري : نفس المرجع ص ٥٥ .
(٥) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٣٨ .

الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فخماً خرج اليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبناؤهم وولدانهم ، خلق لا يحصيهم الا خالقهم ، فانتشروا بأكناف الربض على عادتهم ، فأخذ السفلة منهم والغوغاء ، يتقاذفون بالحجارة حاكين صفى القتال ، فدخل في عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان ، حشروا الضراب حتى حمى وطيسه ، وقد تكنف صفيهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا ساعة ، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم ، فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال ، وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة ، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن ... وشرح ذلك يطول [1] .

واستمرت الغارات والاشتباكات البحرية متبادلة بين الطرفين دون توقف تقريباً فيما تلا ذلك من سنين ، كما استمر الامويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية وجالياتهم الاندلسية على الساحل المغربي .

واضطر الخليفة الفاطمي المعز في سنة ٢٤٧ هـ (٩٥٨ م) أن يبعث قائده جوهر الصقلي أو الصقلبي إلى المغرب الاقصى لاخضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الاموي بالمغرب ونجح جوهر في إخضاع البربر [2] ولكنه لم يستطع القضاء على القواعد الأموية الساحلية التي حرص الأمويون على التمسك بها والدفاع عنها . فظلت شوكة في جنب الدولة الفاطمية

٢ ــ الخطر الاسباني المسيحى في الشمال :

سبقت الإشارة إلى أن نشأة القوى النصرانية في شمال اسبانيا بدأت كالأساطير في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب اسبانيا وسحقوا دولة القوط . فقد ظلت جهة واحدة بدون فتح وهي المنطقة الشمالية الغربية المعروفة باسم جليقية أو غاليسيا ، وهي اقليم جبلي وعر قاحل بارد ليس فيه ما يستميل الفاتحين . ولكن

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٣١ – ٣٣٢) .

(٢) مفاخر البربر مؤلف مجهول ص ٦ .

عواقب هذا الإهمال كانت وخيمة إذ أنه في هذه البؤرة الصغيرة نبتت حركة المقاومة الاسبانية بزعامة بلاي Pelayo بعد صمودها لحصار المسلمين في كوفادونجا Covadonga (أي كهف أونجا) ويسميها العرب صخرة بلاي . ثم أخذت هذه الحركة تنمو وتتسع بعد وفاة بلاي ولا سيما في عهد حفيده الفونسو الأول الذي استولى على مدينة ليون وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بمملكة ليون. وقد أقامت هذه المملكة على ضفاف نهر دويره Duero أي على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة للمسلمين ، سلسلة من القلاع والحصون Castellas لحماية تلك الحدود . وقد اتحدت هذه القلاع في القرن الرابع الهجري في امارة واحدة عرفت باسم Castilla وهو الاسم الذي عربه المسلمون إلى قشتاله ومعناه القلاع .

ولم تقتصر حركة المقاومة الاسبانية على ليون وقشتاله ، بل انتشرت بؤراتها على سفوح جبال البرتات شرقاً ، ومن أهمها مملكة نبرّه Navarra التي تحكمت بحكم موقعها الجغرافي في المعابر الجبلية التي تربط اسبانيا باوربا وكانت قاعدتها مدينة بمبلونه .

ويلاحظ أن هذه الامارات النصرانية الاسبانية نشأت كلها في الجبال ولم تستطع الانتشار جنوباً أول الأمر خوفاً من قوة المسلمين ، إلا أنها لم تلبث أن استغلت انقسامات المسلمين على أنفسهم وامتدت في البسائط والسهول المجاورة . كذلك يلاحظ أن هذه الامارات كانت من الناحية الشمالية متاخمة لأوربا وعلى اتصال بفرنسا وبالبابوية والعالم الكاثوليكي ، وكل هذا ساعد على تدعيم قواها المادية والروحية ضد المسلمين في الجنوب .

وحينما ولي عبد الرحمن الناصر على الأندلس ، وجد نفسه أمام حلف اسباني قوي بين ملك نبره شانجه او شانشو الأول وبين ملك ليون أوردونيو الثاني ، وقد استطاع هذا الحلف ان يستغل حالة التفكك التي كانت عليها الأندلس قبيل عهد عبد الرحمن وان يحتل بعض الأراضي والمدن الاسلامية . وقد استشهد في

هذه العمليات بعض قادة المسلمين مثل القائد احمد بن أبي عبده سنة ٣٠٥ ﻫ (٩١٦ م) . ولم يكتف هذان الملكان بما حققاه من انتصارات ، بل حاولا مهاجمة قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين سرقسطه ، عندئذ قرر الناصر أن يذود عن بلاده بنفسه ، فخرج إليهما على رأس جيوشه ، وخاض معهما حروباً طويلة ألقى عليهما فيها دروساً قاسية هدم فيها حصونهم كما استعاد بلاداً كثيرة مثل أوسما Osma ، وتطيله Tudela سنة ٣٠٨ ﻫ (٩٢٠) م وبعد ذلك بمـــدة مات اوردونيو ملك ليون وخلفه راميرو الثاني الذي كان ملكاً طموحاً عنيداً فواصل الحرب مع عبد الرحمن ، متعاوناً في ذلك مع حلفائه أصحاب مملكة نبره . وخرج عبد الرحمن لقتاله بجيش كبير من العرب والبربر والصقالية ، ، وقلد قيادة هذا الجيش لمملوكه نجده الصقلبي . غير ان هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين في موقعة عند خندق مـــدينة شمنقة أو شنت منكش Simancas في سنة ٣٢٧ ﻫ (٩٣٩ م) . ويقال إن سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم ، إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة . فأدى ذلك الى الهزيمة وقتل القائد نجده الصقلبي وفرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة . ويقول صاحب أخبار مجموعة إن عبد الرحمن « لم تكن له بعدها غزوة بنفسه » (١) .

ويجدر بنا الآن أن نقف وقفة قصيرة عند أسباب هذه الهزيمة التي حاقت بجيوش عبد الرحمن لأنها تعبر عن ظاهرة اجتماعية جديدة حلت بالمجتمع الأندلسي وبالجيش الأندلسي ، ألا وهي طبقة الرقيق الصقالبة .

من هم الصقالبة ؟

اطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً وهي البلاد التي كانت تسمى في العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى . ولقد دأبت بعض القبائل الجرمانية على

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٥٥ – ١٥٦ .

سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب اسبانيا ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية ، واستخدموهم في القصر الخليفي . ويذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار اسبانيا في القرن الرابع الهجري (١٠ م) أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضاً من سواحل البحر الأسود ومن لمبارديا وكلابريا في ايطاليا ، ومن قطلونيه وجليقية في شمال اسبانيا وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والأندلسيين على الشواطىء الأوربية للبحر المتوسط (١) .

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا إلى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية اسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبي ، فصار منهم الأدباء والشعراء ، وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة . وقد ألف أحدهم ويدعى حبيب الصقلبي كتاباً في فضل الصقالبة بعنوان « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » وهو مفقود للأسف ، وقد ذكر ابن بسام في كتابه الذخيرة انه اطلع على هذا الكتاب ، وأنه يحتوي على جملة من أشعار الصقالبة ونوادرهم وأخبارهم . ويلاحظ أن ابن بسام للأسف أضرب عن ذكر تلك النوادر والأشعار معتذراً بقوله « وشعرهم خارج من شرطنا وليس من جمعنا » . ولعل تجاهل ابن بسام لهذه الأشعار راجع إلى تعصبه للعنصر العربي في كتابه والتزامه بذكر انتاجه الأدبي دون سواه من العناصر الأخرى الغير عربية في الأندلس . وقد يؤيد ذلك عنوان كتاب حبيب الصقلبي الذي تظهر فيه بوضوح نزعة المؤلف في اظهار فضائل الصقالبة على الأدب والشعر العربي ، وتفوقهم على العنصر العربي في هذا المضمار ، وهذا مما دفع بالمستشرق الألماني جولدزيهر إلى اعتبار هذا الكتاب « البداية الأدبية الأولى نحو الشعوبية في اسبانيا » (٢) .

---

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١١٠ . ويرى المستشرق الهولندي دوزي أن كلمة صقلبي جاءت من الكلمة الفرنسية القديمة Esclave بمعنى عبد أو رقيق .

(١) Goldziher Ignaz : Die Suubijja unter der Muhammedanern ie Spanien, Z.D.M.G., 1899, p. 604.

وإلى جانب هذا الامتياز الأدبي اختص الصقالبة بألوان من الألحان والرقصات التي نسبت إليهم ، فقيل اللحن الصقلبي ورقص الصقالبة وقد اعطانا المؤرخ المعاصر ابو بكر الطرطوش وصفاً جميلا لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسباني في وقتنا الحاضر ، عند قوله : « ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً فقالوا اللحن الصقلبي ، فإذا قرأوا قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق » يرقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (او الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرخفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » [١] .

ويبدو أن بدأ استخدام الصقالبة في الأندلس كان منذ أيام الأمير الحكم الربضي ثم أخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث حوالى ٣٧٥٠ من الرجال ، ٦٣٥٠ من النساء [٢] وهذه الأرقام مختلف في تقديرها ، ولكنها تدل عموماً على وجود طبقة جديدة في المجتمع الاندلسي مثل المماليك الأتراك في المشرق الاسلامي .

ويرى بعض المؤرخين ان اعتماد الامويين في الأندلس على هؤلاء الصقالبة في الجيش والحكومة . كان هدفه الحد من نفوذ الارستقراطية العربية في الحكم واضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر . ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر مملوكه نجده الصقلبي قيادة تلك الحملة التي منيت بالهزيمة وبمقتل قائدها أمام ملك ليون راميرو الثاني في وقعة الخندق أو شمنقة السالفة الذكر [٣] .

وكيفما كان الأمر ، فإن هزيمة الناصر في هذه الموقعة لم يكن لها أي تأثير ايجابي على قوته العسكرية ، إذ استمر في صراعه مع أهل الشمال حتى انتصر عليهم وجردهم من حلفائهم وصار آخر الأمر سيداً على اسبانيا .

---

(١) أبو بكر الطرطوشي : كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبي (تونس ١٩٥٩).
(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٤٠ – ٤١ .
(٣) راجع (احمد مختار العبادي : الصقالبه في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية ص ١٢ ، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ٣٤ وما بعدها) .

ومن سخرية القدر أنه لما مات راميرو الثاني ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردونيو وسانشو ، كان الناصر هو الحكم بينهما ، فتروى المصادر أن سانشو كان رجلا مفرط السمنة لدرجة انه كان إذا ركب حصاناً لا يتحمله مما جعل شخصيته مضحكة في نظر شعبه وهذا ساعد على فقدان عرشه وتفوق أخيه عليه . ورأى سانشو أنه في حاجة إلى تهذيب قوامه من جهة ، وإلى جيش يسانده لاستعادة عرشه من جهة أخرى ، وهذان الأمران متوفران عند الخليفة الناصر في قرطبة حيث كانت صناعة الطب متقدمة عن أي بلد آخر في ذلك الوقت . ومن ثم طلب سانشو من عبد الرحمن أن يمده بجيش وطبيب ، فأرسل له الناصر طبيباً حاذقاً ملماً بلغة أهل الشمال وهو الطبيب اليهودي حسداى بن شبروط . واستطاع حسداي أن يشفي سانشو من سمنته كما استطاع أن يتفق معه على تسليم الناصر عشرة حصون هامة على حدود مملكته في مقابل المساعدة العسكرية التي طلبها ، على أن يكون توقيع المعاهدة في قرطبة نفسها . وبالفعل سافر سانشو إلى قرطبة ومعه جدته طوطه Tota وعدد من رجال دولته فاستقبلهم الناصر في قصر الزهراء استقبالا فخماً ثم سير معهم جيشاً إلى ليون أعاد إلى سانشو عرشه سنة ٣٤٩ هـ . هذه الحادثة وأمثالها تدل بوضوح على ان الناصر استطاع ان يبسط نفوذه على الشمال المسيحي و ان يفصل في مشاكل ملوكه فيولي ويعزل منهم من يشاء .

٣ ـ الخطر النورماندي :

سبقت الإشارة إلى أن خطر النورمانديين على الأندلس ، بدأ في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ولقيت البلاد من ورائه عناء كبيرا خفف من حدته ما بذله هذا الأمير من مجهودات دفاعية جبارة في هذا السبيل. وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن عاود النورمانديون هجومهم على السواحل الأندلسية مرتين في سنة ٢٤٥ ، سنة ٢٤٧هـ (٨٥٩،٨٦١م) ولكن الأسطول الأندلسي استطاع في كل مرة أن يردهم على أعقابهم بعد تكبيدهم خسائر فادحة. وقد أورد كل من العذرى وابن حيان وصفا مفصلاً لهذه العمليات البحرية التي دارت بين الفريقين.(١)

(١) راجع كتابنا دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .

ولا شك أن انتصارات المسلمين في هذه المعارك البحرية يرجع آساساً إلى ارتقاء البحرية الأندلسية إلى المستوى الحربي المطلوب للدفاع عن أراضيها .

اما فيما يتعلق بالخطر النورماندي على عهد الخليفة الناصر ، فلم يرد في المصادر ما يفيد بأنهم قاموا بغارات بحرية على السواحل الأندلسية في أيامه . إلا أنه يلاحظ ان الخطر النورماندي في ذلك الوقت قد بدأ يتخذ طابعاً مستقراً ثابتاً نتيجة لاتخاذهم قاعدة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية . وأعني بذلك ولاية نورماندیا Normandie في غرب فرنسا . وتاريخ هذه القاعدة النورماندية يرجع إلى سنة ٣٠٠هـ (٩١٢) أثناء المنازعات التي قامت بين أفراد الاسرة الكارولنجية . فيروي أن ملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج Le Simple أقطـع الزعيم النورماندي رولون Rollon هـذه المقاطعة التي عرفت باسم نورمانديا . ولم يلبث هذا الزعيم النورماندي أن اعتنق المسيحية وتسمى باسم روبرت . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدنمركية خطراً كبيراً على الاندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تخرج من موانيها وتغير جنوباً على السواحل الغربية ، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير عل الثغور الأندلسية الشمالية . والمتواتر في الكتب ان هذه الحملات النورماندية على شمال الاندلس قد بدأت بعد ذلك في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري ، حينما استولى النورمانديون على القلعة الإسلامية بربشتر Barbastro شمالي سرقسطة سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) . غير أنه يبدو بوضوح من كلام العذري أن هذه الغارات النورماندية على الثغر الأعلى سرقسطة ترجع إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر بدليل قوله :

« وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحيي بن محمد بن عبد الملك على بربشتر والقصر Alquezar في سنة ٣٣٠هـ (٩٤٢م) فكان بها إلى أن أسره المجوس الذين خرجوا إلى ثغر لارده وسرقسطه ، في يوم السبت لثمان مضين من شوال من العام المؤرخ (٣٣٠هـ) ، ففداه رجل من التجار بألف مثقال . وقدم

يحي إلى سدة أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر للذي فداه بتضعيف ما أداه فيه ، وصرفه إلى بربشتر فدخلها سنة ٣٣١هـ [١]

فهذا النص السابق يدل على أن غارات النورمانديين على الأندلس قد اتخذت طابعاً برياً في عصر عبد الرحمن الناصر .

٤ ـ علاقات الناصر الدبلوماسية مع ملوك الدول الأوروبية :

لم تقتصر علاقات عبد الرحمن الناصر الدبلوماسية على ملوك شمال اسبانيا ، بل نجده يتبادل السفارات والهدايا مع كل من امبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين السابع ، (٩٠٥ــ٩٥٩م) ، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الكبير (٩٣٦ــ٩٧٣م) وكل هذا مظهر من مظاهر التفاهم الدبلوماسي بين الطرفين .

ويشير ابن عذاري إلى وفود رسل ملك للروم الأكبر (البيزنطي) على قرطبة في سنتي ٣٣٤ ، ٣٣٨هـ (٩٤٥،٩٤٩م) من حكم الناصر ، ثم يصف حسن استقبالهم بقوله : « فقعد الناصر على سرير الملك بقصر الزهراء [٢] لدخولهم عليه ، بعد أن امر باستقبالهم بالعدد والأجناد . واستوى الناصر على سريره في بهو المجلس الزاهر ، وقعد على يمينه ابنه الحكم ، وقعد سائر أولاده عن يمينه ويساره ، وقعد الوزراء والحجاب على منازلهم صفوفاً . فدخل الرسل وقد قدموا الهدايا بين أيديهم ، وقد دهشوا لهول ما عاينوه من جلالة الملك ووفور الجمع . فصعقوا بين يدي الخليفة ، فأشار إليهم أن لا ، فدفعوا إليه كتاب مرسلهم قسطنطين . وكان الكتاب مصبوغاً بلون سماوي مكتوباً بالذهب » . [٣] .

أما عن علاقة عبد الرحمن الناصر بأوتو الكبير ملك الفرنجة وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فيبدو أنها جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنها

---

(١) راجع (العذري نفس المرجع ص ٧٢ – ٧٣) .

(٢) في رواية أخرى بقصر قرطبه .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣١٣ ، ٣١٥ . راجع كذلك وصفا مطولا لهذا الاستقبال في (المقري : نفح الطيب حـ ١ ص ٣٢٤) .

المجاهدون الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية . وعلى الرغم من أن نشاط هذه الجماعات البحرية كان من باب أعمال القرصنة الحرة الّتي كانت شائعة بين المسلمين والمسيحيين سواء. فإن الامبراطور أوتو الكبير اعتبر عبد الرحمن الناصر مسؤولا عن أعمال التخريب الّتي يقوم بها هؤلاء البحريون الأندلسيون ، ويطلب منه في رسالة شديدة اللهجة أن يعمل على وضع حد لها . وقد رد عليه الخليفة الأموي برسالة مماثلة سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠م) .

وبعد أعوام قليلة عاد الامبراطور أوتو الأول وبعث برسالة أخرى إلى الخليفة الناصر على يد راهب يدعى جان دي جورز Gorze [١] . فلما وصل الراهب إلى قرطبة أحسن استقباله وأنزل في قصر بقرطبة بجوار احدى الكنائس كي يتسنّى له ممارسة شعائره الدينية .

وطبقاً للتقاليد المتبعة في مثل هذه الحالات أحيط الخليفة علمــاً بمضمون الرسالة قبل تقديمها اليه رسمياً ، ووجد الخليفة أنها تتضمن كلاماً فيه نيل من الرسول (صلعم) ، ولهذا رفض تسلمها ، وطلب مقابلة الراهب بالهدية الّتي بعث بها الأمبراطور فقط دون الرسالة. ولكن الراهب أصر على تقديم الخطاب الذي معه للخليفة تنفيذاً لتعليمات الأمبراطور أوتو الاكبر .

وأضطر الخليفة الناصر أزاء اصرار الراهب ، أن يرسل سفيراً من قبله إلى الامبراطور أوتو لحل هذا المشكل ، واختار لهذه السفارة رجلاً مستعرباً يجيد العربية واللاتينية معاً وهو ريموندو Recemundo الذي يسمى أيضاً ربيــع بن زيد ، إذ جرت عادة المستعربين في قرطبة أو يتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية واتجه السفير الأندلسي إلى مدينة فرانكفورت حيث استقبله الامبراطور أوتو الأول وأكرم وفادته وأجابه إلى كل ما اقترحه ، وأرسل معه مرافقاً ، ثم قفل الرسول ومرافقه إلى قرطبة فوصلاها في سنة ٩٥٦م . وبناء على تعليمات الامبراطور الجديد ، تخلى الراهب عن عناده وتنازل عن استصحاب

(١) نسبة إلى دير جوزر Gorze الذي كان ينتمي إليه هذا الراهب بالقرب من مدينة متز .

الرسالة ، واستقبله الخليفة الناصر في احتفال كبير .

ومن الغريب أن المصادر العربية لا تذكر شيئاً عن أخبار تلك السفارات التي تبودلت بين أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر . ابن خلدون والمقري أوردا عبارة مختصرة يذكران فيها أن ملك الافرنجة وراء جبال البرت أرسل رسولا وهدية إلى الناصر (١) . اما المصادر الأوربية فقد تحدثت عن تلك السفارات في شيء من الإسهاب والتفصيل (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فان مثل هذه الروايات إن دلت على شيء فانما تدل على مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط إلى درجة جعلت كلا من امبراطور بيزنطة ، وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة قرطبة كي يحد من نشاطهم .

المنشآت المعمارية في عهد ناصر :

اشتهر عصر الناصر بالرقي والأزدهار الداخلي ، وبالمنشآت المعمارية العظيمة التي تمت في عهده ، فهو من هذه الناحية يعتبر من أعظم ملوك العالم في العصور الوسطى . ومن أهم منشآته مُنْيَة الزهراء أو مدينة الزهراء التي بناها على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس من جبال قرطبة Sierra de Cordoba . وما زالت بقايا هذه المدينة قائمة هناك ويسميها الاسبان Medina Zahra

وواضح ان الدافع لإنشاء هذه المدينة هو رغبة الخليفة عبد الرحمن الناصر في إقامة مدينة ملكية خاصة أو دار للخلافة السنية الجديدة التي أقامها في الأندلس ، وإن كانت المصادر الأندلسية تشير إلى أنه بناها تكريماً لذكرى سُرِّيَّة أو جارية له اسمها الزهراء .

---

(١) ابن خلدون : العبر حـ ٤ ص ١٤٣ ، المقري : نفح الطيب حـ١ ص ٣١٢

(٢) راجع كتابنا دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤٣

منذ حوالي قرن تقريباً كانت هذه المدينة لا تزال مطمورة ومندرسة ، وكل المعلومات عنها مستمدة من الكتب العربية القديمة وعلى رأسها كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي الذي زارها بعد خرابها بمدة قصيرة في أوائل القرن السادس الهجري .

وفي عام ١٩١٠م شرعت الحكومة الاسبانية في البحث عن موقع هذه المدينة ؛ فقام المهنــدس الاسباني Velazquez Bosco بلا سكث بوسكو بأعمال الحفر والتنقيب وتمكن من العثور على أصول بعض الأسوار والأبهاء والأعمدة والجدران ، كما عثر على كميات كبيرة من الخزف والأواني والرخام ، وعلى قطع من الزخارف التي كانت تحلى بها الأسقف والجدران . واستطاع هذا المهندس على ضوء الآثار والانقاض مع الاستعانة بالنصوص التاريخية أن يرسم تخطيطاً ملوناً للمدينة مع دراسة معمارية لها (١) . وعلى ضوء هذه الحفائر أيضاً كتب العالم الفرنسي جورج مارسيه G. Marçais كتابه المعروف عن العمارة الاسلامية في الغرب . (٢)

ومن حسن الحظ أن علم الآثار أو ما يسمى بالأوربية أركيولوجي Archeologie وهو علم حديث وليد القرن ١٩م — قد حقق ما جاء في النصوص التاريخية القديمة ، وأثبت أن ما أورده الإدريسي وغيره من المؤرخين والجغرافيين ، صحيح ودقيق على ضوء هذه الاستكشافات الحديثة .

يقول الإدريسي في وصف الزهراء : « ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء خمسة أميال ، وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها ، وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم وهم قليلون . وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازي على الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط يوازي على الثلث الأسفل ، وكل ثلث منها له سور . فكان الجزء الأعلى منها

---

(١) أنظر (R. Velazquez Bosco : Medina Azzahra y Alamireya, Madrid 1912).

(٢) أنظر G. Marçais : L'architecture musulmane D'occident, Paris 1954).

قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط بساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع . وهي الآن خراب وفي حال الذهاب » (١)

يفهم من هذا النص أن الزهراء كانت مدينة ثلاثية مدرجة على سفح الجبل : القسم الأعلى فيه قصور الخلافة ، والقسم الأوسط عبارة عن بساتين ورياض ، والقسم الأسفل يحتوي على المسجد ومنازل الخاصة والحراس ، وكل قسم من هذه الأقسام له سور وأبواب .

ويروي ابن عذاري في كتابه البيان المغرب أن أعمدة الرخام في الزهراء بلغت إحوالي ٤٣١٣ سارية ، منها ١٠١٣ جلبت من قرطاجة وتونس ، ١٤٠ أهداها إليه ملك الروم في القسطنطينية ، وبقية الأعمدة جلبت من داخل اسبانيا (١)

وكان شروع الناصر في بناء الزهراء في عام ٣٢٥هـ تحت اشراف ابنه وولى عهده الحكم ، والمهندس مسلمة بن عبدالله . وقد اشتغل فيها جيش من العمال ، واستنفدت ثلث ايراد الدولة لمدة ١٧ سنة . على أن بناءها لم يتم نهائياً إلا بعد أربعين سنة بمعنى أنها لم تتم في عهده وانما في عهد ابنه الحكم المستنصر .

ولكن على الرغم من ذلك فقد انتقل اليها عبد الرحمن سنة ٣٣٦هـ (٩٤٧م) ونقل إليها بيت المال كما نقل إليها نساءه وأولاده وخدمه وحراسه واستقبل فيها السفراء . على أنه يلاحظ أن قرطبة ظلت مع ذلك هي عاصمة الدولة الرسمية . هذا ، وتفيد الآثار الباقية أن مدينة الزهراء كانت تحتل مستطيلاً طوله ١٥٠٠ متراً ، وعرضه ٧٥٠ متراً ، وأن المياه كانت تأتيها من أعلا الجبل في قنوات على بعد ثمانين كيلومتراً . وقد اقتضى هذا الأمر إلى نقب الجبل بطريقة هندسية رائعة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم على شكل عيون في الجبل (٣) .

---

(١) الادريسي : نزهة المشتاق ص ٣١٢ نشره دوزي بعنوان صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٢٣١ ، الحميري : الروض المعطار ص ٨٠ – ٨٢ .

(٣) ينبغي أن نشيد بالمجهودات العظيمة في الوقت الحاضر العلماء الا سبان في سبيل ترميم هذه المدينة وإعادة بنائها كما كانت من قبل ، ونخص بالذكر منهم فلكس ايرناندث Felix Hernandez ورفاييل كاستخون Rafael Castejon

بقي أن نشير إلى ملاحظة أخيرة في هذا الصدد وهي أنه في العصور القديمة والوسطى ، كانت الشعوب وأموالها ملكاً لشخص واحد هو صاحب الدولة . فالفراعنة مثلاً سخروا الشعب في بناء الأهرام التي لا تعود فائدتها إلا على شخص فرعون باعتبارها مقبرة خاصة له فهي رمز للطموح الفردي . نفس الشيء يمكن ان يقال على الخليفة عبد الرحمن عندما بنى منية الزهراء وأنفق فيها أموالا كثيرة من ايراد الدولة .

هذا الوضع يختلف عن عصورنا الحديثة من حيث أن المشروعات العمرانية فيها تعود فائدتها على الشعب كله فهي رمز للطموح الجماعي . هذا بالإضافة إلى أن الأموال العامة للدولة أو ما يعرف بالميزانية تناقش أمام الوزراء وممثلي الأمة فالوضع مختلف . ولكن على الرغم من ذلك فإننا نلاحظ أن الأندلس في العصور الوسطى كانت تتمتع بنوع خاص من الحياة الديمقراطية ، ويتمثل ذلك في تلك المعارضة التي قامت ضد الخليفة الناصر وضد اسرافه في أموال الدولة . وقد تزعم تلك المعارضة قاضي العاصمة واسمه المنذر بن سعيد البلوطي الذي أخذ ينصح الخليفة تارة ويعرض به في المساجد تارة أخرى . وغضب الناصر من هذه المعارضة وأقسم بألا يصلي الجمعة خلف المنذر أبداً ، ولكنه لم يحاول عزله أو البطش به .

يروى ان المنذر بن سعيد دخل على الخليفة ذات يوم وهو منهمك مع المهندسين في بحث خطط الزهراء ، فوعظه المنذر بأن هذا ليس من صميم الحكم ، فأنشد الناصر معتذراً :

هِمَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرها	مِنْ بعدهم فبألسُنِ البنيانِ
أَوَ ما ترى الهرمينِ قد بقيا وكم	مَلِكٍ محته حوادثُ الأزمانِ
إنَّ البناءَ إذا تعارضَ شأنُـــهُ	أضحى يدلُّ على عظيمِ الشأنِ

فالناصر يريد أن ينقل إلى الأحقاب التالية ذكر مجده عن طريق بناء يبقى على ممر الزمن تشبها ببناة الأهرام .

وقد رد المنذر بن سعيد على هذا الكلام بقوله :

يا باني الزهـــراء مستغرقـــــا أوقاتـــه فيهـــا أما تمهـــل
لله ما أحسنهـــا رونقـــا او لم تكـــن زهرتهـــا تذبـــل

في هذه الأبيات تعريض بالناصر لأنه على حد اعتقاده ينفق الأموال في شيء مآله الزوال كالزهرة التي تذبل .

ثم دارت الايام دورتها وتحقق ما ذهب إليه المنذر بن سعيد إذ لم تعمّر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاما ثم لعبت بها أيدي الخراب في أيام الفتن التي قامت في أواخر أيام الدولة الأموية ، فصارت المدينة تنمحي شيئا فشيئا حتى زالت ولم يعرف أثرها إلا بعد الحفريات الحديثة .

ومن أعمال الناصر المعمارية الهامة ، إعادة بناء مدينـــة سالم Medinaceli التي تقع شمالي مدريد بنحو ١٥٣ ك.م في الطريق الذي بين مدريد وسرقسطة وهي الآن من أعمال مقاطعة سوريه Soria . وقد عرفت هذه المدينة قديمـــاً في العصر الروماني باسم أوسيليس Ocilis ، ولما فتح العرب اسبانيا ، عمر هـــذه المدنية زعيم مغربي اسمه سالم بن ورعمال المصمودي الذي يحتمل أن يكون من قادة الرعيل الأول الذي قام بفتح اسبانيا . ومنذ ذلك الوقت عرفت هذه المدينة باسم هذا القائد سالم . ويبدو أن الفتن التي حلت بالأندلس في أيام الأمير عبدالله الأموي ، قد خربت هذه المدينة ، إذ أنه لما ولي عبد الرحمن الناصر أعاد بناءها وجعلها ثغرا حربيا لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة . وأشرف على بنائها مولاه غالب وغيره من قواد الثغور ، فنقلوا إليها البنائين والآلات وبنيت أحسن بناء وصارت شجاً في حلوق الكافرين . وأصبحت مدينة سالم منذ ذلك الوقت قاعدة للثغر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى . (١)

هذا وتنسب إلى الخليفة الناصر زيادة مشهودة في مسجد قرطبة الجامع ،

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ابن حيان : المقتبس نشر محمود مكي (تحت الطبع) .

إذ أقام له صومعة جديدة كبيرة من الحجر سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) وذلك بسبب تصدع الصومعة القديمة التي بناها الامير هشام الرضا . وكان ارتفـاع الصومعة (أو المئذنة) القديمة أربعين ذراعا كما كانت ذات مطلع واحد ، فجـاء عبد الرحمن الناصر وأمر بإزالتها وجعل للمئذنة الجديدة مطلعين فصل بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها . وكان لكل مطلع مائة درج وسبعة ادراج، وطولوها ثمانون ذراعا إلى وقوف المؤذن . وفي أعلا ذروة المنار ثلاث رمانات تغشي النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار بالتماعها الأولى مفروغة من الذهب والوسطى من الفضة والثالثة من الذهب أيضا ، وزنة كل رمانة قنطار واحد فما دونه ، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف». (١)

وأخيرا مات الخليفة الناصر سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م وهو في الثالثة والسبعين من عمره بعد حكم دام نصف قرن . وعلى الرغم من هذا العهد الطويل فقد نسبت إليه عبارة كتبها بنفسه في آخر حياته يقول فيها ان الحياة السعيدة التي تمتع بها حقا في حياته كانت أربعة عشر يوما فقط (٢) . وهذه العبارة قد تعتبر صحيحة من حيث الواقع لأن الملوك والحكام الذين يشعرون بالمسؤولية، لا يجدون وقتا للراحة أو التلذذ بالحياة .

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة ومدى احترام الملوك له أن الملك الاسباني أوردوينو الرابع ملك ليون حينما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن ، سأل عن قبر الناصر وذهب اليه وركع أمامه في خشوع مظهرا عظيم احترامه لذكراه .

كذلك نجد المؤرخ المشهور دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في اسبانيا يشيد بعبد الرحمن الناصر ويعتبره في عداد الملوك العصريين لا كخليفة من خلفاء العصور الوسطى على اساس ما تحلى به من صفات كالروح الديموقراطية والأخذ بأسباب المدنية إلى غير ذلك من الصفات التي تفرق بين الملك العصري والملك القديم.

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٣٣ .

- ٢ -

٢ ـ الخليفة الحكم الثاني ، المستنصر بالله
(٣٥٠- ٣٦٦هـ - ٩٦١ - ٩٧٦م)

اعتلى العرش وهو كبير السن ، كان عمره وقتئذ قد جاوز الخامسة والأربعين ، وهذا راجع إلى طول عهد أبيه . إلا أن الحكم مع ذلك كان خبيرا بشئون الحكم ، فقد أشركه أبوه معه من قبل في تدبير شئون الدولة ، وعهد إليه بالإشراف على بناء مدينة الزهراء . يضاف إلى ذلك أن الحكم كان رجلا عالماً منصرفا إلى العلم والقراءة وتصيد الكتب النادرة من كل مكان . وكان له عملاء في بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها ، مكلفون بنسخ الكتب أو شرائها مهما بلغ ثمنها . وكثيرا ما كانت تنتهي إليه مؤلفات بلاد المشرق قبل أن يقرأها أهلها هناك. فيروي على سبيل المثال ان الخليفة الحكم ما كاد يعلم أن عالم العراق أبا الفرج الأصفهاني يشتغل بتأليف كتابه الأغاني حتى أرسل اليه ألف دينار وطلب منه أن يبعث به إليه قبل ظهوره بالمشرق ففعل ذلك وأرسله إليه قبل أن يقرأه أحد في المشرق . ويقال إن أبا الفرج كان من موالي بني أمية وهذا مما جعله يجيب الحكم إلى طلبه .

كان من نتائج هذه الهمة العلمية أن تكونت في القصر الملكي بمدينة الزهراء مكتبة علمية ضخمة يقدر ما حوته من الكتب بنحو ٤٠٠ ألف مجلد في شتى الفنون المختلفة . والغريب إنه قيل إن كل كتاب في هذه الخزانة قد اطلع عليه الحكم وعلق على هوامشه . وهذا القول مبالغ فيه بطبيعة الحال ولكنه يدل على دراية الحكم وسعة اطلاعه .

ولا شك أن اهتمام الحكم بجمع الكتب كان مصحوبا أيضا باجتذاب العلماء ومجالستهم وتشجيعهم . ومن أبرز العلماء الذين ظهروا في بلاطه أو قعدوا للتدريس في جامع قرطبة نذكر العالم اللغوي أبا علي القالي الذي وفد على الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠هـ وأصله من العراق وسمي بالقالي نسبة إلى بلدة قالي أو قلي من أعمال ديار بكر . وقد نال هذا العالم حظوة عظيمة في عصري الناصر وابنه الحكم المستنصر ومن أهم أعماله كتاب الأمالي (طبعته دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦) وهو عبارة عن محاضرات أملاها على تلاميذه الأندلسيين في مسجد قرطبة .، ويتضمن فصولا متفرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وأخبارا تاريخية تتصل ببعض شعرائهم . الخ .

كذلك نذكر المؤرخ القرطبي أبا بكر محمد المعروف بابن القوطية وواضح من اسمه أنه من سلالة امرأة قوطية اسبانية وهي الأميرة سارة حفيدة الملك غيطشة القوطي . وقد تزوجت القائد العربي عيسى بن مزاحم مولى هشام بن عبد الملك ومن سلالتها جاء ابن القوطية . ومن أهم أعمال هذا الرجل كتاب في النحو يعرف بكتاب الأفعال ، وكتاب في تاريخ الاندلس بعنوان «تاريخ افتتاح الاندلس» يبدأ بالفتح الاسلامي لاسبانيا وينتهي بوفاة عبدالله الأموي سنة ٩١٢م. ويفهم من سياق الكلام أنه أملاه على تلاميذه إذ ترد دائما عبارة قال شيخنا ابو بكر أو قال ابن القوطية . وهذا الكتاب نشره مستشرق اسباني اسمه جاينجوس Gayangos . ومن شيوخ هذا العصر ايضا العالم المغربي محمد بن حارث الخشني الذي انتقل من القيروان إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الحكم المستنصر الذي طلب منه كتابة تاريخ للقضاء في الأندلس وسمح له بدخول المكتبة الملكية والاستفادة من كنوزها ، فكتب الخشني «كتاب القضاة بقرطبة» الذي يتضمن معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في الاندلس في هذه الفترة . وقد نشر هذا الكتاب وترجمه مستشرق اسباني اسمه ريبيرا Ribera .

وإلى جانب هؤلائك هناك علماء غير مسلمين اكربهم الخليفة الحكم وقربهم

إليه مثل الاسقف المستعرب ربيع بن زيد Recemundo الذي اشتهر بدراساته الفلكية والفلسفية .

وهكذا اجتمع في قرطبة علماء كثيرون ، ومكتبة ضخمة ، وملك عالم ، اجتمعوا في وقت واحد ، وهذا يدل على مدى الازدهار العلمي الذي تمتعت به الأندلس في القرن الرابع الهجري .

وللخليفة المستنصر نواحي أخرى خيّرة تتجلى في الأعمال التي قام بها لتيسير العلم على الفقراء والمساكين مجانا . يقول ابن عذاري في هذا الصدد : « ومن مستحسنات أفعاله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا ، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة . وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكـللـة   مكاتباً لليتامى من نواحيهـا
لو مُكنت سور القرآن من كلم   نادتك يا خير تاليها وواعيها (1)

هذا ، إلى جانب دار الصدقة التي بناها في الناحية الغربية من الجامع الأموي لتوزيع الصدقات على المحتاجين .

أما أعماله الانشائية فهي كثيرة ، وأهمها تلك الزيادة الكبيرة التي أجراها في مسجد قرطبة من جهة القبلة سنة ٩٦١م لمواجهة مشكلة تزايد سكان العاصمة ، وعدم اتساع المسجد لجموع المصلين ، كذلك أجرى الماء العذب إلى سقايات الجامع ، والميضأتين اللتين مع جانبيه . وقد جلب هذا الماء من عين بجبل قرطبة ، خرق له الأرض ، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء ، محكمة الهندسة ، أودع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس . وفي ذلك يقول الشاعر بن شخيص :

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

وقد خرقت بطون الأرض عن نطفٍ   من أعذب الماء نحو البيت تجريها

سياسة الحكم المستنصر الخارجية :

كانت سياسة المستنصر الخارجية ، استمرارا لسياسة والده الناصر ، ومع نفس الأعداء وهم :

١ ـ الفاطميون وحلفاؤهم في المغرب .

٢ ـ النورمانديون في البحر والبر .

٣ ـ ملوك الدول المسيحية الاسبانية في الشمال .

١ ـ الخطر الفاطمي وسياسة المستنصر في المغرب :

سار الخليفة المستنصر على سياسة والده العدائية نحو الفاطميين فيروي ابن عذاري انه في سنة ٣٥٣هـ تحرك الخليفة بنفسه من قرطبة إلى ثغر المرية لمعاينة حصون هذه الجبهة الشرقية المواجهة للفاطميين في افريقية (تونس) وهناك أشرف على أحوال المجاهدين المرابطين فيها استعدادا لصد أي هجوم فاطمي عليها .

على أنه يبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس ، كما شعروا أن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتاقلباتهم ، وأمام غارات الامويين ودسائسهم ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر . (١)

وفي عام ٣٥٨ هـ(٩٦٩م)، تمكن القائد جوهر من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو يعتبر فريدا في نوعه ، إذ لم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا في أيام الفراعنة ، حينما غزاها الليبيون

---

(١) راجع كتاب سيرة الأستاذ جوذر ص ١٠٧ ، ١٢٣ حيث ترد بعض الرسائل التي كتبها الخليفة المعز إلى مولاه جوذر والتي يشير فيها إلى المتاعب التي يلاقيها الأئمة الفاطميون في حكمهم للمغرب .

أيام الاسرتين ٢٢ ، ٢٣ . ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر في مصر سنة ٣٦٢هـ تاركا حكم المغرب في يد حلفائه بني زيري زعماء صنهاجة .

واستمرت السيادة الفاطمية والأموية في المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض ، واثارة الفتن من وراء ستار . ولم تحاول كل من الدولتين ارسال جيوشها الى هذا الميدان ، فظل المغرب منقسما على نفسه يعيش في فوضى ويتخبط في ظلام . وأخيرا تمكنت صنهاجة ، أو بمعنى آخر الدولة الزيرية ، من بسط سيطرتها باسم الفاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب ، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة ، فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها الامويون .

وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائهما في المغرب ، وبالتالي خفت وطأة الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس (١) .

على أن ابتعاد الخلافتين عن بعضهما ، لم يحل دون استمرار العداء بينهما ولا أدل على ذلك من الخطاب الذي أرسله الخليفة العزيز بالله الفاطمي الى خليفة الاندلس الحكم المستنصر يهجوه فيه ، وقد رد عليه الخليفة الأموي بعبارة موجزة حاسمة ، «قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك» (٢) وفي هذا إشارة إلى الطعن في نسبه .

الا أنه يلاحظ رغم ذلك أن الخطر الفاطمي قد خفت وطأته كثيرا على بلاد المغرب الأقصى بعد ابتعاد الخلافتين عن بعضهما . وقد يؤيد ذلك أن الأدارسة وأمراء زناتة في العدوة المغربية طمعوا في الاستقلال ببلادهم من السيطرة الأندلسية أيضا بعد أن ابتعد عنهم الخطر الفاطمي .

غير أن الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر كان لا يزال يعتقد في وجود الخطر الفاطمي ويرى ضرورة الاحتفاظ بسيطرة الأندلس على مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلية

(١) انظر (A. Julien : Histoire de L'Afrique du Nord, p. 68).

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر حـ ١ ص ٢٥٥ .

ومد نفوذه عن طريقها إلى قلب العدوة المغربية . غير أن هذه السياسة لم تلبث أن اصطدمت بمصالح أمراء الادارسة من بني محمد الذين كانوا يطمعون في استعادة ملكهم على هذه النواحي الشمالية للمغرب . فقاموا بثورة عامة (٣٦١هـ — ٩٧٢م) بقيادة كبيرهم الحسن بن جنون . وقطعوا الدعوة للأمويين ، واحتلوا طنجة وتطوان وأصيلا ، وسائر المنطقة الجبلية الممتدة شمال وادي اللكوس Locus ، وجعلوا قيادتهم في قلعة شاهقة الارتفاع في شمال شرق القصر الكبير تسمى حصن الحجر أو حجر النسر كناية عن ارتفاعها [1] . وأمام هذه الحالة الخطيرة رأت الدولة الأموية ضرورة تغيير سياستها التقليدية المستترة في المغرب واتباع سياسة اخرى واضحة تقوم على التدخل المسلح السافر في قلب العدوة المغربية للمحافظة عليها كخط دفاعي أمامي للأندلس من جهة الجنوب .

ولم يتردد خليفة قرطبة في إرسال أساطيله وجيوشه عبر المضيق لاستعادة نفوذه في تلك المنطقة . ولم ينس لتغطية موقفه أن يصبغ تدخله هذا بصبغة دينية قوامها حماية الاسلام والسنة في المغرب من الهرطقة الشيعية على حد قوله . وأول من أنفذه إلى المغرب قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلمس الذي عبر المضيق إلى سبتة في شوال من تلك السنة (٣٦١هـ)، ثم لحقت به الأساطيل الأندلسية بقيادة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس . وحينما تكاملت الجيوش والأساطيل معا بسبتة ، بدأ هجومها على طنجة براً وبحراً . وكان أمير الادارسة الحسن بن جنون داخلها يشد عزائم أهلها ولكنه فشل في محاولته ، واضطر أن يهجر المدينة ويفر هاربا .

ولم يجد أهالي طنجة بدأ من التسليم ، فخرج شيخهم ابن الفاضل مع جماعة من وجوه طنجة وهم ينادون «الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم» ثم تقدم ابن الفاضل إلى قائد البحر ابن رماحس وطلب منه الامان لأهل بلده . فأعطاه إياه ودخل طنجـــة في شوال سنة ٣٦١هـ (أغسطس سنة ٩٧٢م) [2] . أما القائد محمد بن

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس جـ١ ص ١٣٧ .

(٢) ابن حيان . المقتبس في أخبار الأندلس ، نشر عبد الرحمن حجي ، ص ٨٩ (القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر) .

القاسم بن طملس ، فانه تعقب فلول جيش الحسن بن جنون على ساحل المحيط الاطلسي ، ثم احتل مدينة أصيلا ودخل جامعها فوجد به منبرا جديدا موسوما باسم الشيعي معد ابن اسماعيل (المعز لدين الله) فأمر باحراقه . ولم يستسلم الحسن ابن جنون لهذه الهزيمة ، فأخذ يجمع شمله ويوحد صفوفه من جديد ، ثم هاجم الجيش الاندلسي على غرة في مكان يعرف بفحص مهران بضواحي طنجة فأنزل به هزيمة ساحقة ، وقتل قائده محمد بن القاسم بن طملس ، في ربيع الاول سنة ٣٦٢هـ (٩٧٢م) ولجأ الفل إلى سبتة مستغيثا بالخليفة الحكم [١] .

وثارت ثائرة الخليفة المستنصر لهذه الهزيمة ، وصمم على استرداد كرامته ونفوذه في هذه المنطقة ، ويظهر ذلك واضحا في تصرفاته وتصريحاته ومراسلاته التي بعث بها إلى قواده في المغرب ، والتي أوردها من حسن الحظ ، المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان نقلا عن المؤرخ المعاصر عيسى بن أحمد الرازي الذي تعتبر رواياته أشبه بجريدة يومية تسجل الأحداث أولا بأول .

فيروي أن الخليفة المستنصر ، استدعى وزيره وقائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن من ثغر مدينة سالم Medinaceli ، فوافاه بقرطبة فيمن معه من رجال الثغور في جمادي الآخرة سنة ٣٦٢هـ، وضم اليه الخليفة جيشا كبيرا وأمره بالتوجه لقتال هذا الثائر قائلا له : سر سير من لا اذن له في الرجوع حيا الا منصورا ، أو ميتا فمعذوراً . وابسط يدك في الانفاق ، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال» [٢] .

ثم كتب الخليفة الى قائد اسطوله المرابط في طنجة عبد الرحمن بن رماحس ، والقائدين اللذين معه سعد وقيصر ، وإلى قواده بأصيلا أمثال عبد الرحمن بن أرمطيل ، ورشيق بن عبد الرحمن ، يأمرهم بعدم التفاوض مع الحسن بن جنون وعدم التعرض لقتاله حتى يصل القائد غالب بجيوشه ، ثم يطلب منهم العمل على

---

(١) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦٩ ، مفاخر البربر ص ٨ ، ٩ .

(٢) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٨ — ٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٦٥ — ٣٦٧.

معرفة أخبار الحسن وبث الجواسيس لتتبع حركاته [1] .

ثم أبحر غالب بجيوشه من الجزيرة الخضراء يريد طنجة في رمضان ٣٦٢هـ، الا أن عاصفة شديدة واجهت أسطوله وردته ثانية الى ساحل الجزيرة التي أبحر منها . واضطر أن يبقى هناك أياما الى أن تحسن الجو ، فعبر المضيق الى طنجة ، ثم تقدم لقتال الادارسة في معاقلهم الشاهقة في شوال من تلك السنة . وفي نفس هذا الوقت اتجه قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بأسطوله من طنجة الى أصيلا كي يتعاون مع الأسطول الاندلسي المرابط هناك ، ولكي يكون قريبا من القائد الأعلى غالب . ولقد بارك الخليفة هذه الحركة بخطاب وجهه الى ابن رماحس يقول له فيه «ان اجتماع الاسطولين فيه صواب التدبير» [2] .

ثم استدعى الخليفة صاحب الثغر الأعلى يحيى التجيبي من قاعدته سرقسطة بمن معه من رجال وبعثه الى المغرب لينضم إلى القائد غالب . ولم يكتف المستنصر بكل هذه القوات والأساطيل ، بل أرسل ايضا الشعراء والقضاة والأمناء الذين كانت مهمتهم القيام بما نسميه اليوم بالاعلام والمخابرات . ومثال ذلك الشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني (نسبة إلى طبنة شرقي الجزائر) أرسله الحكم إلى هناك لمعرفته بأخبار المغرب وأهله وولوجه في شؤونهم كذلك ارسل قاضي اشبيلية وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر الذي لقب بالمنصور فيما بعد، فقد قلده المستنصر قضاء العدوة المغربية وجعله عينا على العسكر وأمر قواده وعماله بالعمل بمشورته فحمدت آثاره وصحب وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم .

وبهذه السياسة العنيفة الحازمة شدد الأمويون الحصار حول حصن ابن جنون المعروف بحجر النسر . فاشتد الأمر عليه واضطر الى الاستسلام وطلب الأمان ، فأجيب الى طلبه ودخل غالب الحصن حيث صلى في مسجده صلاة الجمعة مع الأمير الادريسي ، ودعي يومئذ على منبره للخليفة المستنصر بالله في ٢٩ جمادى

(١) ابن حيان : المرجع السابق ص ٩٧ — ١٠٣ .

(٢) ابن حيان : نفس المرجع ص ١١٥ — ١١٦ .

سنة ٣٦٣هـ (٢٧ مارس ٩٧٣م) [(١)] .

ثم عاد القائد غالب إلى الاندلس ومعه الحسن بن جنون وأقربائه الادارسة وكان يوم دخولهم إلى مدينة الزهراء يوما مشهودا لما ظهر فيه من فخامة الملك وكثرة الجمع .

وبإخماد هذه الثورة استطاع الخليفة المستنصر أن يضمن سيطرته على مضيق جبل طارق ، وأن يحمي بلاده من أي خطر شيعي أو زيري يتهددها من ناحية العدوة المغربية .

وقد حرص الحكم المستنصر بعد ذلك أن يعين على حكم هذه المنطقة أميرا اندلسي الاصل اشتهر بعداوته للزيريين ، وهو الامير جعفر بن علي ابن حمدون[(٢)] الذي اشترك مع أخيه يحيى في حكم هذه المنطقة بالتعاون مع زعماء قبائل زناتة من مغراوة وبني يفران .

على أن الخليفة المستنصر لم يلبث أن أصيب بعلة الفالج بعد هذا الوقت بقليل ، فشلت حركته ، وصارت السلطة بيد وزرائه وحاشيته ونسائه ، فاضطربت شؤون الدولة واشتد ضغط الاسبان على الثغور الشمالية ، عند ذلك رأى الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ضرورة عودة القائد يحيى بن محمد التجيبي من المغرب ليسد به ثغور الاندلس ، فاستدعاه إلى قرطبة سنة ٣٦٥هـ (٩٧٥م) وأرسله لوقته إلى سرقسطة . ثم اقدم الوزير المصحفي على خطوة اخرى كانت عواقبها وخيمة فيما بعد . ذلك أنه قرر اخراج الامير الإدريسي الحسن بن جنون واصحابه من الاندلس ليتخلص من نفقاتهم ومطالبهم ، فأذن لهم بالرحيل إلى المشرق بعد أن

---

(١) ابن حيان : نفس المرجع ص ١٥٠ وما بعدها ، ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) هذا القائد كان قد عرض عليه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي حكم ولاية افريقية باسم الفاطميين عندما عزم على الرحيل إلى مصر ، ولكن ابن حمدون اشترط أن يكون شبه مستقل في ولايته فرفض المعز ذلك وعين على افريقية يوسف بلكين بن زيري زعيم صنهاجه . وقد أثار هذا العمل غضب جعفر بن حمدون ففر هاربا إلى الأندلس هو وأخوه يحيى حيث خدما في بلاط الخليفة المستنصر .

أخذ عليهم العهود والمواثيق بعدم النزول في بلاد المغرب . فخرجوا من ميناء المرية وعبروا البحر الى مصر . وهناك استقبلهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، واكرمهم ، واحتفظ بهم كسلاح يمكن استخدامه ضد نفوذ الأمويين في المغرب الأقصى في الوقت المناسب [1] .

٢ ـ الخطر النورماندي :

أما الخطر الثاني الذي كان يقلق بال المستنصر ويثير مخاوفه ، فهو خطر الغزو النورماندي الذي كان لا يزال يهدد ثغوره وسواحل بلاده ، وخاصة بعد أن صار لهم قاعدة ثابتة بالقرب من السواحل الغربية الأندلسية ، وهي ولاية نورماندیا Normandie في غرب فرنسا ، التي أشرنا اليها من قبل .

فيروي المؤرخون أن دوق نورماندیا ريكاردو الأول Ricardo 1. حفيد رولون Rollon مؤسس هذه الولاية ، أمر أساطيله بالسير نحو أسبانيا ، فخرجت من مواني نورماندیا في شكل مجموعات عديدة جريا على عادتها واتجهت نحو السواحل الغربية الاسبانية [2] ، غير أن الأندلس في ذلك الوقت كانت على أتم استعداد للقاء هؤلاء القراصنة وتتبع أخبارهم قبل وصولهم . فيروي ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر كان يرسل جواسيسه إلى مدينة شنت ياقب Santiago, de Compostella من قاصية بلاد العدو في جليقية Galicia (شمال غرب أسبانيا) لامتحان أخبار المجوس [3] . كما أنه في الوقت نفسه تحالف مع بعض الحكام الأسبان [4] في غرب جليقية ليكون له عينا على النورمانديين ، ويمده بأخبارهم وتحركاتهم في الوقت المناسب ، وقد أشار ابن حيان إلى احدى هذه السفارات

---

(١) مفاخر البربر ص ٢٤ .

(٢) أنظر ((Dozy : Recherches II, p. 288).)

(٣) ابن حيان : المقتبس .ـ القسم الخاص بالحكم المستنصر ص ٩٣ .

(٤) ورد اسم هذا الحاكم الجليقي في كتاب المقتبس لا بن حيان على شكل : « غند شلب » الذي قد يكون أصله اللاتيني Gundislavos ثم صار بالاسبانية الحديثة جونثالو Gonzalo (ابن حيان : نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ نشر عبد الرحمن حجي) .

التحذيرية التي أرسلها هذا الحاكم إلى خليفة قرطبة في رمضان سنة ٣٦٠هـ (يونيو سنة ٩٧٠م) يخبره فيها بظهور المجوس في شواطئ أسبانيا الغربية [١] .

كذلك يروي ابن عذاري أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المجوس ، ووضعها في الوادي الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم [٢] . هذا الى جانب الصوائف البرية والبحرية التي كانت تتجه الى الساحل الغربي الاندلسي في صيف كل عام ، وتتجول فيه برا وبحرا برسم جهاد المجوس وتتبع أخبارهم في تلك النواحي الغربية التي اعتادوا الظهور فيها . وكان يقود هذه العمليات البرية والبحرية قواد مهرة مثل الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ، وأمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وصاحب الخيل زياد بن أفلح ، وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان وغيرهم [٣] .

ولقد حصر المؤرخون الاندلسيون الغارات النورماندية على عهد الحكم المستنصر في التواريخ الثلاثة الآتية : — ٣٥٥هـ (٩٦٦م) [٤] ، ٣٦٠هـ (٩٧١م) [٥] ، ٣٦١هـ (٩٧١م) [٦] . واذا استثنينا رواية ابن الخطيب التي تشير إلى غارة فاشلة قام بها النورمانديون على حصن القبطة . Cabo de Gata من حصون المرية في شرق الاندلس [٤] ، فان جميع الروايات تتفق على أن هذه الغارات السالفة كانت على غرب الاندلس وفي مياه المحيط الأطلسي .

ولقد هاجم النورمنديون في غارتهم الاولى (٣٥٥)هـ منطقة قصر أبي دانس

---

(١) ابن حيان : نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٥٢٤ — ٢٥٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٣٥٦ . وقد أطلق الأندلسيون اسم القراقر على مراكب المجوس وقالوا إنها مراكب عظام تجرى إلى أمامها وإلى خلفها بقلوع مربعة . أنظر : (Dozy : Recherches, II, p. X CI).

(٣) راجع ابن حيان : المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٩٢ — ٩٣) .

(٤) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٥٦ ويحدده ابن خلدون بالسنة التي قبلها (٣٥٤) راجع (المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ٣٦٠) .

(٥) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٦ ، ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ ، ٥٨ .

(٦) ابن حيان : نفس المرجع ص ٦٧ ، ٧٨ .

(٧) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٤١ — ٤٢ (القسم الثاني) .

Alcacer do sal في جنوب البرتغال ، وكذلك سهول لشبونة التي دارت فيها معركة عنيفة استشهد فيها عدد كبير من الجانبين ، ثم تمكن الاسطول الاندلسي المرابط في أشبيلية من اللحاق بالاسطول النورماندي عند مصب وادي شلب ، وتحطيم معظمه واسترداد ما كان فيه من أسرى المسلمين (١) .

وكان الاسطول النورماندي في هذه الغارة مكونا من ثمانية وعشرين سفينة ، تحتوي كل منها على ثمانين محاربا ، أي أن مجموع هؤلاء الدانمركيين كان حوالي ٢٢٤٠ رجلا ، قتل معظمهم ولنهزم الباقون لا يلوون على شيء (٢) .

أما الغارات النورماندية التي تلت ذلك في سنتي ٣٦٠ ، ٣٦١هـ، فيبدو انها لم تستطع النزول الى الشواطىء الأندلسية بفضل يقظة الاسطول الاندلسي الذي استطاع أن يبدد شملها دون عناء كبير .

ولا شك أن هذه الانتصارات كان لها صدى كبير في الحياة الاجتماعية والفكرية بالأندلس ، وقد تغنى بها الشعراء وأشادوا بفضل الحكم المستنصر وقواده في هذا النصر . ومثال ذلك قول الشاعر المعاصر محمد بن شخيص في مدح الخليفة وقائده غالب بن عبد الرحمن :

بسعدك يبلي غالب لا بـبأسـه	فأنت ولي الشكر في كل ما أبلى
رميت به جيش المجوس عنايـة	بتحصينك التقوى وتأمينك السبلا
ولمـا أحاطت بالمحيط جنوده	فلم تبق من شطيه علوا ولاسفلا
سرت تخبط الظلماء والموج مثلما	سرى الظعن في الدهناء يعتسف الرملا
أساطيل من الموت أو في طباعه	لإيقاعها بطشا واتباعهـا رسلا
إذا أثخنت في إثر راكبها انبرى	يجنبها وعرا ويركبهـا سهلا (٣)

(١) ابن عذارى : نفس المرجع حـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) أنظر ((R. Dozy : Recherches II, p. 288).)

(٣) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦١ .

٣ – سياسة المستنصر مع الدول المسيحية الاسبانية :

سبقت الإشارة إلى ان الخليفة الناصر في آخر أيامه كان قد أعان الملك سانشو على استرداد عرشه في مملكة ليون مقابل عدة حصون استراتيجية على الحدود تسلم للخليفة الأموي . ولما توفي عبد الرحمن ظن سانشو أن الظروف قد تغيرت وان ذهاب الناصر يبيح له التحلل من تنفيذ العهود التي أخذها على نفسه. فأخذ يماطل ويسوف ظنا منه أن الخليفة الجديد رجل عالم فيلسوف لا تهمه الحرب . غير أن الحكم المستنصر صمم على أخذ حقه بالقوة ، وبينما هو يستعد لذلك ، وفد عليه الملك أوردونيو الرابع المخلوع الذي سبق أن أخذ منه الملك وأعطى لسانشو أيام الناصر . فاستقبله الحكم استقبالا حسنا وعزم على أن يأخذ الملك من سانشو ويعطيه لأوردونيو . ولما علم سانشو بهذا الأمر عاد إليه صوابه وأسرع في الاتصال بالخليفة مبديا استعداده لتنفيذ الشروط التي أخذت عليه . وهنا يجد المستنصر نفسه في موقف لا يخلو من الحيرة أيهما يختار من الملكين ؟

ثم حدث أن توفي أوردونيو الرابع فحل الإشكال ، ولكنه كان حلا ظاهريا لأن سانشو عندما بلغه موت أوردونيو عاد إلى الغدر من جديد واحتفظ بالحصون المذكورة ، ثم أخذ يستعد لمحاربة المسلمين وتحالف مع مملكة نبرة كما تحالف ايضا مع إمارة قشتالة التي كانت حديثة التكوين في ذلك الوقت . ولكن الخليفة الأموي استطاع بفضل قوة جيوشه ومهارة قواده أن يغزو هذه الدول الشمالية وينتصر عليها ، وتنتهي الحرب باستلام الحصون المذكورة .

توفي الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ بعد حكم دام خمسة عشر عاما تاركا طفلا صغيرا دون العاشرة وهو هشام المؤيد . ويبدو أن المستنصر كان قد شعر قبل وفاته بما سوف يحدث لولده من متاعب لصغر سنه ، فجمع كبار رجال دولته وأخذ عليهم عهدا وثيقا بالاخلاص والمؤازرة والتأييد لولي عهده كي يطمئن على مستقبله .

- ٣ -

٣ ـ الخليفة هشام الثاني ، المؤيد بالله والدولة العامرية

لم تجر الأمور على نحو ما قدر الخليفة المستنصر ، إذ أنه بعد وفاته ، وقعت أزمة في أمر من يخلفه ، وانقسم الناس إلى أحزاب مختلفة كل حزب له رأيه الخاص الذي يناسبه : فرجال الدولة من وزراء ومن إليهم يرون أن يتولى هذا الصبي هشام بن الحكم لأن لهم مصلحة في ذلك ، فهم سيكونون حكاما بالفعل ، وهذا شيء يحرصون عليه . فريق آخر وهو فريق الجند ومن إليهم لا يعجبهم أن يكون على رأس الدولة صبي قاصر ضعيف ويفضلون عليه رجلا مكتمل الصفات والرجولة . وفريق ثالث محايد يولي المصلح فقط وفريق رابع سلبي لا يهمه الأمر هذا إلى جانب عامة الناس وفقرائهم الذين لا يرون إلا من يبدل عسرهم يسرا .

وقد وصف هذه الأزمة وصفا مطولا الوزير والمؤرخ الغرناطي لسان الدين بن الخطيب (ق٨هـ) نقتبس منه الأسطر التالية :

«وكان الناس يومئذ — لا بل وفي كل زمان — أربعة :

صنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد هَبْهُ بالغا أو مراهقا أو طفلا في المهد ، وهم صنائع الحكم وكل ذي علاقة به ..... وصنف يؤمل أمرا ويرجو من القرابة الراجحة زيدا وعمرا ... وصنف من الديوان راض بحظه من الزمان لا يتشوق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان فقد تساوت في الدول أحواله ، فإن تعين

الطفل أو الكهل لا يهمه فهو هادن ساكن وإلى فئة العافية راكن .... وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلدوا أهل الحل والعقد اجتهادهم وسألوا الله توفيقهم وسدادهم ... وصنف غارم (فقير) لا هم له إلا فيمن يخفف عسره ، وهؤلاء أوباش الأسواق وحمقى ما لهم من خلاق ... وصنف همه الآخرة بعيد عن الدنيا لا يتكلم في مثل هذا ولا يتكلم معه ، انما مشغول بربه خاصة وهذا جيل قليل ، إنما لا تخلو الأقطار منهم ...» (١)

تمخض الموقف أخيرا بأن أصبح الأمر سباقا بين حزبي العسكريين والوزراء . فالعسكريون من أمراء الصقالبة ورجال الجيش بزعامة اثنين من كبار الصقالبة والحرس الخليفي وهما فائق وجؤذر ، قرروا تنحية هشام لصغر سنه وتولية عمه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر . أما حزب الوزراء أمثال الحاجب جعفر ابن عثمان المصحفي ومحمد بن أبي عامر ، فقد قرروا المحافظة على وصية الخليفة المتوفي التي تنص على تولية هشام . وانتهى السباق بانتصار الحزب الثاني حزب الوزراء الذين دبروا مؤامرة أدت إلى اغتيال المغيرة مرشح الحزب الصقلبي وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم المستنصر .

على أن هذا الخليفة الجديد لم يكن له في الأمر شيء تقريبا لصغر سنه ، سيطرت عليه أمه في بادىء الأمر . وكانت في الأصل جارية بشكنسية من نبرة واسمها صبح Aurora وكان سيدها الحاكم يسميها بجعفر ، وكانت مغنية حظية عنده ثم انجب منها ولده هشام فصارت أم ولد واستطاعت بذكائها وحب الخليفة لها أن تتمتع بنفوذ كبير في القصر . وعن طريق صبح ظهرت شخصية أخرى موهوبة لم تلبث ان سيطرت بدورها على الخليفة وأمه ، وهي شخصية محمد بن أبي عامر الذي لقب بالمنصور فيما بعد . فتاريخ الأندلس في هذه الفترة ٣٦٦ — ٣٩٩هـ (٩٧٦ — ١٠٠٨م) هو تاريخ أسرة ليست من بيت الملك ولكنها استطاعت أن تستبد بالحكم وتصرف شؤونه تصريفا تاما ، تلك هي الأسرة العامرية الممثلة

---

(١) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ٤٤ — ٤٧ القسم الخاص باسبانيا نشر ليفي بروفنسال .

في الحاجب المنصور بن أبي عامر ووليه المظفر وعبد الرحمن . أما الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله ، فكان – كما يقول ابن الخطيب – «مندرجا في كنف كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يُرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مُضعفا مهينا مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفي الكبر بمجالسة النساء ، ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات ، فكم ألفى بخزانته من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح ، ومن قرون منسوبة إلى كبش اسحاق ، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عزيز ، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح ، لم يسترب في تعددها ... إلى مصليات منسوبة لعباد ، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد : بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها ، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطي ، ملتقاة من أيدي المخابث ». [1]

هذا النص يبين أن هشام كان معتوها ، لا يهتم الا بمثل هذه الأشياء السخيفة التي يجلبها إليه المشعوذون ، فهو في نظر المؤرخ شخصية لا يؤبه لها ، انما الاهتمام ينبغي أن يوجه إلى الشخص الوصي الموكل عليه وهو المنصور بن أبي عامر .

---

(١) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ٥٨ (القسم الخاص باسبانيا) .

٤ ـ الحاجب المنصور محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري

ولد سنة ٣٢٨هـ (٩٤٠م) وهو من أسرة عربية قديمة يمنية الأصل تنسب إلى قبيلة معافر اليمنية. دخل جده عبد الملك إلى الأندلس مع طارق بن زياد وأظهر شجاعة في بعض العمليات العسكرية في الجزيرة الخضراء كوفيء عليها باقطاعات جليلة في بلدة طرش Torrox التي تقع على وادي آره Guadiaro في شمال شرق الجزيرة الخضراء. واستمر أبناؤه من بعده في عداد الطبقات الراقية، وجاور بعضهم الخلفاء بقرطبة، وبرز منهم الولاة والقضاة والعلماء. أما والدته بريهة بنت يحي التميمي فكانت أيضا من أسرة عربية معروفة بقرطبة تعرف ببني البرطال. كذلك كان والده عبدالله من رجال العلم والدين، أدى فريضة الحج ومات في طريق عودته بمدينة طرابلس الغرب. [١]

نشأ محمد بن عبدالله بن أبي عامر نشأة حسنة، وكان منذ حداثته طموحا ذا همة عالية ويتوقع لنفسه مستقبلا عظيما. قال في هذا الصدد أحد أترابه ويدعى موسى بن عزرون: « اجتمعنا يوما في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة، ومعنا ابن ابي عامر، وهو في حداثته، وابن عمه عمر بن عسقلاجة، والكاتب ابن المارعزي، ورجل يعرف بابن الحسن من جهة مالقة، وكانت معنا سفرة فيها طعام. فقال المنصور: « لا بد لي أن أملك الأندلس، وأقود العسكر، وينفذ حكمي فيها »! ونحن نضحك منه، ونهزأ به. وقال: « تمنوا علي »! فقال ابن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٧.

عمه : « نتمنى أن نتولى المدينة »، وقال ابن المارعزي : « نتمنى أن نتولى السوق » ، وقال ابن الحسن : « أتمنى أن توليني القضاء بجهتي ، فإني احب التين ، حتى اتشفى من أكل التين »! . قال موسى بن عزرون : ثم التفت المنصور الي وقال : «تمن أنت»، فاسمعته كلاما قبيحا . فلم يك إلا أن صار الملك إليه ، فولى ابن عمه المدينة وبلغه أمله ، وولى ابن المارعزي السوق ، وكتب لابن الحسن بالقضاء عساه يشبع من التين ، وأرغمني أنا مالا عظيما أجحفني وأفقرني لقبيح ما كنت جئته به». (1)

أتم المنصور دراسته بجامع قرطبة ، وقد سلك سبيل القضاة في أول الأمر مقتفيا آثار عمومته وخؤولته ، فقرأ اللغة والأدب على أبي علي القالي البغدادي ، وأبي بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي وغيره . ثم فتح دكانا عند باب قصر الخليفة ، ليكتب فيه للناس الطلبات والعرائض والالتماسات ، وسرعان ما استهوى الجمهور بذكائه ومهارته ، وبلغ خبره السيدة صبح زوجة الحكم وأم هشام عن طريق خدم القصر وغلمانه ، وكانت في حاجة لمثل هذا الرجل ليدير لها أملاكها الخاصة ، فاستخدمته عندها ، فأظهر في ذلك كفاءة ممتازة أعجبت السيدة صبح ، ولم يلبث هذا الاعجاب أن تحول إلى حب بما استمالها به من التحف والهدايا . ذكروا انه صنع لها قصرا من فضة وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك ، وتوسطت لدى الخليفة الحكم المستنصر لكي يرفع من شأنه ، فولاه أمانة دار السكة ، ثم ولاه قضاء بعض النواحي بكورة ريه ، ثم رقاه إلى الاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية ، وعلى ادارة الشرطة فيها . ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد . واستمر ابن ابي عامر بترقي في سلم الوظائف ويزداد نبوغه حتى صار في عداد الوزراء في بداية عهد هشام . وهنا تبتدىء حياته كرجل سياسي واداري كبير في الدولة .

وجد المنصور أمامه طريقا شاقا طويلا مليئا بالخصوم والأعداء في داخل البلاد وخارجها ، ولكنه استطاع بعزيمته الجبارة وذهنه المتقد أن يوقع بين خصومه ،

(1) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٨ ؛ ابن الحسن النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ص ٨١ .

ويضرب بعضهم ببعض ثم يصرعهم واحدا بعد الآخر غير مبال بضمير أو أخلاق في سبيل الوصول إلى مآربه . لقد عمل بسياسة ميكيافلي (ق١٥م). قبل أن يوجد وهي سياسة الغاية تبرر الواسطة .

كان أول خصوم المنصور هو رئيس الوزارة نفسه ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . فانتهز فرصة العداء الذي نشأ بين المصحفي وبين رؤساء الصقالبة عقب مقتل المغيرة بن عبد الرحمن ، وأخذ يوقع بين الفريقين ، واستطاع المنصور بهذه الطريقة أن يشتت قوات الصقالبة ويخرجهم من القصر ويولي غيرهم من مماليكه عرفوا باسم الفتيان أو المماليك العامرية . بعد ذلك أخذ المنصور يتقرب من القائد غالب بن عبد الرحمن قائد الجيش وأمير الثغور ، وكانت له مكانة عظيمة في الدولة ، فتزوج المنصور ابنته اسماء واصبح الجيش بذلك في يده . عند ذلك أخذ في مناصبة المصحفي العداء ، ونسب إليه تهما عديدة ، وأوغر صدر الخليفة عليه فأمر بعزله من الحجابة والقبض عليه وزجه في السجن . وكان المصحفي شاعرا ، فأخذ يستعطف المنصور بالشعر مثل قوله : —

هبني أسأتُ فأين العفو والكرمُ ... إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ
يا خيرَ من مُدت الأيدي إليه أما ... ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغتَ في السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا[1]

غير أن المنصور لم يلتفت إليه بل كان يأخذه في مواكبه مكبلا بالحديد مبالغة في اذلاله . ولبث غالب في سجن المُطْبَق بالزهراء إلى أن مات ، وقيل قتل خنقا .

تحول المنصور بعد ذلك إلى شخصية قوية أخرى قد تعوقه عن بلوغ السلطة العليا في البلاد ، وهي شخصية صهره القائد غالب أمير الثغور وكان قائدا شجاعا محنكا ، ولهذا لم يقدم على مواجهته جزافا ، بل استعان بفارس شجاع مثله وهو القائد جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا القائد كان من أصل أندلسي ، وأن جده ووالده انضما الى الفاطميين

(١) ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٢٨٦ . —

في المغرب . ولما رحل الفاطميون الى مصر وتركوا على حكم المغرب الزعيم الصنهاجي يوسف بلكين بن زيري ، غضب جعفر بن علي بن حمـــدون ، الذي كان يطمع في هذا المنصب ، وترك البلاد هاربا إلى الأندلس حيث لجأ هو وأخوه يحيى إلى بلاط الخليفة الحكم المستنصر . وقد رحب الخليفة بهما وعقد لهما على المغرب بعد اخماد حركة الحسن بن جنون ، إذ وجد فيها سلاحا جديدا يمكن استخدامه ضد الفاطميين وأنصارهم بالمغرب . وظل جعفر في المغرب إلى أن استدعاه المنصور بن أبي عامر ، فعبر بجنوده البربر الى الأندلس بعد أن ترك العمل لأخيه يحيى .

وأطلق المنصور على هذه القوة المغربية الجديدة اسم جند الحضرة اي جيش العاصمة ، واخذ يغدق عليهم الأموال والنعم حتى صاروا طوعا لإرادته . وهكذا صار جيش الدولة مقسما إلى قسمين : الجيش المرابط في الثغور وعليه غالب ، والجيش المرابط في العاصمة وعليه المنصور .

وغضب غالب من هذه السياسة التي يتبعها المنصور للاستبداد بكل شئون الدولة العسكرية والإدارية ، وساءه أن يحجر على الخليفة ، ويسيء معاملة الحاجب المصحفي ، ولهذا أخذت العلاقات تفتر بين الرجلين .

ورأى المنصور بعد أن تجمعت لديه القوة الحربية الكافية ان يشارك غالب في الحروب الشمالية حتى يكتسب محبة الشعب بجهاده ضد النصارى . والتقى القائدان عند حصن من حصون بلدة انتيسه في الثغور الشمالية ، فدعاه غالب إلى وليمة هناك ثم دار بينهما نقاش وعتاب لم يلبث أن اشتد وتحول إلى سباب ، فما كان من غالب إلا أن أخرج سيفه وضرب المنصور محاولا قتله فأصابه بجراح أبانت بعض أنامله ، ولكن المنصور استطاع أن يقفز بفرسه من القلعة وان ينجو باعجوبة من هذه المكيدة التي كادت تودى بحياته . وأيقن غالب أن المنصور لا بد وأن يعود بجيشه للانتقام ، فأخذ يستعد لمجابهته وتحالف مع بعض ملوك الدول الاسبانية الشمالية . وفي عام ٣٧١هـ وقعت الوقعة الفاصلة بين الرجلين ، أظهر فيها غالب شجاعة وبراعة رغم كبر سنه الذي قارب الثمانين ، وكان

يقاتل وعلى رأسه طشتان (خوذة [1] أو بيضة) مذهب مرتفع السمك قد عصبه بعصابة حمراء أُعلم بها ، وشدّ جبينه بعصابة اخرى . واستطاع غالب أن ينقض على جيش المنصور كالليث العادى وأن يشتت شمل جناحيه لدرجة أن المنصور صار يصفق بيده دهشا ورجلاه تضطربان في ركابه ينظر من أين يحُاط به ، ولا يشك في حتفه ، وهو مع ذلك رابط الجأش ثابت في مكانه . ثم حدثت المعجزة حينما سقط غالب ميتا على فرسه خلال المعركة ولا أثر لشيء من السلاح في جسده ، فقيل أن قربوس سرجه أصاب جانب قلبه ، وقالوا غير ذلك ، ولم يتفقوا في سبب حتفه [2]

وبعد أن تخلص المنصور من هذا المنافس القوي تحول إلى قائد الجند المغربي جعفر بن علي بن حمدون ، أكبر معين له على القائد غالب ، فنادمه ليلة وسقاه خمرا حتى أسكره ثم أرسل من قتله في الطريق . [3]

وهكذا تخلص المنصور من منافسيه وفق مبدأ الغاية تبرر الواسطة ، «وقد تسمى في ذلك الوقت (٣٧١هـ / ٩٨١م) بلقب المنصور ، ودعي له على المنابر به ،استيفاء لرسوم الملوك ، فكانت الكتب تنفذ عنه : من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن ابي عامر إلى فلان . وأخذ الوزراء بتقبيل يده ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية ، فساوى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب . ولم يجعل فرقا بينه وبينه إلا في الاسم وحده في تصدير الكتب عنه ، حتى تنامت حاله في الجلالة وبلغ غاية العز والقدرة» [4]

وقد لخص بعض المؤرخين هذه السياسة العامرية تلخيصا جميلا بقوله : « كان (المنصور) آية من آيات الله في الدهاء والمكر والسياسة ، عدا بالمصاحفة (أي أعوان الحاجب المصحفي) على الصقالبة حتى قتلهم ، ثم عدا بغالب على

(١) Dozy : Supplement aux Dic. Arabes II, p. 44.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٦٤ .

(٣) حينما علم أخوه يحي بن علي بن حمدون بخبر مقتله ، فر من المغرب إلي مصر والتحق بخدمة الخليفة الفاطمى العزيز بالله .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٧٩ — ٣٨٠ .

المصاحفة حتّى قتلهم ، ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتّى استراح منه ، ثم عدا بنفسه على جعفر حتّى أهلكه . ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر : هل من مبارز ؟ فلما لم يجده ، حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له وساعده ، واستقام له أمره منفردا بسابقة لا يشاركه فيها غيره ». (١)

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية في شمال اسبانيا:

رأى المنصور أن يدعم نفوذ بعمل يكسبه شرعية في الحكم وشعبية بين الناس وهو الجهاد في سبيل الله . لهذا أخذ يغزو بنفسه الممالك المسيحية الشمالية . وكانت له في كل عام غزوتان في الربيع وفي الخريف (الصوائف والشواتي) وقد بلغت غزواته سبعا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه رغم مرضه بعلة النقرس (٢) ، ولم ينهزم في واحدة منها طوال حكمه الذي بلغ خمسا وعشرين سنة . يروي ابن عذاري ان المنصور اعتنى بجميع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله حتّى اجتمع له منه صرة ضخمة ، عهد بتصبيره في حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه توقعا لحلول منيته في أي لحظة . (٣)

حارب المنصور في جبهات النصارى المتعددة : في قشتالة وليون ، ونبرة ، وقطالونيا . وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة ، ووصل فيها إلى ما لم يصل إليه ملك من ملوك المسلمين السابقين ، فدانت له جميع اسبانيا شمالا وجنوبا .

ومن أهم غزواته الحملة التي شنها على برشلونة وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا سنة ٣٧٤هـ (٩٨٥م)، والحملة التي شنها على جليقية او غليسيه في شمال غرب اسبانيا سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م).

اما الحملة الأولى حملة برشلونة وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمة قرطبة وسارت في طريق البيرة وبسطة ثم مرسيه . ومن هناك اتجهت شمالا في الطريق

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٧٧ .

(٢) كان المنصور يعالج هذا المرض بالكي على رجليه ويديه .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨٨ .

الساحلي الشرقي المطل على البحر المتوسط حتّى بلغت برشلونة بعد شهرين تقريبا ، نقلبت أعاليها سافلها ، ولم يجرؤ حاكمها بريل الثاني Borrell II على مواجهة المنصور وانقاذ المدينة من براثنه .

أما حملة جليقية وهي الغزوة الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها هو غزو مدينة شنت ياقب أي القديس يعقوب او سان جـاك Santiago de Compostela أحد الحواريين الاثني عشر ومن أخص الناس بالسيد المسيح حتّى اعتبره المسيحيون أخاه للزومه إياه . ويزعم المسيحيون أن هذا القديس كان اسقفا لبيت المقدس وأنه ساح في الأراضي داعيا لمن فيها حتّى انتهى إلى هذه القاصية ومات ودفن فيها . وقد أقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج اليها المسيحيون من جميع انحاء العـالم ولا تزال مدينة شنت يـاقب Santiago de Compostela هي القاعدة الدينية لاسبانيا .

والأساطير الاسبانية القديمة تشير إلى أن سنتياجو ، كان يخرج للجنود المحاربين الاسبان على شكل ملاك بيده سيف ، ويمتطي فرسا أبيض ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين في المعركة حتّى يكتب لهم النصر . ولهذا اطلقوا عليه كلمة Matamoros أي قاتل المسلمين .

وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين الاسبان الحديثين قد أبدوا شكا كبيرا في أن سنتياجو مدفون في اسبانيا ، إلا أن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن الاسبان في العصر الوسيط قد آمنوا بهذا القديس ومعجزاته ، واتخذوه رمزا قوميا في حروبهم مع المسلمين .

وعلى هذا الأساس كانت نظرة الاسبان الى سانتياجو تختلف تماما عن نظرة العالم المسيحي له : فالأوربيون بصفة عامة ينظرون إليه على أنه القديس الذي يحجون إليه Santiago el Peregrino ، أمـا الاسبان فينظرون إليـه على أنه سنتياجو المحارب Santiago el Bélico ومن هنا نـدرك تماما لمـاذا حرص المنصور في هذه الغزوة على الوصول إلى كنيسة سنتياجو وهدمها ، لقد كان غرضه من غير شك هو تحطيم اسطورة سنتياجو الحربية ، وطعن الاسبان في صميم زعامتهم القومية والروحية .

واشترك في هذه الحملة الأسطول الأندلسي الذي حمل المشاة والأسلحة والأقوات والأطعمة والعدد ، وأقلع من ميناء قصر أبي‌دانس Alcacer do Sal على ساحل غرب الأندلس (البرتغال) واتجه نحو الشمال . بينما سار المنصور برا على رأس فرسانه مخترقا الأراضي الاسبانية شمالا حتى بلغ نهر دويره Duero . وهناك التقى بأسطوله الذي دخل في النهر وعقد منه جسرا لعبور الجنود ثم زحف المنصور بفرسانه ومشاته مخترقا بلاد العدو بما فيها من جبال ووهاد حتى بلغ مدينة سانتياجو ، فوجد سكانها قد فروا منها خوفا منه ، فأمر المنصور بتدميرها وتدمير كنيستها ولكنه حافظ على مقام القديس يعقوب احتراما للتقاليد الاسلامية . وعاد المنصور محملا بالأسرى والغنائم التي كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها . فاستخدمت الأبواب في تسقيف الجزء الذي زاده في جامع قرطبة ، كما استعمل النواقيس ثريات للمسجد .

كان من نتائج هذه الحملات ان اكتسب المنصور شعبية كبيرة بين المسلمين ، وزادت هيبته وسطوته في داخل البلاد وخارجها ، وذاع صيته في كل مكان . ومن مظاهر ذلك قول عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب . «وملأ (أى المنصور) الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم . وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ، وذلك لرخص اثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد . بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو اكثر من عشرين دينارا عامرية».

وفي هذا المعنى يروي ابن عذارى أنه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين : «مات الجلاب ! مات الجلاب !» [1] . والجلاب كلمة معناها قبيح في الأصل ، إذ كانت تطلق على بائع الدواب أو على النخاس بائع الرقيق ، ولكنها اطلقت هنا بمعنى مجازي مستحب يراد به مدح المنصور كقائد عظيم غمرهم بالسبايا والنعم عقب إيابه من غزواته .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣ .

سياسة المنصور في بلاد المغرب :

سار المنصور على نفس سياسة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر التي تقوم على ضرورة الاحتفاظ بالعدوة المغربية تحت السيطرة الأندلسية لتكون خط دفاعها الأمامي ضد الخطر الشيعي من هذه الجهة الجنوبية .

ونجح المنصور في ذلك نجاحا كبيرا لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد ، إذ دخل في الطاعة الأموية كل البلاد المغربية الممتدة إلى سجلماسة (تافيلالت) جنوبا سنة ٣٧٠هـ، وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقا سنة ٣٨١هـ. [١] وقد شرح صاحب مفاخر البربر هذه السياسة العامرية بقوله :

واقتصر محمد بن أبي عامر لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما والاها بجند السلطان الأندلسي ، وقلدها كبار رجاله من أصحاب السيوف والأقلام على حسب الحاجة إلى تغيير طبقاتهم . وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة ، ومنحهم الجوائز والخلع ، وأكرم وفودهم ببابه ، وأثبت من رغب منهم الإثبات في ديوانه ، فأحبوا محمداً ، وجدوا في المحاماة عن الدولة .

واتفق لهم أيام تقلده الحجابة ، وتفرده بتدبير الدولة ، وذلك في شعبان سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) أن زحف خزرون بن فلفول أحد عظماء زناته — المرتسمين بولاية بني مروان بالمغرب — إلى مدينة سجلماسة ، وكانت قد عادت إلى أيدي الخوارج الإباضية بعد فتح جوهر (الصقلي) لها ، وأسره لمحمد بن الفتح صاحبها الخارجي . وقام رجل منهم وتسمى المعتز بالله سنة ٣٥٢ هـ ، فلم يزل مالكها إلى أن ظهر عليه خزرون بن فلفول وهزم جموعه وقتله واستولى على سجلماسة وضبطها وذلك سنة ٣٧٦ هـ ، ووجد للمعتز مالا عظيماً وسلاحاً كثيراً ، وأقام الدعوة للخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم ، وهي أول دعوة قامت للمروانية بذلك الصقع الجنوبي . وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتز فشُهِّر بقرطبه ، ونصب بباب السدة ، وكان أول رأس رفع في الدولة ، ونسب الأثر فيه إلى

---

(١) مفاخر البربر ص ٢٤ .

محمد بن أبي عامر ، وتيمّن لحجابته ، وعقد لخزرون على سجلماسة ، فلم تزل بيده إلى أن هلك وصارت في يد ابنه وانودين الى انقضاء الدولة » [1] .

وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الذي أحرزه المنصور بن أبي عامر في العدوة المغربية ، فقد قامت معارضات وثورات عديدة ضد النفوذ الاموي في هذه المنطقة . ولكن المنصور كان لها بالمرصاد لدرجة أنه اتخذ من مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب الاندلس ، قاعدة عسكرية للإشراف منها على العمليات الحربية في العدوة المغربية ، كما أمر بأن تبنى له القصور والمنازل في طريقة إلى الجزيرة الخضراء جنوباً على غرار ما فعل في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالا .

وأول هجوم واجهه المنصور بن أبي عامر في العدوة المغربية كان في ٣٦٩ ﻫ (٩٧٩م) وبقيادة الأمير بلكين أو بلقين بن زيري الصنهاجي ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط . ولكن المنصور استطاع أن يعد له بظاهر سبتة جشياً كبيراً من المغاربة والأندلسيين بحيث لما جاء بلقين وأشرف على جيوش المنصور من أعالي الجبال المطلة على سبتة هاله ما رأى وقال لأصحابه : « إنما سبتة حية ولت ذنبها حذاءنا وفغرت فاها نحونا » وانصرف راجعاً إلى وطنه [1] .

أما الهجوم الثاني الذي واجهه المنصور بن أبي عامر في المغرب الأقصى ، فكان في سنة ٣٧٥ ﻫ (٩٨٥ م) وبقيادة الأمير الإدريسي الحسن بن جنون الذي كان مقيماً في بلاط الفاطميين بالقاهرة كما أسلفنا القول . وقد أخذ الخليفة العزيز بالله الفاطمي ووزيره يعقوب بن كلس يزينان لهذا الأمير الادريسي الرجوع إلى وطنه ، والتمسك بدعوة آبائه الأدارسة ، واسترداد ملكهم الضائع في المغرب . وصادف هذا الكلام هوى في نفسه ، فانصرف هو ورجاله الى المغرب بعد أن تقوى بالمال اللازم .

وحاول الحسن بن جنون أن يحيي من جديد دولة الأدارسة بالمغرب ، وأبدته

---

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ١٦ نشر ليفي بروفنسال .

(٢) مفاخر البربر ص ١٧ .

في ذلك بعض القبائل الزناتية مثل بني يفران ، وعدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته . غير أنه لم يستطع الصمود أمام جيوش المنصور وأعوانه من قبيلة مغراوة الزناتية ، فأعلن استسلامه طالباً الأمان . ولكن المنصور لم يقبل طلبه في هذه ا لمرة وأمر بقتله لكثرة فساده ونكثه بوعوده [(١)] .

ولقد أثار مقتل الشريف الحسن بن جنون استياء العلويين من المنصور ، فأخذوا يعرضون به في كلامهم ، ويهجونه في أشعارهم ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال قول الشاعر ابراهيم بن ادريس الحسني في هذا الصدد :

فيما أرى عجبٌ لمـــن يتعجب	جلّت مصيبتنا وضاق المذهبُ
إني لا أكذّب مقلتي فيما أرى	حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيـــاً من أميـــة واحـد	ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب [(٢)]
تمشي عساكرهم حوالى هـــودج	أعواده فيهن قـــرد أشهـــب
ابني أمية أين أقمـــار الدجـــا	منكم وما لوجوهها لا تتغيب [(٣)]

على أن الثورة الخطيرة التي واجهت المنصور في العدوة المغربية ، كانت بقيادة الزعيم المغربي زيري بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) . وكان هذا الزعيم وقبيلته مغراوة (إحدى بطون زناته) قد ساعدوا المنصور في اخماد الثورة العلوية التي قام بها الحسن بن جنون وأعوانه الزناتيون من بني يفران . وقد كافأه المنصور على ذلك بأن ولاه حكم بلاد المغرب فصارت له الرياسة في قبائـــل زناته .

وينسب لزيري بن عطية المغراوي بناء مدينة وُجْدَة سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) بالقرب من الحدود الجزائرية وجعلها عاصمة لدولته المغراوية . كذلك تنسب اليه

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس حـ ١ ص ١٤١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب حـ ٢ ص ٤١٩ ؛ السلاوي الناصري : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى حـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٢) يبدو أن المنصور كان أحدبا فعلا بدليل أن صهره قائد الثغور غالب بن عبد الرحمن كان يسميه أيضا بالأحدب الملعون . راجع (ابن الخطيب : أعمال الا علام ص ٦٤).

(٣) مفاخر البربر ص ٢١ .

رياض القرطاس التي غرسها بنواحي مدينة فاس حتى صار زيري يلقب بالقرطاس أيضاً . ومن الطريف أن المؤرخ المغربي ابن ابي زرع اقتبس هذه التسمية في عنوان كتابه المعروف باسم « الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » [1] .

ولقد حرص هذا الزعيم المغربي على إظهار ولائه للدولة الأموية وارسال الهدايا النفيسة إلى الحاجب المنصور كالطيور الجميلة ذات الصوت البديع ، والوحوش الكاسرة في اقفاصها الحديدية كالأسود والنمور . كذلك أرسل له زرافة حية ولكنها نفقت في الطريق فجيء بجلدها محشواً . هذا إلى جانب التمر الجيد الذي تشبه الواحدة منه الخيارة عظماً .. الخ [2] .

غير أن هذه العلاقات الطيبة لم تلبث ان تغيرت فجأة عقب آخر زيارة لزيري بن عطية بالأندلس . فيروي المؤرخون أنه لما جاز المضيق عائداً إلى وطنه واستوت قدمه على أرض مدينة طنجة ، تعمم وخاطب بلاده مرحباً : « الآن علمت أنك لي ! »[3] وهذه العبارة تدل على عزمه على الاستقلال ببلاد » .

وفي سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أعلن زيري ثورته على المنصور بن أبي عامر ، وطرد عماله من جميع البلاد المغربية ما عدا القواعد الأموية المطلة على المضيق مثل سبته وطنجه ومليليه .

ولقد ذكر في اسباب هذا الخلاف روايات مختلفة منها أن زيري بن عطية استقل العطاء الذي كان يجريه عليه المنصور بن أبي عامر في كل سنة . ومنها ان زيري بن عطية احتقر لقب الوزارة الذي انعم عليه به المنصور بن أبي عامر لدرجة أنه صاح في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير قائلا : « وزير من يا لكع ! لا والله إلا أمير بن أمير ، واعجباً لابن أبي عامر ومخرقته ، لان تسمع

---

(١) طبع هذا الكتاب في المغرب عدة مرات وترجم إلى عدة لغات أجنبية انما يلاحظ ان كلمة القرطاس ترجمت في بعض هذه الكتب بمعنى الورق Papier مع أنها اسم علم ينبغي أن يبقى كما هو .

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢١١ ، مفاخر البربر ص ٢٧ .

(٣) مفاخر البربر ص ٢٢ .

بالمعيدي خير من أن تراه ، والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله . وان له منا ليوماً (وفي رواية أخرى ليوثاً) [1] كذلك يقال من أسباب هذا الخلاف أن زيري أنكر على المنصور استبداده بالخليفة هشام . ومن الطريف أن السيدة صبح التي كانت تكن للمنصور كل حب واعجاب ، قد انقلبت عليه بسبب حجره الشديد على ابنها هشام . فيروي المؤرخون أنها حاولت أن تأتي بجيش من المغرب على نفقتها للقضاء على المنصور ، وانها أخذت الأموال من بيت المال في القصر الخلافي بالزهراء ، ووضعتها في جرار لإرسالها على شكل هدايا إلى حليفها المغربي زيري بن عطية . ولكن المنصور استطاع بفضل عيونه أن يكتشف المؤامرة ويستولي على هذه الهدايا . ولكي لا تتكرر هذه الحادثة ، نقل المنصور بيت المال فوراً من مدينة الزهراء إلى مدينة الزاهرة التي بناها لنفسه [2] .

ولعل مما يؤيد هذا الرأي الآخر كسبب للخلاف ، أن زيري بن عطية جعل شعاره وصيحات جنوده في هذه الحرب عبارة «هشام يا منصور» بينما كان شعار جنود المنصور بن أبي عامر «يا منصور» وهناك فارق له مغزاه بين الشعارين [3] .

ومهما يكن من شيء فالأمر الذي لا شك فيه هو ان زيري بن عطية كان يضمر في قرارة نفسه الاستقلال ببلاده ، وأنه اتخذ من هذه المبررات السابقة ومن تمسكه بالدعوة المروانية ذريعة لتحقيق أهدافه الوطنية .

وبدأ المنصور حربه مع زيري بأن عزله من خطة الوزارة وقطع ما كان يجريه عليه من راتبها ، وأعلن براءته منه . ثم جهز إليه حملة بقيادة مملوكه واضح الصقلبي قائد ثغر مدينة سالم [4] Medinaceli .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٤١ ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢١١ ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ١ ص ١٦١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الرابع القسم الأول ، ص ٥٢ — ٥٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٣) مفاخر البربر ص ٢٩ .

(٤) سبقت الإشارة إلى التعريف بهذا الثغر الذي يقع في شمال مدريد بوادي الحجارة وقلنا إنه أعيد بناؤه أيام عبد الرحمن الناصر وصار ثغرا على إمارة قشتالة عندما اتسع نطاق العمليات الحربية في هذه الجبهة ثم جاء المنصور وأعاد بناءه وتحصينه .

وعبر واضح المضيق سنة ٣٨٧ ﻫ (٩٩٧ م) ونزل مدينة طنجة حيث انضم إليه عدد من قواد البربر والموالين للمنصور . ثم خرج واضح من طنجة يريد مدينة فاس ولكنه لم يستطع التقدم أمام هجمات زيري بن عطية ، واضطر إلى الانسحاب منهزماً إلى طنجه .

وأمام هذه الهزيمة اتخذ المنصور خطوات حاسمة في هذا الموضوع ، إذ خرج بجميع جيوش الأندلس إلى الجزيرة الخضراء ، ثم أجازها جميعاً إلى سبته وأسند قيادتها إلى ابنه عبد الملك المظفر بدلا من مملوكه واضح ، وبقي المنصور في الجزيرة الخضراء يراقب المعركة عن كثب .

وشعر زيري بخطورة موقفه ، فبعث إلى جميع قبائل زناته يستصرخها لنصرته ، فهرعت إليه من جميع أنحاء المغرب ، ونهض بها إلى قتال عبد الملك ، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة بوادي مِنَى بأحواز طنجة كان النصر فيها سجالا بينهما [١] .

وهنا تلعب الخيانة دورها ، ويبدو أن المنصور كان من ورائها ، لأنه أتقن استعمال هذا السلاح من قبل مع أعدائه ومنافسيه ، فتشير المصادر إلى أن غلاماً أسود اسمه كافور بن سلام [٢] كان زيري قد قتل أخاه من قبل ، استطاع أن يصل إلى خيمة زيري وان يصيبه بطعنة نافذة في رقبته ثم فر هارباً إلى معسكر عبد الملك بن المنصور مبشراً بقتل زيري .

ولما تأكد عبد الملك من صحة هذا الخبر ، حمل على جنود زيري وهم في حالة دهشة واضطراب ، فهزم جموعهم واستولى على ما معهم من مال وسلاح ، ثم استولى على فاس وتادلا وسجلماسة وغيرها من المدن الهامة ، فدان المغرب الأقصى لطاعة المنصور ، وعاد عبد الملك إلى الأندلس ، بينما بقي واضح الصقلبي في المغرب كحاكم عليه من قبل الدولة الأموية في الاندلس سنة ٣٨٩ ﻫ (٩٩٩ م) [٣] .

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ﺟ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) ابن عذاري ينسب محاولة قتل زيري بن عطيه إلى ابن عمه الخير بن مقاتل الذي طعنه برمح في قفاه وهرب (البيان المغرب ﺟ ٢ ص ٤٢١) .

(٣) مفاخر البربر ص ٢٩ — ٣٠ ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ﺟ ١ ص ١٦٥ — ١٦٧

أما زيري بن عطية ، فقد حمله أصحابه جريحاً إلى الصحراء ، فظل بها إلى أن اندملت جراحه ، ثم اتجه إلى المغرب الأوسط شرقاً بمن تجمع حوله من قبائل مغراوة وزناته ، وجرت بينه وبين الدولة الزيرية الصنهاجية وقائع عديدة إلى أن انتقض عليه جرحه من جديد وقضى نحبه سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) .

وخلف زيري في زعامة زناته ابنه المعز الذي فضل عدم اتباع سياسة والده ، فترك حرب صنهاجه ، وصالح المنصور بن أبي عامر ودخل في طاعته . وهكذا سيطرت الخلافة الأموية من جديد ، وعلى يد حاجبها المنصور بن أبي عامر ، على معظم بلاد المغرب الأقصى . على أن موضع الأهمية هنا ، هو أن فكرة الانتقام من الخلافة الفاطمية الشيعية ، والقضاء على نفوذها في مصر والشام وافريقية ، ظلت تراود عقول الأمويين في الأندلس رغم بعد المسافات التي بينهما. ونجد ذلك واضحاً في شعر حاجبهم المنصور بن أبي عامر عند قوله :

عن قريب ترى خيـــول هشام   يبلغ النيل خطوها والشآمـــا[1]

ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، كاد أن يتحقق فعلا بعد وفاته بقليل . إذ يروي المؤرخون انه في سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، قامت في اقليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، قام بها أحد أفراد البيت الأموي الأندلسي ، ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبي ركوة . وكان قد خرج من الأندلس مظهراً التصوف ، واشتغل بتعليم الصبيان . ولما قوي أمره دعا على المنابر باسم الخليفة الأندلسي هشام المؤيد ، وكان يلعن الحاكم بأمر الله وآباءه ، واستولى على برقة ، وانتصر على الجيوش التي وجهها إليه الحاكم ، واستطاع في سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧م) أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم اخيراً وأسر [2] ،

(١) المقري : نفح الطيب حـ ١ ص ٣٨٣ .

(٢) يقال إن أبا ركوه فر إلى صعيد مصر حيث قبض عليه هناك الأمير أبو المكارم شيخ قبيلة ربيعة التي كانت تستوطن منطقة النوبة في جنوب مصر . وقد كافأه الخليفة الحاكم بأمر الله على ذلك بأن منحه لقب كنز الدولة . ثم توارث أمراء ربيعة هذا اللقب حتى عرف بنو ربيعة ببني كنز وهم الكنوز الحاليون في السودان .

وعرضه الحاكم في شوارع القاهرة عرضاً مزرياً اذ جعل وراء قرداً يصفعه على رأسه ثم قتله وصلبه [1] .

على أنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية ، وان كانت قد فشلت في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر ، إلا أنها تركت آثاراً سنية معادية للفواطم في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى . ويظهر ذلك جلياً في سياسة الملك المعز بن باديس الصنهاجي ، ملك الدولة الزيرية ، حينما فتك بالشيعة في ولايته ، وحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي السني سنة ٤٠٨ هـ ، ثم قطع الخطبة لخليفة مصر الفاطمي المستنصر بالله ، ودعا لخليفة بغداد القائم بأمر الله العباس سنة ٤٤٣ هـ[2] فاستقل بذلك سياسياً وروحياً عن الخلافة الفاطمية .

أعمال المنصور الادارية والمعمارية :

تكلمنا عن المنصور كرجل سياسي وحربي ، ولكن هناك ناحية أخرى امتاز بها المنصور وهي ناحية الادارة . فقد اثبت هذا الرجل انه إداري قدير يشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة . وهذا العمل استنفد منه وقتاً وجهداً كبيراً لدرجة أنه كان لا ينام إلا سويعات قليلة متفرقة . يروى في هذا الصدد أن أحد خدامه قال له ليلة طال فيها سهره : «قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم ، وهو يعلم ما يحركه عدم النوم من علة العصب » . فرد عليه المنصور : « إن الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة » [3] .

ومن المسائل التي اهتم بها المنصور كرجل اداري ، مسألة استتباب الأمن وضبطه في البلاد ، وبذلك قلت الجرائم والاضطرابات في عهده . وهناك قصص ونوادر كثيرة تروى عن المنصور في هذا الصدد ، وهي كلها تشهد بذكائه

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٣٠٥ .

(٢) راجع مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الا سلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧) .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٨ .

وبراعته وحزمه . من ذلك قصة تاجر الجواهر الذي أتى المنصور وعرض عليه بضاعته النفيسة ، فاختار المنصور بعضها وأعطاه صرة من المال ، ومضى التاجر إلى حال سبيله ، فمر على نهر وكان اليوم قائظاً ، فدعته نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه مع تلك الصرة على الشاطىء ، فمرت حدأة واختطفت الصرة تحسبها لحماً وطارت بها. فحزن الرجل على ضياع ماله وأصابته علة بسبب ذلك. ثم حل ميعاد دفع المال للتجار فلاحظ المنصور ما عليه التاجر من كآبة ومرض . فسأله عن حاله فأخبره بالحادثة ، فسأله المنصور عن الاتجاه الذي أخذه الطائر ، فقال : مر شرقاً على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك ، يعني منطقة الرملة . فأمر المنصور شرطيه الخاص باحضار شيوخ تلك الناحية . فلما حضروا سألهم بالبحث عمن تغير حاله من الاقلال إلى اليسر سريعاً دون تدريج . فتناظروا في ذلك ثم قالوا : « يا مولانا ! ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو واولاده بأيديهم ويتناولون السقي بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة ، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة » . فأمر بإحضاره من الغد ، وقال له : سبب ضاع منا وسقط إليك ، ما فعلت به ؟ فقال : هوذا يا مولاي ! واخرج الصرة بعينها وقال : لقد سقطت أمامي وأنا أعمل في جناني فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة دنانير ، وقلت أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فصاح التاجر وهو يكاد يطير فرحاً ، قد وهبتها له . فقال له المنصور نحن أولى بذلك منك ولا ننقص عليك فرحتك ، ولو كان قد بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره ، وللجنان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن افساد ما وقع بيده . وانصرف التاجر بماله وقد عاوده نشاطه ، وقال « والله لأبثّن في الأقطار عظيم ملكك ، ولأبيننّ أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها » [1] .

ناحية إدارية أخرى اهتم بها المنصور وهي إعادة تنظيم الجيش تنظيماً عسكرياً جديداً . وكان الجيش قبل عهده يتكون من نظامين :

---

(1) ابن عذاري : المرجع السابق ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

١ ــ نظام عسكري دائم منظم ينزل العاصمة ويتقاضى أفراده عطاء ثابتاً ، وتمثله فرقة الحرس النظامية المعروفة باسم الصقالبة .

٢ ــ نظام اقطاعي عسكري تمثله القبائل العربية والمغربية التي وزعت على الكور والمدن الاندلسية بعد الفتح العربي ، وأبيح لها حق استغلالها وجباية عطائها من أموالها ، في مقابل المساهمة في حروب الدولة كما هو معروف في النظام الاقطاعي الإسلامي أو الأوربي في العصر الوسيط .

ولما جاء المنصور بن أبي عامر ، رأى أن هذا النظام كفيل بأن يخلق الحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقواده ، كما حدث في هزيمة الخندق او شمنقه Simancas أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر . ولهـذا عول المنصور على تغييره بنظام آخر يجعل الجيش كله وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادته . فألغى العنصرية في ترتيب الجيش ، كما ألغى النظام الاقطاعي العسكري ، بمعنى أنه جعل الجيش كله جيشاً نظامياً دائماً ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة . وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلا من استغلاله للإقطاع كما كان الحال سابقاً .

ولقد أفاد هذا النظام الجديد في بادىء الأمر ، إذ زالت العصبية القبلية بين فرق الجيش ، واستطاع المنصور بن أبي عامر أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه ، وأن يحرز به انتصاراته الحربية المشهورة ضد الاسبان .

ولكن بعد موت المنصور وابنه المظفر ، دب الفساد في جسم الدولة ، فلم تستطع الحكومة دفع رواتب الجند ، فكثر شغبهم ، وانتقل الفساد اليهم ، فضعفوا وهزموا أمام العدو . وظل الحال على هذا النحو إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري ، فرأوا أن خير وسيلة لاصلاح حالة الجيش هي إعادة النظام الاقطاعي العسكري من جديد . وفي ذلك يقول المؤرخ الاندلسي المعاصر ابو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو

في ضعف وانتقاص ، لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يُرْبِي التاجر تجارته . وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافرة ، والأجناد متوافرين ، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدّم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم . واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا ، وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الأجناد ، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها . ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها المتلثمون (أي المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم [١] » .

ناحية إدارية اخرى اهتم بها المنصور وهي القضاء ، فقد أظهر صرامة شديدة في تنفيذ العدل ولو كان ذلك ضد اولاده وكبار رجال حاشيته . ومثال ذلك قصة محمد فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فإن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد فألفاه محبوساً في السجن لحيف ظهر منه على امرأته . فأمر المنصور باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يظل معه إلى أن يفرغ من عمله ثم يعيده إلى محبسه . وظن الفاصد أن صلته بالمنصور سوف تحميه من العقوبة ، فقطع المنصور عليه ذلك وقال له : « يا محمد ، إنه القاضي وهو في عدله ، ولو أخذني الحق ، ما أطقت الامتناع منه ، عد إلى محبسك أو اعترف بالحق ، فهو الذي يطلقك » . فانكسر الحاجم (أو الفاصد) ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته للقاضي فصالحه مع زوجه [٢] .

أما أعمال المنصور المعمارية فكثيرة ، منها القصر المعروف باسم المدينة الزاهرة ، وهي التي بناها المنصور سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) في شمال شرق قرطبة ، وهي تقابل مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في شمال غرب قرطبة . ولقد اندرست هذه المدينة الزاهرة بعد مدة قصيرة من بنائها خلال الثورات التي

---

(١) ابو بكر الطرطوشي : كتاب سراج الملوك ص ٢٢٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب حـ ٢ ص ٢٩٠ .

قامت ضد ولده عبد الرحمن بن المنصور المعروف بشنجول سنة ٣٩٩ ﻫ . ومن أهم أعمال المنصور أيضاً تلك الزيادة الأخيرة التي أجريت في جامع قرطبة على عهده . وقد جرت هذه الزيادة بطول المسجد من جهته الشرقية مما اضطر المنصور إلى هدم الدور والمنازل القائمة في هذه الجهة بعد تعويض أصحابها بدور مثلها أو بثمنها . وقد استخدم الأسرى الاسبان في بناء هذه الزيادة التي استغرق العمل فيها عامين ونصف ، وتمت في سنة ٣٨٠ ﻫ .

ومن منشآته ايضاً قنطرة قرطبة التي بناها على الوادي الكبير ٣٨٩ ﻫ ، وقنطرة استجه Ecija على نهر شنيل Genil وسط الجبـــال ، فسهلت الطرق الوعرة والشعاب الصعبة ، هذا إلى جانب الجباب والسبل لسقي الناس [١] .

ويفهم من روايات بعض المؤرخين ان سياسة التعمير والإنشاء التي سلكها المنصور ، لم تقتصر على بلاد المسلمين في اسبانيا فحسب ، بل شملت ايضاً بلاد النصارى التي غزاها المنصور ولا سيما القريبة منها للحدود الاسلامية . قال المؤرخ التونسي عبد الملك بن الكردبوس (ق ٦ ﻫ) :

« لما حضرت المنصور الوفاة بكى ، فقال له حاجبه كوثر الفتى : « مم تبكي يا مولاي ؟ لا بكت عيناك » . فقال : « مما جنيت على بلاد المسلمين ، فلو قتلوني وحرقوني ما انتصفوا مني » . فقال له : « وكيف ذلك ؟ وأنت أعززت الإسلام ، وفتحت البلاد ، وأذللت الكفر ، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قرطبة حين بنيت بها جامعها » . فقال له : « لما فتحت بلاد الروم ومعاقلهم ، عمرتها بالأقوات من كل مكان وسجنتها بها حتى عادت في غاية الامكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، فاتصلت العمارة . وهأنذا هالك وليس في بني من يخلفني وسيشتغلون باللهو والطرب والشرب [٢] ، فيجيء العدو فيجد بلاداً عامرة وأقواتاً حاضرة فيتقوى بها على محاصرتها ، فلا يزال يتغلبها شيئاً فشيئاً ،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ﺣ ٢ ص ٢٨٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٧٦ .

(٢) هذه الصفات تنطبق على ابنه عبد الرحمن المعروف بشنجول ، ولا تنطبق على ولده عبد الملك المظفر الذي خلفه في منصب الحجابة والذي كانت أعماله وسيرته موضع ثناء المؤرخين .

ويطويها طياً فطياً حتى يملك أكثر هذه الجزيرة ولا يترك فيها إلا معاقل يسيرة ، فلو ألهمني الله إلى تخريب ما تغلبت عليه واخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين وبين بلاد الروم ، مسيرة عشرة أيام فيافياً وقفاراً ، لا يزالون لو راموا سلوكها حيارى ، فلا يصلون إلى بلاد الاسلام إلا بعد الجهد والمشقة » . فقال له الحاجب «أنت إلى الراحة إن شاء الله أقرب ، فتأمر بهذا الذي رأيت » . فقال له هيهات ! حال الجريض [١] دون القريض ، والله لو استرحت ، وأمرت بما ذكرت ، لقال الناس : مرض ابن أبي عامر فأورثه مرضه جنوناً وهوساً تمكن من دماغه فخرب بلاد المسلمين وأجلاهم وأفقرها » [٢] .

هذه الرواية السابقة تبين أن المنصور لم يكن مخرباً بقدر ما كان معمراً لبلاد الأعداء المتصلة ببلاد المسلمين ، لدرجة أنه ندم على سياسته ذلك في آخر حياته ، وتمنى لو أنه كان قد خرب هذه البلاد وجعلها فاصلا قفراً بين بلاد المسلمين وبلاد الأعداء .

علاقات المنصور الدبلوماسية مع ملوك اوربا واسبانيا :

علاقة المنصور مع الدولة البيزنطية كان علاقة ودية تبودلت فيها الهدايا والرسل ، وهي السياسة التقليدية التي سار عليها أمراء وخلفاء قرطبه من قبل . وكان الامبراطور البيزنطي في ذلك الوقت هو بازيل الثاني Bazile II (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) الذي يعتبر عصره الطويل من أزهر عصور هذه الأسرة المقدونية الحاكمة .

كذلك كانت علاقته سلمية مع الامبراطور أوتو الثالث ملك ألمانيا وايطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة (٩٨٣ — ١٠٠٢ م) وكان هذا الامبراطور رجلا محباً للسلام مشجعاً للعلوم يجيد عدة لغات كالألمانية واللاتينية واليونانية . حاول ان يستعيد عظمة الامبراطورية الرومانية المقدسة كما كانت في عهد شرلمان ، ولكنه

---

(١) الجريض الغصه ، ويضرب هذا المثل للشيء الذي فات أوانه .

(٢) أحمد مختار العبادي : تاريخ الأندلس لا بن الكردبوس ووصفه لا بن الشباط ، صحيفة معهد مدريد المجلد ١٣ سنة ١٩٦٦ .

فشل ومات كمداً في سنة ١٠٠٢ م أي في نفس السنة التي مات فيها المنصور [١].

كذلك توطدت العلاقات بين المنصور وبين بعض ملوك اسبانيا ، مثل ملك نبره Navarra سانشو أباركا Sancho Garces II Abarca (٩٧٠ – ٩٩٥ م) . وقد تزوج المنصور ابنته التي اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبده ، وانجب منها المنصور ابنه عبد الرحمن الذي اطلقت عليه أمه اسم سانشويلو Sanchuelo أي سانشو الصغير ، ذكرى لأبيها خاصة وأنه كان أشبه الناس به ، وقد حرفت العامة هذا اللفظ إلى شنجول .

أما أقماط قشتاله ، فقد حكم منهم أيام المنصور اثنان وهما جارثيا فرنانديث Gracia Fernandez (٩٧٠ – ٩٩٥ م) ثم ابنه سانشو جارثيا Sancho Garcia (٩٩٥ – ١٠١٧ م) وكلاهما لقي الكثير من المتاعب والهزائم على يد المنصور . فالأول وهو الأب انتهت حياته بالأسر في معركة مع المنصور ثم حمل إلى قرطبة حيث مات ودفن هناك في كنيسة للمستعربين تعرف باسم القديسين الثلاثة ، ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى دير كاردينيا Gardena بقشتاله . أما الثاني وهو الابن ، فقد مني هو الآخر بهزائم عديدة واضطر آخر الأمر أن يعقد اتفاقاً مع المنصور ويزوجه اخته كما تشير بذلك الروايات المسيحية [٢] .

وفاة المنصور :

مات المنصور في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) وهو في سن الخامسة والستين ، وذلك أثناء رجوعه من حملة له على إمارة قشتاله . وتدعى بعض المصادر الاسبانية أن المنصور جرح في هذه الغزوة عند بلدة هناك في قشتاله تسمى قلعة النسور ، وأنه مات متأثراً بجراحه . وتستند هذه الرواية على مثل شعبي اسباني شائع يقول : En Calatanazor murio el Manzor y perdio al Tambor

(١) Augustin Feliche : La Chrétienté Medieval, Histoire du Monde, tome VII, p. 247 (Paris 1929).

(٢) Diccionario de Historia de Espana, tomo I, p. 1208.

ومعناه : في قلعة النسور مات المنصور وفقد طبله .

ولا شك أن وفاة المنصور قد أحدثت في الأوساط المسيحية موجة من الفرح والبشر بدليل أن الحوليات اللاتينية التي كان يكتبها الرهبان في الكنائس والأديرة ، قد اهتمت بتسجيل هذا الحادث ، فكتبت تقول : « وفي سنة ١٠٠٢ مات المنصور وذهب إلى جهنم » .

دفن المنصور بصحن قصره في مدينة سالم Medinaceli ، وقد نقش على قبره الأبيات التالية :

آثاره تنبيـــك عـــن أخبـــاره حتى ، كأنك بالعيـــون تـــراه

تالله مـــا ملك الجزيرة مثلـــه حقاً ولا قـــاد الجيوش سواه[1]

ومن الطريف أنه بعد أن زال ملك المسلمين من معظم أنحاء اسبانيا وانحصر في أقصى الجنوب في مملكة غرناطة ، بقي قبر المنصور معروفاً في مدينة سالم ، وزاره عدد من سفراء المسلمين وتجارهم الذين اتجهوا إلى هذه المنطقة لعقد صلح أو تجارة مع قشتالة . يقول الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب (ق٨هـ) في هذا الصدد : « وقبره هنالك معروف، أخبرني به بعض الطلبة ممن وجهته لتأكيد عقد الصلح مع قشتاله ، فدخل مدينة سالم في طريقه ، وقد اوصيته بذلك ، إلا أن رسومه من شعر منقوش وتاريخ مكتوب وأمرٍ منوهٍ به مفقودة . » [2]

٥ — أبناء المنصور بن أبي عامر :

ولي الحجابة بعد وفاة المنصور ابنه عبد الملك الذي تلقب بالمظفر سيف الدولة ، وأقره الخليفة هشام على ما كان عليه أبوه معه .

وقد افتتح عبد الملك عهده بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد ، ثم حرص على اظهار العدل ، وحماية الشرع ، ونصرة المظلوم ، وقمع أعداء الدين ،

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٨١ .

والتقرب من الأولياء والصالحين ، فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا في طاعته ، فانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتن .[١]

وقد سار المظفر على سياسة والده الجهادية ضد ممالك اسبانيا النصرانية ، فغزوا بلادهم سبع غزوات وأوغل في أراضي برشلونه وقشتباله حتى أجبرها على الصلح والمهادنة ، ولم يلبث ملوكها أن اعترفوا بسلطانه واحتكموا إليه فيما نشب بينهم من خلافات .

كذلك واصل عبد الملك سياسة أبيه في تعمير البلاد التي غزاها من أراضي العدو المتاخمة لحدود المسلمين ، فيقول ابن عذاري في هذا الصدد : « وعهد الحاجب المظفر وقت الفتح إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلاً ، ولا يهدموا بناء لما ذهب إليه من اسكان المسلمين فيه ، فشرع للوقت في اصلاحه ونادى في المسلمين : من أراد الاثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل ، وله مع ذلك المنزل والمحراث ! ، فرغب في ذلك خلق عظيم واستقروا به في حينهم . »[٢]

كذلك سار عبد الملك على سياسة أبيه الحازمة في العدوة المغربية مما جعل زعماء زناته يسارعون إلى مبايعته والدعاء له وللخليفة هشام المؤيد على المنابر . وقد كافأهم المظفر بأن استخدمهم في جيشه كما كافأ المعز بن زيري بن عطيه المغراوي بأن ولاه حكم المغرب[٣] بدلا من قائده واضح الصقلبي الذي أمره بالعودة إلى الاندلس .

كذلك اصطنع المظفر بني زيري بن مناد الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية في افريقية على عهد الفاطميين ، فانتقل فرع منهم برئاسة زاوي بن زيري إلى

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ﺣ ٣ ص ٧ .

(٣) راجع ظهير تعيينه في (السلاوي : الاستقصا ﺣ ١ ص ٢١٧ ؛ مفاخر البربر ص ٤٠) حيث يؤرخ صدوره بعام ٣٩٧ ﻫ .

الأندلس واستقروا بنواحي غرناطه .

على أن حكم عبد الملك المظفر لم يستمر أكثر من سبع سنوات ، إذ اصابته ذبحة صدرية أودت بحياته سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) .

ثم قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن الذي سمته العامة شنجول ، وكان شاباً مغروراً أحمقاً طائشاً ، طمع فيما بقي للخليفة الأموي من السلطة الروحية ، وأراد أن يستأثر لنفسه بالسلطة الشرعية في الدولة أي بالخلافة نفسها ، وكان الخليفة هشام رجلاً طيباً لا يرد طلباً ، فتقدم إليه عبد الرحمن وطلب منه بأن يعهد إليه بولاية العهد ، فوافق هشام ، وكتب عهداً بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن بن المنصور ابن أبي عامر» . (١)

ولما أن تم هذا التنازل حتى لقب عبد الرحمن نفسه بألقاب الخلافة مثل ناصر الدولة والناصر لدين الله تشبها بعبد الرحمن الناصر ، وتلقب كذلك بالمأمون وصار يختال في ثوب الخلافة ، ويتلقى التهاني في قصره بالزاهره .

---

(١) راجع كتاب العهد بالبيعة في (ابن الخطيب : أعمال الاعلام – القسم الثاني – ص ٩١ – ٩٢)

الفصل السادس

سقوط الدولة الأموية
وما ترتب عليه من نتائج

سقوط الدولة الأموية
وما ترتب عليه من نتائج

رأينا مما تقدم كيف استمرت الخلافة الأموية في الأندلس تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن جاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده ، فانتزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الأموي هشام المؤيد ، واستبدوا بالأمر على الخليفة الشرعي ، فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد ، ومثل اسرة بدر الجمالي التي سيطرت على الخلافة الفاطمية في القاهرة .

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الأموية بالأندلس ، لا سيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور في الخلافة نفسها ، وهو أمر خطير لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل .

ولقد هز هذا الحادث الدولة الأموية هزاً عنيفاً ، وعز على المضريين أن ينتقل العرش إلى اليمنيين [1] ، وأن تبتعد الخلافة عن قريش ، فانبعثت العصبية العربية القديمة ، وانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري

(١) سبقت الإشارة إلى أن العامريين كانوا من أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة معافر اليمنية ، وأنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا الأندلس صحبة طارق بن زياد .

في الشمال وقاموا بحركة قوية ، فخلعوا هشاماً عن العرش ، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه المهدي بالله .

ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن بن المنصور ، رجع من غزوة له في الشمال ، وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه ، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدي وجماعته ، وبموته تنتهي دولة بني عامر سنة ٣٩٩هـ . ويلاحظ أن نهاية هذه الدولة يدل على تعلق الناس بالخلافة وحرصهم على أن تكون من قريش . (١)

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس ، مليئة بالفتن والاضطرابات تصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة ، وخربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة . ويكفي للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس .

وفي سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة . وفي ذلك يقول ابن الخطيب : « ومشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ، ولا يكنفهم أحد » (٢) .

ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها ، وصيرورة الأمر شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة .

وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة (٣) .

---

(١) عبد الحميد العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٥٤ .
(٢) ، (٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام – القسم الخاص باسبانيا – ص ١٣٩ وما بعدها .

ولقد نتج عن سقوط الدولة الأموية . أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة ، واستقل كل أمير بناحيته ، وأعلن نفسه ملكاً عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف ، أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس [1] .

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس :

الحزب الأول : ويمثله أهل الأندلس ، وهم أهل البلاد الذين إستقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الأسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين ، بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلي أو الاسباني المسيحي وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة .

وكان من زعمائهم بنو عبّاد اللخميون [٢] في اشبيلية وبنو جهور في قرطبة وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى سرقسطة ، وبنو صمادح أو بنو تجيب في المرية ، وبنوا برزال في قرمونة ، وبنو خزرون في أركش ، وبنو نوح في مورور Moron وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية [٣] .. الخ .

أما الحزب الثاني فيمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالاندلس ولا سيما الصناهجة الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر . ومن زعماء هذا

---

(١) المرجع السابق ، هذا ويشير ابن سعيد المغربي إلى أن بعض هؤلاء الملوك خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة وأن بعضا آخر خطب للخلفاء العباسيين المجمع على امامتهم راجع (المقري : نفح الطيب حـ ١ س ١٩٨) .

(٢) يقول ابن خلكان إن ملوك بني عباد ينتسبون إلى النعمان بن المنذر اللخمي اخر ملوك الحيرة وأول من هاجر إلى الاندلس من أجدادهم هو نعيم وإبنه عطاف وكان في الأصل من أهل بلدة الدريش المصرية ثم انتقلا إلى الأندلس حيث إستوطنا أشبيلية .
راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٤ ص ١١٢ وما بعدها طبعة محي الدين عبد الحميد .

(٣) راجع (Henri Pérès : La poesie anadalouse en arabe) classique aux XI siècle p. 9 (Paris 1953).

الحزب بنوزيري الصنهاجيون في غرناطة وهم فرع من بني زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين ، وكذلك بنو حمود الادارسة الحسنيون العلويون ، وهم من سلالة الامير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد غمارة في شمال المغرب على شاطىء البحر المتوسط . وفي خلال الفتنة التي عمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الامير أبي حفص عمر وهو « علي بن حمود » وكان والياً على طنجة وسبتة ، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة وقتل صاحبها الخليفة الأموي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن « الملقب بالمستعين » وذلك سنة ٤٠٧هـ وأسس دولة الحموديين التي كانت قاعدتها مالقة [١] ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر في المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربري ومثال ذلك ما يرويه ابن الخطيب من أن علي بن حمود السالف الذكر كان بربري اللسان وأنه حينما قتل سليمان المستعين قال : لا يقتل الزلطان إلا الزلطان . [٢]

أما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبةالذين استقلوا بشرقالاندلس Levante وهؤلاء الصقالبة كانوا في الاصل رقيقاً أو عبيداً من سبي الشعوب السلافية الذين بيعوا إلى عرب الاندلس ، ولذا أطلق العرب عليهم إسم الصقالبة ثم توسع الاندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الاوروبية بما في ذلك شمال أسبانيا المسيحي . وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالا من الجنسين إلى قرطبة حيث ربي الذكور منهم تربية عسكرية اسلامية واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ثم تدرجوا في الرقي حتى صار منهم

---

(١) راجع (محمد الفاسي . الشريف الادريسي . المدوتان ، المجلد الأول ١٩٥٢) .
كذلك راجع (Louis Sceo de Lucena : Los Hammudies Sénores de Malagay Algeeiras, p. 11-21).

(٢) أي السلطان راجع (ابن الخطيب . الاحاطة بأخبار غرناطة لوحة ٣٦٥ (نسخة الاسلوريال) . أعمال الاعلام ص ١٤٨ — ١٤٩ القسم الخاص باسبانيا نشر ليفي بروفنسال) .

الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الأموية ، كما برز منهم الادباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية ، شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي قامت في قرطبة وسائر البلاد وتزعمهم خيران العامري رئيس حزب الصقالبة في العاصمة . وبعد سقوط الدولة الأموية ، تكونت من هذا الحزب الدويلات الاسلامية الصغيرة التي قامت في شرق الأندلس ، والتي كانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور بن أبي عامر وأبنائه . ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا في هذه المنطقة نذكر مجاهد العامري الذي استقل بدانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردانيا وسواحل ايطاليا وسيطرت أساطيله على غربي حوض البحر المتوسط [1]

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكة بسياج شرعي روحي ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره .

فبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول ، جاءوا بشخص فقير يسمى « خلف الحصري » كان يعمل حصرياً في مصنع للحلفا ، وكان شديد الشبه بالخليفة الأموي هشام المؤيد المشكوك في موته ، فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمناً إلى أن أظهر موته المعتضد بن عباد ونعاه إلى رعيته سنة ٤٥٥هـ واستظهر بعهد عهده له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأندلس . [2]

اما الحزب المغربي في الأندلس ، فقد تزعمته خلافة بني حمود مستندة

---

(١) أحمد مختار العبادي : الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ص ١٩٥٣)
وكذلك (كليكيا سارنلي : مجاهد العامري (القاهرة ١٩٦١) .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس) ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ نشر سعيد العريان ومحمد العربي العلمي)
ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١١٣

إلى أصلها العلوي الشريف . ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر ، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول . على أن نفوذ بني حمود في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت ، إلا أنه كان قاصراً على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أي في الجزء الجنوبي من الاندلس المجاور لممتلكاتهم في شمال المغرب ، ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم ، وصار كل واحد فيهم يدعى الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب خلافي مثل المهدي والعالي والمستعلي والسامي والمتأيد (١) .

ولم يلبث نفوذ بني حمود أن انتهى في الأندلس بأن استولى بنو زيري ملوك غرناطة على مالقة ، كما استولى بنو عباد على الجزيرة الخضراء فانتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلي في العدوة المغربية .

أما الفريق الثالث وهو الحزب الصقلبي ، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة في مملكته ، ونذكر على سبيل المثال أبا الجيش مجاهد العامري الصقلبي الذي أقام في مملكته بدانية والجزر الشرقية ، خليفة قرشياً من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطي ، ولقبه بالمنتصر بالله ، وأثبت إسمه في سكته وأعلامه سنة ٤٠٥هـ . ولكنه سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تآمر ضده أثناء غيابه في غزو جزيرة سردانيا . وقد لجأ المعيطي إلى مدينة بجاية بالمغرب الاوسط حيث اشتغل معلماً لصبيان البربر إلى أن مات سنة ٤٣٢هـ (٢)

---

(١) عبد الواحد المراكشي ؛ المعجب ص ٦٣ – ٦٨ ، ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٤٩ وكذلك .(Louis Seco de Lucena : Op. cit. ,p. 14 & Henri Peres : Op. cit., p. 10)

(٢) راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام ص ٢٥٢ – ٢٥٣ أحمد مختار العبادي الصقالبة في اسبانيا (مدريد ١٥٣) راجع لك كذلك

(F. Codera : Mochehid Conquistador de Cerdéna, Centenario della Nascita di Michele Amari, Vol. II, p 115-133, Palermo 1910).

وهكذا نجد أن الخلافة في الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وهذا يعتبر مظهراً من مظاهر الفوضى وعاملاً من عوامل الفتنة في تلك الفترة . وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين كانوا قد أجازوا تعدد الخلافة للضرورة والمصلحة وهي إتساع رقعه الاسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه ، إلا أنهم اشترطوا في ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعاً للتصادم والتشاحن ، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة ، ولكننا نرى أن الأندلس في هذه الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعي لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين في صقع متضايق الأقطار ، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب ، ولعل خير تعقيب على ذلك قول إبي محمد ابن حزم في هذا الصدد : « اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلها ، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وامارة المؤمنين وهم: خلف الحصري بأشبيليه على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنه من موت هشام وشهد له خصيان ونسوان ، فخطب له على منابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله ، ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء ، ومحمد بن إدريس خليفة بمقالقة وادريس بن يحي بن علي ببشتر » (١)

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عهدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم وفي القابهم ونعرتهم الخلافية وفي ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيرواني .

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

---

(١) راجع ابن الخطيب . أعمال الاعلام ص ١٤٢ — ١٤٣ كذلك يروي عبد الواحد المراكشي (المعجب ص ٦٣ — ٦٨) مثل هذه العبارة الساخرة بقوله .
وصار الأمر في غاية الا خلوقة (الا ضحوكة) والفضيحة . أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا في مثلها .

القابُ مملكةٍ في غير موضعِهـــا   كالهرِّ يحكي انتفاخاً صورةَالأسدِ [1]

هذا وقد بلغ من أمر تقليد هؤلاء الملوك لخلفاء الشرق أن بني حمود الادارسة في مالقة ، كانوا إذا حضرهم شاعر أو زائر كان عليه أن يتكلم معهم من وراء حجاب أوستر ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقوله الخليفة .

فيروي في هذا الصدد أنه لما حضر الشاعر ابن مَتاناً الأشبوني أمام الخليفة إدريس بن يحيى الحمودي وأنشده قصيدته النونية التي مطلعها :

وكـــأن الشمس لمّـــا أشرقـــت   فانثنت عنهـــا عيونُ النـــاظرين
وجهُ إدريس بن يحيى بن عـــلي   إبن حمودٍ اميـــــر المؤمنين

إلى أن قال :

أنظرونا نقتبس من نوركـــم   إنـــه مـــن نور رب العالمين

وعندئذ رفع الخليفة الحمودي السّتر بنفسه وقال : انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر . [2]

وهذا الحادث يرينا مدى الروح الديمقراطية التي ظلت تسود حكام الغرب الاسلامي رغم هذه القداسة المصطنعة التي حاولوا تقليد المشرق فيها .

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا الضعف السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف ، إذا بدول اسبانيا المسيحية في الشمال تعمل على توحيد قواها بمساندة فرنسا والبابوية . وتجدر الملاحظة هنا أن الخلافة الأموية في الأندلس، كانت طوال عهدها بمثابة المغناطيس الذي يسد أبواب جبال البرتات Pirineos في وجه أي تدخل أوربي يأتيها من هذه النواحي الشمالية . فلما زالت الدولة الأموية ،

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٩٨ ابن الخطيب : المرجع السابق ص ١٤ .
(٢) راجع (المقري نفح الطيب حـ ١ ص ١٩٩ – ٢٥٠ ابن الا بار الحلة السيراء حـ ٢ ص ٢٨ .

زال هذا المغناطيس ، وأخذ النفوذ الفرنسي بشتى صوره وأشكاله السياسية والثقافية والدينية يتغلغل في شمال اسبانيا باعثا فيها روحا صليبية جديدة ضد المسلمين . (١)

وكان من سوء طالع الأندلسيين في ذلك الوقت ، أنه كان يحكم اسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع ، وهو الملك الفونسو السادس ملك قشتالة الذي نجح في توحيد مملكتي قشتالة وليون وبسط نفوذه على الممالك الأسبانية الشمالية ثم توج مجده الحربي باحتلال طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م). وتمتاز هذه المدينة بموقع مرتفع يصعب على المرء ارتقاؤه ، ولكن سياسة الضعف التي اتبعها أميرها يحيى القادر بن ذي النون قد عجلت بسقوطها. ولم يلبث خط وادي التاجو Tojo بما فيه من مدن وقرى وضياع أن انهار بانهيار قاعدته الرئيسية ، إذ كانت مملكة طليطلة تحتل رقعة شاسعة في قلب اسبانيا على طول وادي التاجو من الشرق الى الغرب ، ومن أهم أعمالها مدينة سالم Medinaceli و وادي الحجارة Guadalajara ، ومجريط Madrid ، وقونكة Cuenca ، واقليش Ucles ، وطلبيرة Talavera وغيرها ، وتتوسط هذه المساحة الشاسعة العاصمة طليطلة على ربوة مرتفعة . ونظرا لمتاخمة حدود هذه المملكة بالحدود الأسبانية ، فقد اعتبرها المسلمون ثغرا أدنى للدولة الإسلامية الأندلسية على اعتبار أن مملكة سرقسطة التي تقع في شمالها على وادي الابرو Ebro هي الثغر الأعلى . ولهذا كان سقوط مدينة طليطلة في يد الاسبان كارثة كبرى للاسلام في الأندلس ، إذ احتل العدو هذه الأراضي الشاسعة التي امتدت جنوباً حتى جبال قرطبة Sierra Morena . وقد أطلق الأسبان على هذه المنطقة الجديدة المحتلة . اسم قشتالة الجديدة Castilla la Nueva

وواضح أن احتلال الاسبان لمملكة طليطلة قلب الأندلس ، كان معناه شطر بلاد المسلمين الى شطرين وتمزيق شملهم . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الشاعر الطايطلي أو محمد عبدالله بن فرج بن عزنون اليحصبي المعروف بابن العسال ، بقوله :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس   فما المقام بها إلا مــن الغلط

---

(١) انظر P Fray Justo de Urbel : Sancho el Mayor de Navarra P. 279 (Madrid 1950)

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط[1]

ولم يحاول الملك الفونسو السادس وهو في نشوة النصر أن يستمع إلى نصائح مستشاريه المستعربين الذين كانوا يؤمنون بالحضارة الأندلسية ، ويرون في الأندلسيين اخوانا وجيرانا لهم، ونذكر منهم المستعرب ششند Sisnando Davidez [2] الذي حاول اقناعه بضرورة اتباع سياسة متسامحة تقوم على التعايش السلمي مع جيرانهم، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، بل ما لبث هذا الملك أن طرده من بلاطه ، وأخذ في الوقت نفسه يستجيب لآراء مستشاريه الفرنسيين الذين حلوا في بلاده ونخص بالذكر منهم زوجته الفرنسية كونستانس [3] ، وصديقها أسقف طليطلة دون فرناندو ، وبعض القساوسة والرهبان الفرنسيين اتباع نظام كلوني[4] Cluny الذين انتشروا في شمال اسبانيا في ذلك الوقت وبعثوا فيها روحا صليبية جديدة ضد المسلمين . ولم يكن هؤلاء الفرنسيون يشعرون بمثل ما كان يشعر به الاسبان نحو مسلمي الأندلس، إذ لم تكن تربط الفرنسيين بالمسلمين تلك الروابط القديمة التي جمعت بين الأندلسيين والأسبان في الدم والجوار والأخذ والعطاء وفي تشابه الشعور والعادات ، بل كان هدفهم هو القضاء على جميع المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا .

وانقاد الملك الفونسو السادس لسياسة هذا الفريق الفرنسي ، فسارع بجيوشه نحو مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين وحاصرها بغية الاستيلاء عليها ، وفي الوقت نفسه أخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض ويغير على أراضيهم.

---

(١) راجع (ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص ١١٨)

(٢) انظر R. Menendez Pidal y E. Garcia Gomez : El Conde Mozarabe Sisnando Davidez y la politica de Alfonso VI con los reyes de Taifas. Al Andalus, Vol. XII 1947, fasc. I)

(٣) كانت هذه الأميرة تنتمي إلى آل كابيه ملوك فرنسا (اشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين جـ ١ ص ١٣٩) .

(٤) كلوني مدينة في فرنسا انشيء عندها دير كلوني للآباء البندكتين ومنه انبثقت نهضة دينية وثقافية في القرن الحادي عشر الميلادي لم تلبث أن عمت غرب أوربا وأخذت تحرض القوى المسيحية على خوض حرب صليبية ضد المسلمين .

ويطالبهم بالأموال كي يضعفهم حربيا واقتصاديا . ومما يدل على أطماعه وأهدافه التوسعية أنه اتخذ ألقـــابا لاتينية وعربية تعبر عـــن هذا المعنى مثل لقب Imprateur totius Hispaniae [1] أي الأمبراطور على جميع اسبانيا. ومثل اللقب العربي«ذو الملتين»(الاسلام والمسيحية).ويؤثر عن المعتمد بالله بن عباد ملك اشبيلية أنه حينما تسلم من الملك الفونسو السادس رسالة تحمل هذا اللقب الأخير ، شطبه بقلمه وقال للرسول غاضباً : « المسلمون أحق بهذا الاسم ...» [2] . وكيفما كان احتجاج المعتمد وغضبه ، فإن الحالة في الأندلس بلغت في ذلك الوقت أقصى درجات الضعف والفساد حتى خيل لبعض الأندلسيين أن العالم على وشك الزوال وأن الزمان على آخره . [3]

وتشاء الظروف في ذلك الوقت العصيب أن ينعم الله على المغرب الاسلامي بقوة فتية استطاعت أن توحد شمله وتنقذ الأندلس من سقوط محقق على يد الاسبان ، تلك هي قوة المرابطين الملثمين الصنهاجيين .

---

(١) انظر (Ramon Menendez Pidal : El Imperio Hispanico y los cinco Reinos P. 111)

(٢) راجع (كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول ص ٢٦ نشر علوش)

(٣) ابن عبدون : رسالة الحسبة ص ٢٥١

الفصل السابع

قيام دولة المرابطين

(٤٤٨ – ٥٤١ هـ – ١٠٥٦ – ١١٤٧ م)

قيام دولة المرابطين

(٤٤٨ - ٥٤١ هـ - ١٠٥٦ - ١١٤٧ م)

تعرضت دولة المرابطين لعداوات الكثيرين ممن جاؤا بعدها من الموحدين والأندلسيين الذين حملوا عليها حملة ظالمة كان الدافع إليها إما تعصبا دينيا أو مذهبيا ، وإما كراهة سياسية أو قومية ، فحاولوا النيل منها [١] ، وتبعهم في تلك الكراهية بعض المؤرخين المستشرقين المحدثين أمثال العالم الهولندي راينهارت دوزي الذي دفعه اعجابه بالمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف إلى كره خالعيهم المرابطين واتهامهم ظلما بالجهل والوحشية والقضاء على العلم والحضارة في الأندلس [٢] ، وقد تبعه في ذلك نفر من المؤرخين المعاصرين [٣] .

وعلى الرغم من الغموض الذي اكتنف نشأة هذه الدولة المرابطية ، وندرة

---

(١) راجع على سبيل المثال (البيذق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، حيث نجد بابا خاصا في ذكر مثالب المرابطين ؛ وكذلك عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ١٧٧ ؛ والشقندي في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس والتي هاجم فيها يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين متهماً اياه بالجهل . راجع (المقري : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٧٧ - ١٩٣) .

(٢) راجع مؤلفات دوزي ولا سيما كتابه الخاص بتاريخ بني عباد ملوك اشبيليه Loci Abbadides.

(٣) نذكر منهم المؤرخ الامريكي ارشيبالد لويس في كتابه القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٣٦٢ ترجمة احمد محمد عيسى .

المصادر التاريخية التي سجلت تاريخها بوجه عام ، فإن المحاولات التي اضطلع بها الباحثون المحدثون [1] من أجل كتابة تاريخ منصف لهذه الدولة المجاهدة ، تكشف لنا عن مآثر حميدة تملأ الصفحات الطوال بأحرف من نور . وحسبي في هذه الدراسة أن أقتصر على عرض مختصر لقيام هذه الدولة المجاهدة يتضمن مكان وزمان نشأتها والدوافع التي أدت إلى قيامها بدورها التاريخي الخالد .

يبدأ تاريخ المرابطين في جناح المغرب الأيمن ، في الصحراء الغربية صحراء شنجيط [2] أو ما يسمى اليوم بموريتانيا . في هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضا وماشية ونباتا ، والتي تحدها من الجنوب بلاد السودان حيث مملكة غانة الكبيرة ، وفي الغرب المحيط الأطلسي ، وفي الشرق نهر النيجر عندما يلتوي شمالا الى جهة تمبكتو ، وفي الشمال منطقة سجلماسة التي يقال لها اليوم تافيلالت [3] ، في هذه الصحراء كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية ، ومن أشهرها قبيلة لمتونة في شمـــال الصحراء ، وتليها جنوبا مسوفـــة ، ثم جدالة بالقرب من نهري السنغال والنيجر وساحل المحيط . وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط وكذلك الدولة الزيرية التي قامت في

---

(١) امثال حسين مؤنس ، ومحمود مكي ، وحسن احمد محمود ، وأوبثي ميراندا ، وبوسك فيلا وغيرهم

(٢) كلمة شنجيط أو شنقيط كانت تطلق في الأصل على قرية من قرى ولاية أدرار في موريتانيا . ومعنى شنجيط بالبربرية عيون الخيل ، ويقال انها بنيت من قديم في القرن الثاني الهجري ، ثم جددت في القرن السابع في موضعها الحالي . ولم يلبث اسمها ان اطلق على القطر كله وصار أهله يعرفون بالشناجطة . ومن الغريب ان الرحالة المسلمين الذين مروا بهذه البلاد مثل ابن بطوطه وليون الافريقي ، لم يذكروا اسم شنجيط في كتاباتهم مع أنهم ذكروا مدنا أخرى أقل منها شأناً . وما زالت مدينة شنجيط هي العاصمة الروحية للبلاد . أما العاصمة السياسية فهي مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسي . راجع (الشيخ ماء العيني الشنجيطي الشريف الادريسي . الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط ص ١١ ، محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا (الدار البيضاء ١٩٦٢) .

(٣) نلاحظ أن تافيلالت الحالية تقابل مقاطعة سجلماسة القديمة أما مدينة سجلماسة القاعدة فتقابلها اليوم مدينة الريساني .

غرناطة بعد سقوط الخلافة الأموية أيام ملوك الطوائف . غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية ، كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتلثم أو تتقنع ،ولهذا سميت بصنهاجة اللثام[1] . وقد اختلفت الآراء حول أصل هذه العادة ، وأغلب الظن أنهم أخذوها من زنوج افريقيا المجاورين الذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة عنهم [2] . يقول المؤرخ والجغرافي المعاصر أبو عبيد البكري : « وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب ، وهو فوق اللثام ، حتى لا يبـــدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ، ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا اذا تنقب ، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه ، لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك ألزم من جلودهم ».[3]

ويضيف صاحب الروض الهتون أنه الى جانب استعمال اللثام، كانوا يلبسون الغفائر [4] القرمزية اللون ، والعمائم ذات الذؤابات [5] . كذلك أشاد المؤرخون بشجاعة الملثمين في القتال ، فقال البكري في هذا الصدد : « ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف ،وهم يقاتلون على الخيل والنجب ، وأكثر قتالهم وهم راجلون على أقدامهم صفوفا ، بأيدي الصف الأول القنا الطوال للمداعسة والطعان ، ومايليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة ، يزرقها فلا يكاد يخطيء ولا

---

(١) مدحهم في ذلك الشاعر ابو محمد بن حامد بقوله :

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحيـــاء عليهـــم فتلثـــموا

راجع (المقري : نفح الطيب حـ ٤ ص ١٩٣)

(٢) انظر (André Julian : Histoire de l'Afrique de Nord, P. 77, Paris 1952)

(٣) البكري : المغرب في وصف افريقية والمغرب ص ١٧٠ . نشر دي سلان (الجزائر ١٩١١) هذا ، وما زالت قبائل الطوارق أو التوارجه في صحراء الجزائر يستعملون اللثام . ويقال انهم من قبيلة ترغة احدى قبائل الملثمين ، ويضمهم ابن خلدون في كتله البربر البرانس التي تنتمي اليها صنهاجه .

(٤) الغفارة : رداء واسع يلبسه الجنود عادة . وما زالت كلمة غفارة تستعمل في المغرب بمعنى السلهام . راجع (R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, II P. 218)

(٥) عثمان بن غازي : الروض الهتون في وصف مكناسة الزيتون ص ٦

يشوي [١] . ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت الراية منتصبة ، وأن آمالها إلى الأرض جلسوا جميعا ، فكانوا أثبت من الهضاب». [٢]

ولقد انتشر الاسلام بين هذه القبائل عن طريق السرايا العسكرية التي أرسلها حكام المغرب الأوائل إلى هذه المنطقة [٣] ، وعن طريق التجـــار المسلمين الذين كانوا يمرون عبر هذه البلاد في طريقهم الى السودان . ولكن على الرغم من ذلك ، ظلت هذه القبائل ضعيفة الاسلام ، متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجري (١١م) عندما حدثت فيها تلك الانتفاضة الدينية الاصلاحية التي ألفت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم على أسس دينية وأخلاقية صحيحة .

ويرجع الفضل في تحقيق هذه الوحدة السياسية والدينية ، إلى زعيم سياسي وهو الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي زعيم الملثمين ، وإلى زعيم ديني وهو الفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي [٤] . وكلا الرجلين — كما هو واضح من اسميهما — كانا من أصل صنهاجي .

وبداية هذه الحركة الاصلاحية ترجع إلى هذا الزعيم الجدالي ، الذي عز عليه أن يرى نفسه وقومه في حالة من الجهل والتأخر ، فترك بلاده وأخذ يطوف بالمراكز الثقافية بالمغرب العربي لعله يجد فيها من يتولى هداية قومه واصلاحهم . وفي مدينة القيروان التي كانت من أهم المراكز الثقافية في ذلك الوقت ، اتصل يحيى بن ابراهيم بأحد أقطاب المالكية وهو الفقيه أبو عمران الفاسي الغفجومي ، نسبة إلى بني غفجوم وهم فرع من قبيلة زناتة البربرية ، وان كان البعض ينسبه إلى قريش .

---

(١) أشوى السهم : أخطأه

(٢) البكري : المرجع السابق ص ١٦٦

(٣) راجع على سبيل المثال وصف الحملة التي أرسلها والى المغرب عبيدالله بن الحجاب بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، حفيد عقبة بن نافع إلى صحراء موريتانيا حتى أرض السودان . (ابن عبد الحكم : فتوح المغرب والاندلس ص٢١٨ نشر جاتو ، محمد النيفر : حسن البيان عما بلغته افريقية من السطوة والعمران ص ١٧٦ (تونس ١٣٥٣هـ)، سعد زغلول : تاريـــخ المغرب العربي ص ٢٥٠ القاهرة ١٩٦٥) .

(٤) نسبة إلى جزولة احدى قبائل صنهاجه .

ويفهم «من كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم»، عند الكلام على بيت بني ياسين ، أن أبا عمران هو الذي وضع الخطوط الأولى مع هذا الزعيم البربري لقيام دولة صحراوية على أسس دينية صحيحة كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة ، وفي ذلك يقول :

« ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن ابراهيم، ندبه الى قتال برغواطة وقتال زناتة على ما صدر مهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده يحيى بالنهوض الى ذلك». (1)

وتنفيذا لهذه الخطة ، أحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب وهو الفقيه وجاج بن زولو اللمطي ، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين . ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبدالله بن ياسين الجزولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم .

ولقد استطاع هذا الفقيه بفضل ذكائه واخلاصه وحزمه أن يخلق من قبـــائل الملثمين قوة دينية سلفية تقوم :

اولا : على الايمان الراسخ وإقامة شعائر الاسلام وفق ما جاء ت به السنة .

ثانيا : على التمسك بمذهب مالك بن أنس فيما يرجعون إليه من قوانين دينية ودنيوية . ويبدو أن عبدالله بن ياسين أراد أن يتوج أتباعه بتسمية تتفق مع تلك الأهداف السامية فسماهم بتلك التسلية الخالدة : «المرابطون».

---

(1) كتاب ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم لمؤلف مجهول نشر عبد القادر زمامة في مجلة البحث العلمي التي يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط (العدد الثالث ستمبر ١٩٦٤ ، والعدوان الرابع والخامس يناير — أغسطس ١٩٦٥) راجع كذلك (عبد القادر زمامه . ابو عمران الفغجومي في مجلة البينة عدد شهر يوليو ١٩٦٢) .

ولقد اختلف المؤرخون حول أصل هذا الاسم ، فهناك رواية صاحب كتاب روض القرطاس [١] وبعض من جاء بعده من المؤرخين أمثال ابن خلدون [٢] والسلاوي الناصري [٣] وتنص على أن عبدالله بن ياسين بدأ دعوته في الصحراء بدعوة من أمير قبيلة جدالة وهو يحيى بن ابراهيم الجدالي ، فذهب إلى ديارهم التي تلي ديار قبيلة لمتونة جنوبا وتجاور ساحل المحيط الأطلسي حتى مصب نهر السنغال ، وهناك في احدى جزر هذا البحر أو ذاك النهر ، بنى عبدالله بن ياسين رابطته ابتغاء العزلة والعبادة ، وصحبه في هذا المكان زعيم جدالة وبعض رجالها ، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين للزومهم رابطته .

وهناك فريق آخر من المؤرخين أمثال ابن عذارى [٤] ، وصاحب الحلل الموشية [٥] ، وصاحب كتاب مشاهير أعيان فاس [٦] ، يرون أن هذا اللقب أطلقه عبدالله بن ياسين على قبيلة لمتونة عقب معركة عنيفة انتصرت فيها لمتونة على قبائل من البربر على غير دين الاسلام [٧] .

واضح من هذه النصوص أن اسم المرابطين أطلق في بادىء الأمر على رجال قبيلة جدالة في الجنوب ثم أطلق بعد ذلك على رجال قبيلة لمتونة التي تقع في شمالها . ولا شك أن هذا التحول المفاجيء في سياسة عبدالله بن ياسين من جدالة الى لمتونة لم يأت عفوا ، وانما جاء نتيجة لمنافسة قديمة قامت بين هاتين القبيلتين حول زعامة صنهاجة .

---

(١) ابن ابي زرع : روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس حـ٢ ص ١٣

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر حـ ٦ ص ١٨٣

(٣) السلاوي الناصري : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى حـ ٢ ص ٧ — ٨

(٤) راجع القطعة الخاصة بتاريخ المرابطين من كتاب البيان المعرب لا بن عذارى والتي نشرها أويثى ميراندا في مجلة : (Hésperis — Tamuda, Vol. II, fasc. I, 1961)

(٥) الحلل الموشية ص ١١ نشر علوش .

(٦) كتاب مشاهير اعيان فاس نشر عبد القادر زمامة الأعداد ٣ ، ٤ ، ٥ (١٩٦٤ — ١٩٦٥)

(٧) يرى صاحب كتاب مشاهير اعيان فاس أن هذه القبائل المشركة كانت من برغواطة وان المعركة دارت بنواحي بلا د السوس وسجلماسة .

فالذي يبدو من كلام المؤرخين أنه بعد وفاة الزعيم الجدالي يحيى بن ابراهيم . أرادت قبيلة جدالة أن تعرض على قبائل صنهاجة أميرا آخر من جدالة خلفا له ، إلا أن عبدالله بن ياسين أبى أن يخضع لمثل هذه النزعة القبلية الضيقة ، كما أن الجداليين بدورهم عمـــدوا الى اهانته وهدم داره وطرده مـــن ديارهم [1] . عندئذ رأى عبدالله بن ياسين بثاقب بصره أن المستقبل للمتونة بحكم موقعها الجغرافي المتحكم في الطرق الشمالية المؤدية إلى المغرب ، وبحكم شجاعتها وشدة مراسها في القتال ، ولأنها كانت أكثر قبائل صنهاجة انقيادا له وأشدها طاعة لله تعالى . [2]

لهذا كله ، نقل عبدالله بن ياسين القيادة من جدالة إلى لمتونة . وقلد الأمير اللمتوني أبا زكريا يحيى بن عمر قيادة صنهاجة . ويبدو أن هذا التحول الخطير في سياسة عبدالله بن ياسين قد جلب عليه حقد قبيلة جدالة وأدى إلى خروجها عن طاعته ، يدل على صحة هذا الرأي هذه العبارة التي ننقلها عن البكري : «فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة ، وذهبوا الى ساحل البحر » [3] أي الى مقر ديارهم . واضطر عبدالله بن ياسين نتيجة لذلك أن يعتمد على قوة لمتونة وحدها في نشر دعوته.

ولقد عانت قبيلة لمتونة شدائد كثيرة في هذا السبيل ، واستشهد عدد كبير من رجالها ولاسيما في الموقعة الحربية التي أشرنا إليها من قبل والتي كان من نتائجها أن أعلن عبدالله بن ياسين أن المرابطين هم اللمتونيون لشدة صبرهم وحسن بلائهم ، [4] وكأنما أراد بهذا الإعلان أن يجرد جدالة من هذا اللقب لتقاعسها عن نجدته . وإن الأحداث التاريخية التي تلت ذلك لتؤيد هذا الرأي إذا علمنا أن قبيلة لمتونة هي التي تزعمت مهمة الغزو والجهاد في بلاد المغرب والأندلس ، وصار اسمها مرادفا لكلمة المرابطين ، [5] كما صار زعماؤها ماوكا لهذه الدولة المرابطية

---

(١) البكري : نفس المرجع ص ١٦٥ — ١٦٦

(٢) الحلل الموشية ص ١٠ ، القرطاس جـ٢ ص ١٦

(٣) البكري ص ١٦٧

(٤) الحلل الموشية ص ١١

(٥) راجع على سبيل المثال كتاب الحلل الموشية ص ١٥٢ حيث يقول . والمرابطون هم لمتونة

العظيمة . أما قبيلة جدالة فقد ظلت تعارض زعامة لمتونة وتحاربها بالقوة المسلحة مدة من الزمان . وقد وصف لنا البكري ذلك الهجوم العنيف الذي شنته قبيلة جدالة على جبل لمتونة في سنة ٤٤٨ هـ وما أسفر عنه هذا الهجوم من استشهاد الزعيم اللمتوني أبي زكريا يحيى بن عمر وعدد كبير من رجاله حتى قيل إن أصوات المؤذنين كانت تسمع في هذا الموضع في أوقات الصلاة ، ثم يضيف البكري عبارة لها مغزاها إذ يقول : « ولم تكن للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة». [(١)] ويفهم من هذه العبارة كما يفهم من النص في مجموعه أن قبيلة جدالة كانت خارجة على جماعة المرابطين. وقد يدفعنا هذا إلى القول بأن التفسير الحقيقي لكلمة المرابطين يبدأ منذ أن تولت لمتونة زعامة صنهاجة ، أي منذ أن صار هذا اللفظ لقباً يمنحه الزعيم لأتباعه بمعناه المجازي أي المجاهدين الصابرين في سبيل الله . أما التفسير الخاص بالرباط الذي بناه عبدالله بن ياسين في أرض جدالة ، فيبدو أنه قد فقد مدلوله بخروج جدالة عن طاعة ابن ياسين وجماعة المرابطين .

وكيفما كان الأمر ، فسواء أكان هذا المعنى المادي أو ذاك المعنى المجازي الروحي أو كلاهما معاً هو أصل هذه التسمية ، فالذي يبدو من سير الحوادث أن المرابطين قد تفهموا جيدا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة ، وتخموا من شأنها إلى درجة أنها صارت اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطي لأتباعه المجاهدين ، ليؤكد من جديد سنة أسلافه في إيثار الجهاد والرباط والذود عن الاسلام [(٢)] .

بهذه الرسالة الدينية السامية كان خروج المرابطين من الصحراء . بقيادةزعيمهم

---

(١) البكري : المرجع السابق ص ١٦٧ — ١٦٨

(٢) مثال ذلك عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ « وحين ملك يوسف بن تاشفين جزيرة الأندلس ، تسمى هو وأصحابه بالمرابطين » وقوله في ترجمة ابنه علي « وقام بأمره ابنه علي بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه بالمرابطين فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البــلاد . انظر كذلك مقالنا (دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية وأهميته في تاريخ تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان العدد الخامس سنة ١٩٦٠) .

الديني عبدالله بن ياسين ، وقائدهم الحربي أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي خلف أخاه الشهيد يحيى بن عمر اللمتوني في زعامة المرابطين .ويرى بعض المؤرخين أن السبب في خروجهم يرجع إلى عامل سياسي وهو قوة مملكة غانا في الجنوب واشتداد ضغطها على المرابطين الذين اضطروا أمام هذا الضغط إلى الاتجاه شمالا نحو المغرب . [1]

وهذا التفسير لا يتفق مع طبيعة الأحداث ، لأن مملكة غانا هي التي تعرضت في الواقع لضغط جيوش المرابطين منذ قيام دولتهم ثم لم تلبث عاصمتها مدينة غانا أن سقطت في يد أمير المرابطين أبي بكر بن عمر سنة ١٠٧٦ م (٤٦٨هـ) [2] كذلك يروي كثير من المؤرخين أن سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين في التحكم في طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الخصبة . ونحن لا ننكر دور العامل الاقتصادي في هجرات الشعوب ، إلا أن الاعتماد عليه وحده دون الالتفات إلى الدوافع الأساسية الأخرى ، لا يستقيم هنا في حالة المرابطين خصوصاً وأن الطريق التجاري الصحراوي بين أودغشت جنوباً وسجلماسة شمالا كان طريقاً معروفاً ومطروقاً من قديم ، وكذلك كانت قبائل صنهاجة تعيش في صحرائها من قديم ، وكثيراً ما قاست من أهوال الجدب والقحط وكونت أحلافاً اقتصادية فيما بينها ، الا أنها لم تقم بمثل هذه الهجرة الجماعية المنظمة إلى الشمال مما يدل على وجود عامل رئيسي جديد دفع بهذه القبائل إلى التكتل والاندفاع إلى خارج الصحراء شمالاً وجنوباً — وهذا العامل هو من غير شك : الاسلام [3] . فالمرابطون ، كما هو واضح من أسمهم ومن

(١) راجع على سبيل المثال (دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ص ٥٧) .

(٢) راجع ما كتبه الأستاذ قاسم الزهيري عن الممالك الاسلامية القديمة في افريقيا السوداء في مجلة دعوة الحق ، اعداد ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (١٩٦٢)

(٣) حاول المؤرخ الأمريكي ارشيبالد لويس في كتابه ؛ : القوى البحرية في حوض البحر المتوسط ص ٣٦٢ ربط هجرة المرابطين بهجرات السلاجقة الاتراك والعرب الهلالية ، على أساس أنهم جميعاً قبائل رحل خرجوا من صحاريهم في وقت واحد تقريباً ونتيجة لظروف سياسية =

أعمالهم ، كانوا قبل كل شيء أصحاب رسالة دينية يريدون تحقيقها وهذا هو السبب الأساسي في خروجهم من الصحراء شمالا نحو المغرب وجنوباً نحو السودان.

ولكن هل كان هناك ما يوجب الجهاد الديني في البلاد المغربية في ذلك الوقت ؟ الاجابة على هذا السؤال تقتضي الكلام عن حالة المغرب قبيل غزو المرابطين :

إن الذي يدرس حالة المغرب في أوائل القرن الخامس الهجري ، يجد أنه كان يعاني محنة سياسية ودينية . وقد أعطانا البكري صورة واضحة لموجة التنبؤ والشعوذة التي عمت جزءاً كبيراً من بلاد المغرب الأقصى في تلك الفترة . كما صور لنا ابن عذاري حالة الفوضى السياسية التي كان يعيشها المغرب بتلك العبادة المختصرة : « وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس [(١)] .

فابن عذارى قد شبه الحالة في المغرب بحالة الأندلس من حيث أن كلا من البلدين قد تحكمت فيه طوائف متعددة أو دويلات طائفية .

واذا نحن حاولنا استعراض هذه الطوائف المختلفة التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين ، نجد أنها كانت تنحصر في هذه القوى الأربع : [(٢)]

= أو اقتصادية أو مناخية ، وانتهى إلى اتهامه لهم بعدم تقديرهم للأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في البلاد التي اغاروا عليها ، وبأنهم كانوا مخربين لكل حضارة مستقرة . والواقع أن مثل هذا الحكم العام تعوزه الدقة العلمية والدراسة التحليلية المقارنة ، لأن كل شعب من هذه الشعوب له ظروفه وملابساته الخاصة به ولا وجه للمقارنة مطلقاً بين فساد العربان الهلالية مثلا وبين أعمال المرابطين الايجابية البناءة التي انقذت الاسلام في المغرب والأندلس من انهيار محقق .

(١) ورد هذا النص في القطعة الباقية من الجزء الخاص بتاريخ المرابطين من كتاب البيان المغرب بن عذارى نشرها المستشرق الأسباني أويشي ميراندا تحت عنوان :
Ambrioso Huici Miranda : Un Fragmeno inédito de Ibn Idari Sobrclos Almoravides, Hespéris Vol. 11. 1961. fasc. 1.

(٢) راجع مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد العشرون ١٩٦٦) .

(أولا) قبائل غمارة في الشمال .

(ثانياً) قبائل برغواطة في الغرب .

(ثالثاً) قبائل زنانة التي كانت تكون نطاقاً حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة .

(رابعاً) طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين في الجنوب .

أما عن الطائفة الأولى وهي قبائل غمارة، فكانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحي سبتة وطنجة غرباً ، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمَة الحالية شرقاً ، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس . وكانت غمارة فرعاً من قبائل مصموده ، ويفهم من كلام المؤرخين أن عدداً كبيراً منها قد انحرف عن الاسلام في القرن الرابع الهجري وظهر فيهم متنبؤون ومشعوذون ، كما قصدتهم الخوارج للمنعة في جبالهم . وفي ذلك يقول ابن خلدون وصاحب كتاب الاستبصار :

« كان غمارة هؤلاء ، عريقين في الجاهلية بل الجهالة ، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير ، وتنبأ فيهم انسان يعرف بحاميم بن مَنّ الله ، ولقب بالمفتري — وفي رواية أخرى بالمقتدي — ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى المفتري — والجبل الذي تنبأ فيه ينسب اليه ، وهو جبل حاميم على مقربة من تيطوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته ، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها ، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ووضع لهم قرآناً بلسانهم (أي البربرية). ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل انثى الخنزير ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء ، وحرم عليهم الحوت حتى يذكى ، وحرم بيض كل طائر .. الخ [1] .

---

(١) انظر (كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول ص ١٩٠ نشر الدكتور سعد زغلول (مطبوعات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) وكذلك ، ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ٢١٦) .

ولقد قتل هذا المتنبىء في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، بأحوار طنجة في حروب له مع قبائل مصمودة الساحل [1] على حد قول البكري وابن خلدون ، أو في حروب مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، على حد قول صاحب الاستبصار وصاحب مفاخر البربر [2] .

وعلى الرغم من انقضاء أمر هذا المفتري في القرن الرابع الهجري ، فانه يبدو أن بقايا بدعه وضلالاته ، قد استمرت في غمارة حتى مجيء المرابطين في القرن الخامس الهجري . فابن خلدون يشير إلى متنبىء آخر ظهر في غمارة بعد حاميم اسمه عاصم بن جميل البردعوي [3] . كذلك يفهم من كلام البكري الذي عاصر تلك الفترة ، أن أحد أولاد حاميم واسمه عيسى ، كان لا يزال مبجلا في قومه غمارة ، وأن الاباحية بين النساء كانت مطلقة وأن رجالهم كانوا يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفاير ، ويطيبونها ويتعممون بها .. الخ [4] فلو أن هذه البدع كانت قد انتهت قبل مجيء المرابطين لما فات البكري أن يشير إلى ذلك .

أما الطائفة الثانية فهي دولة برغواطة :

نشأت هذه الدولة أول الأمر في القرن الثاني للهجرة في اقليم تامسنا [5] أو ما

---

(١) ينسب اليها قصر مصمودة أو قصر المجاز أو القصر الصغير الذي بناه زعماء مصمودة بالقرب من طنجة على عهد طارق بن زياد ، وتقابله بلدة طريف Tarifa على الساحل الأندلسي المقابل ، والمسافة بينهما اثنا عشر ميلا .
راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٠ — ٢١١) ، البكري : المغرب في وصف افريقية والمغرب ص ١٠١ .

(٢) راجع (كتاب الاستبصار ص١٩١–١٩٢ ، كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٧٧) .

(٣) انظر (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٦) .

(٤) البكري : نفس المرجع السابق ص ١٠٠ — ١٠٢ .

(٥) تامسنا : كلمة بربرية ، بلهجة زناتة ، ومعناها البسيط الخالي ، وقد اطلقت على البسيط الممتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء الذي يسمى الآن بالشاوية ، وهو الآن تكسوه الزروع والعمارات ، ولكنه بالأمس كان ارضاً من سدرة وعليق ترعى فيها الأغنام . وقد سمى أحد أبواب مدينة الرباط بهذا الأسم (باب تامسنا) وهو الذي تمتد منه الطريق الذاهبة إلى الدار البيضاء ، وقد هدم اخيراً . ولا زال لفظ تامسنا يطلق في صحراء غدامس بمعنى الأرض القفر والبسيط الخالي . راجع (لاوست : لغويات ، مجلة المغرب ، عدد سبتمبر واكتوبر ١٩٣٦ ، السنة الخامسة) .

يسمى اليوم بالشاوية (١) . وهي الأراضي التي تبدأ من مكان مدينة الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها (٢) ، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع . ويروي ابن الخطيب أن هذه الدولة اتخذت في بعض الأوقات مدينة شالة عاصمة لها (٣) وهذه المدينة ، كما هو معروف ، مدينة قديمة مندرسة ، ما زالت أطلالها باقية خارج أسوار مدينة الرباط ، وقبالة مدينة سلا التي لا يفصلها عنها سوى وادي أبو الرقراق ولذا عرفت بشالة سلا (٤) .

ولقد اختلف المؤرخون حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد ، بل كان اسماً لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ، ادعى النبوة ، اسمه صالح ابن طريف بن شمعون البرباطي ، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس Rio Barbate فصارت كلمة برباطي تطلق على كل من اعتنق ديانته ، ثم حرفت إلى برغواطي (٥) .

ولقد كذب ابن خلدون هذا الرأي وقال بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأنها امتداد لقبائل غمارة المصامدة المجاورين لها ، وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب وليس من الأندلس ، واستند في ذلك إلى أن الملك والتغلب على النواحي والقبائل لا يتم إلا إذا كان الحاكم ينتسب إلى عصبية من قومه (٦) هذا ويرى ابن دحية نقلا عن أبي عبدالله القزاز اللغوي ، أن اسمها الحقيقي بلغواطة (بلام مفتوحة

---

(١) لما تلاشت برغواطة ، حل محلها العرب ولا سيما عرب سويد من رياح الهلاليين وذلك في أيام الدولة المرينية ، وسموا بعرب الشاوية نسبة إلى الشاه ، لأنهم كانوا يقودون رعاية أغنام وماشية الدولة المرينية . راجع (أحمد العبدي : آسفي وما اليه ص ٣٥) .

(٢) البكري : نفس المرجع ص ٨٧

(٣) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ص ١٨٤

(٤) المقري : نفح الطيب جـ ٨ ص ٣٢٢ . راجع كذلك : Henri Basset et Provençal · Chella, une Nécropole Merénide (Paris 1922).

(٥) راجع ابن الخطيب : القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ص ١٨٢ ، كتاب مفاخر البربر ص ٤٧ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « برغواطة » .

(٦) ان خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١٠

واسكان الغين) وأن العامة تقوله خطأ بالراء : برغواطة [1] . أما البكري [2] الذي كان معاصراً لهذه الدولة البرغواطية ، والذي استمد معلوماته عنها من تقرير كتبه سفير دولة برغواطة أبو صالح زمور البرغواطي عندما وفد على الخليفة الحكم المستنصر بالأندلس في منتصف القرن الرابع الهجري تقريباً (٣٥٢هـ) فيذكر أن مؤسس هذه الدولة هو طريف بن شمعون الذي نسبت اليه جزيرة طريف ، ولعله يقصد بذلك القائد طريف ابن مالك الذي مهد لطارق بن زياد غزو الأندلس بغارته الاستطلاعية على هذه المنطقة الأندلسية الجنوبية المعروفة باسمه إلى اليوم Tarifa . ثم يقول البكري ، ان طريفاً اعتنق الاسلام ومات على مذهب الخوارج ، وخلفه على حكم ولاية تامسنا ولده صالح بن طريف في القرن الهجري الثاني . وصالح هذا ، هو الذي تنبأ في قومه ، وشرع لهم ديانته الجديدة باللغة البربرية فزعم أنه صالح المؤمنين الذي ورد اسمه في سورة التحريم «وان تظاهروا عليه ، فان الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير» . وزعم كذلك أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال ، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه ، كذلك ذكر كلاماً كثيراً نسبه إلى موسى عليه السلام .

كما شرع لأتباعه صوم رجب وأكل رمضان .. وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين — بالاضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين . وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل ، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود ، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين وعند ابتداء الصلاة ، يضع الفرد احدى يديه على الأخرى ويقول بالبربرية ابسمن ياكش وتفسيره باسم الله ، ثم مقَّرْ [3] ياكش أي الله أكبر ، ويقولون في تسليمهم بالبربرية ايحن ياكش وردام ياكش أي الله أحد لا مثيل له .

---

(١) ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٨٨ – ٢٨٩ ، (القاهرة ١٩٥٤) ..

(٢) البكري : نفس المرجع ص ١٣٤ – ١٤١ .

(٣) يرى البعض أن هذه الكلمة من Maggor أو Mayor أي أكبر .

وقد وضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية في ثمانين سورة ، أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس .

أما من جهة تعاليمه المختلفة ، فيبدو أنها من آثار عاداتهم القديمة ، مثال ذلك أنه أباح لهم تزوّج النساء مما فوق الأربع ، وأباح لهم الطلاق ، وحرم عليهم زواج بنت العم وزواج المسلمات ، كذلك شرع قتل السارق ، ورجم الزاني ونفي الكاذب ، كما حرم رأس كل حيوان ، وحرم ذبح الديك ، والحوت أي السمك لا يؤكل إلا أن يذكى (أي يذبح) والبيض عندهم حرام ، وليس عندهم آذان ولا اقامة وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك ولذلك حرموها . إلى ذلك من التعاليم التي نجدها مفصلة في كتاب البكري [١] وهي في مجموعها تشبه إلى حد كبير ديانة حاميم المفتري في غمارة [٢] .

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أمثال نحوم سلوتش [٣] في مقاله عن امبراطورية برغواطة ، ودفردان [٤] في كتابه عن «مراكش» إلى أن دولة برغواطة كانت يهودية في أساسها واتجاهها ويستندون في ذلك إلى المؤثرات — اليهودية التي توجد في ديانتها مثل استعمال كلمة ياكش التي يرجعونها إلى يوشع النبي اليهودي ، ومثل تربية الشعور على شكل ضفاير ، على أنها عادة متبعة عند يهود بولونيا واليمن ، ومثل تحريم البيض ، والاعتقاد في تأثير اللعاب وهي عادة عند يهود طنجة ، ومثل تقديس الديك وهي عادة لا زالت رواسبها باقيــة في المناطق التي كانت فيها برغواطة مثل الشاوية ودكالة حيث يحتفل أهل البادية في بعض مواسمهم بدفن عظام الديك ، ومثل الاهتمام بموسى في تعاليمهم وتقديمه على

---

(١) راجع (البكري : نفس ص ١٣٤ — ١٤١ .

(٢) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر ٧٧

(٣) انظر (Nahoum Slouch : L'empire des Berghouata et les origines des Blad-es Siba) (بلا د السيبة

(٤) راجع Gaston Deverdun : Marrakech des Origines a 1912, P. 45 (Rabat 1959)

عيسى ، هذا إلى جانب أن مؤسس هذه الدولة يهودي الأصل من ولد شمعون كما أسلفنا .

ولا شك أن هناك تأثيرات يهودية واضحة في ديانة برغواطة ، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، أن التأثيرات الاسلامية أقوى وأوضح بحيث يمكن أن يقال إنها تقليد مشوه للاسلام في أسلوب وطابع محلي بربري .

ويبدو أن النزعات الاستقلالية والقومية التي انتشرت بانتشار مذهب الخوارج في المغرب ، قد جعلت بعض المتطرفين يتجهون إلى مثل هذا الاتجاه الديني المستقل عن الاسلام . وقد يدل على ذلك قول الرحالة البغدادي ابن حوقل الذي زار المغرب في القرن الرابع الهجري :

« وكان صالح بربري الأصل ، مغربي المولد ، ضليعاً بلغة البربر ، يفهم غير لسان من ألسنتهم ، فدعاهم إلى الإيمان به ، وذكر أنه نبي ورسول مبعوث اليهم بلغة البربر ، واحتج بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »، وأن محمداً عربي اللسان مبعوث إلى قومه . ثم يضيف ابن حوقل : « وفيهم (أي البرغواطيين) من يفهم القرآن ، ويحفظ منه السور إلى الآن ، ويتأول لآياته الموافقة لكتابهم وقراءتهم [1] .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهمنا في هذا الصدد هو أن هؤلاء البرغواطيين كانوا في نظر المسلمين مجوساً منحرفين مارقين عن الدين الحنيف ، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم . وتجمع المصادر التاريخية على أن جميع الملوك والحكام الذين تداولوا حكم المغرب قبل مجيء المرابطين ، كالأدارسة والأمويين والفاطميين والزيريين والزناتيين ، قد جاهدوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة حتى إنه ليخيل إلى القارىء أنه قد قضى عليها تماماً ، ولكننا مع ذلك نجد أن برغواطة

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك (صورة الأرض) ص ٥٦ — ٥٧ ، نشر دى خويه ، طبعة ليدن ١٨٧٣) .

ظلت باقية مستقلة ، بل كان خطرها يزداد شدة ، وحدودها تزداد اتساعاً على حساب المسلمين المجاورين لها .

ففي كتاب الاتحاف الوجيز لمحمدبنعليالدكالي [١] ، وكتاب آسفي وما اليه لمحمد بن أحمد العبدي [٢] ، نجد ما يفيد من أن الحدود الجنوبية لهذه الدولة قد امتدت جنوب الشاوية على طول سواحل المحيط الأطلسي حتى شملت أقاليم دكّالة وعبْده وغيرهـــا مـــن الأراضي الحوزية [٣] جنوبي آسفي ونواحي مراكش ، وأن هذه الدولة قد أرغمت أهالي تلك البلاد المسلمين على التدينبديانتها. فسفكت الدماء ، وخربت البلاد والمدن التي بين سلا وماسة .

ويؤيد هذا الكلام أيضاً ما رواه ابن الزيات التادلي عن رباط شاكر ، القائم حتى الآن بالقرب من مدينة مراكش في طريق الشماعية إلى شيشاوه ويسميه الأهالي هناك سيدي شيكر ، فيقول :

«ومنها سفرهم في كل رمضان إلى رباط شاكر الذي ذكر أنه من أصحاب عقبة بن نافع الفهري ، وأنه مات هناك ، وأن يعلي بن مصلين الراجراجي هو الذي بناه ، وكان يقاتل كفار برغواطة ، وغزاهم عدة مرات ، وأن طبله (وفي قراء أخرى طلله) هو الباقي الآن [٤] .

---

(١) محمد بن علي الدكالي السلاوي (ثوفي ١٩٤٥م) : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D. 1320

(٢) محمد بن أحمد العبدي الكانوني : آسفي وما اليه ص ٧٨ — ٧٩.

(٣) بلاد الحوز هي المناطق الخصبة التي تحد بوادي أم الربيع ودكاله وعبده والأطلس ، ويشقها نهر تانسيفت والأودية المتفرعة منه . وقد قسم الجغرافيون بلاد الحوز إلى حوز غربي وأوسط وشرقي . ومن عواصم الحوز القديمة ، اغمات ونفيس ، اللتان اندرستا بعد بناء وازدهار مدينة مراكش (٤٦٢هـ — ١٠٧٠م) .

(٤) انظر (أبو يعقوب يوسف التادلي المعروف بابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٦ ، نشر ادولف فور ، الرباط ١٩٥٨) ، راجع كذلك (عبد الحي الكتاني : اشرف بقعة وأقدس — بناحية مراكش ، مجلة المغرب ، السنة الخامسة ، يونيو — يوليو ١٩٣٦) .

وهذا النص يبين أن رباط شاكر كان مركزاً حربياً لجهاد برغواطة التي امتدت حدودها جنوباً إلى نواحي مراكش . وما يقال عن رباط شاكر يقال أيضاً عن رباطات ماسة وفوز ونفيس التي انتشرت – كما يقول البكري – على سواحل هذه المنطقة الجنوبية[1] .. كذلك يذكر الرحالة ابن حوقل أن أمير سجلماسة «تافيلالت الحالية» محمد بن الفتح بن مدرار الذي رفض مذهب الخوارج وتلقب بالشاكر لله ، قد أخذ يدعو قومه إلى جهاد برغواطة في منتصف القرن الرابع الهجري ، إلا أنه لم يصل إلى غرضه لأن الفاطميين أسروه ثم قتلوه عندما استولوا على سجلماسة بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٤ هـ [2]

هذا إلى جانب ما ذكره صاحب كتاب مشاهير أعيان فاس من أن البرغواطيين في أوائل القرن الخامس الهجري كانوا يعيثون فساداً في بلاد السوس وسجلماسة وأن الملثمين اللمتونيين خاضوا معهم في تلك الأماكن معركة فاصلة سموا على أثرها بالمرابطين [3]

كل هذا يبين لنا مدى تغلغل الخطر البرغواطي في هذه النواحي المغربية الجنوبية. أما عن الحدود الشمالية لهذه الدولة، فالمعروف في كتب التاريخ ، انها كانت تصل إلى قرب موضع مدينة الرباط ، العاصمة الحالية للمملكة المغربية .

وواضح من اسم هذه المدينة وتاريخها أنها كانت في الأصل رباطاً لجهاد برغواطة وفي ذلك يقول ابن حوقل في القرن الرابع الهجري :

« من وراء وادي سبو [4] إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد [5] وادي

---

(١) البكرلا : نفس المرجع ص ٨٦ ، ١٦٠ ، ١٦١

(٢) ابن حوقل : نفس المرجع ص ٥٧ – ٤٨ ، راجع كذلك (البكري ص ١٥١ ، ابن خلدون العبر ج ٦ ص ١٣٢) .

(٣) راجع (مجلة البحث العلمي ، العدد الثالث ، سبتمبر – ديسمبر ١٩٦٤ ص ٣٤) .

(٤) وادي سبو Sbou من أعظم الأودية بالمغرب ، ينبع من جبل أطلس المتوسط وتتفرع منه عدة أودية تسقي نواحي فاس ومكناس ومنطقة الغرب ، ويصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة المهدية الحالية بعد مروره بالقنيطرة ، وطوله حوالي ٦٠٠ كيلومتر ، وتعاني البلاد من كثرة فيضاناته.

(٥) هي المسافة التي كان يقطعها عامل البريد ، وقد قدرها الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أي أن البريد هو مسافة اثنى عشر ميلا تقريباً

سلا[1] ، اليه تنتهي سكنى المسلمين ، وهي رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعني شالة) قد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف [2] بها ، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطة ، وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي شفّت [3] عمارة بلد الاسلام اليها [4] .

على أن تحديد ابن حوقل لموضع مدينة الرباط ، كحد فاصل تنتهي عنده عمارة الاسلام ، لم يحل دون تغلغل نفوذ البرغواطيين وراءه نحو الشمال .

فابن الخطيب يشيرّ إلى أن البرغواطيين اتخذوا من شالة عاصمة لهم في بعض الأوقات [5] كذلك نجد في كتاب اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة

---

(١) المراد بوادي سلاهنا هو الوادي الصغير الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط ، وهو المعروف الآن بوادي أبي الرقراق (بورحرج) ويصب في المحيط الأطلسي . وأبو الرقراق تسمية حديثة ذكرها الحسن الوزان (ليون الافريقي) في القرن السادس عشر الميلادي في كتابه المعروف بوصف افريقيا الذي كتبه بالايطالية ثم ترجم إلى معظم اللغات ما عدا العربية للأسف . أما الجغرافيون والمؤرخون القدماء فقد أطلقوا على هذا الوادي عدة أسماء مثل وادي الرمان ووادي الغيط ووادي أسمير ووادي سلا راجع (من الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٨٥ حاشية ١ ، ٢) نشر أحمد مختار العبادي .

(٢) يفهم من هذا النص انه كان يوجد في هذه المنطقة ، رباطان متجاوران يفصل بينهما وادي سلا أو أبو الرقراق الحالي ، أحدهما كان في مدينة سلا الحالية ، والثاني كان في مواجهتها في مكان مدينة الرباط الحالية بجوار اطلال شاله . ومن المعروف أن الموحدين هم الذين حولوا هذا الرباط الأخير إلى مدينة عامرة أسموها رباط الفتح ، إذ كانت جيوشهم تتجمع فيها لتجهيزها وتموينها قبل أن تتجه إلى أسبانيا برسم الجهاد والفتح . حول تاريخ هذه المدينة التي أصبحت عاصمة للمملكة المغربية راجع . أبو عبد الله بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) راجع كذلك : (J. Caillé : La Ville de Rabat, 3 tomes (Paris 1945). وأيضاً (محمد بن علي الدكالي السلاوي : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز ، مخطوط بخزانة الرباط رقم D. 1320)

(٣) شفت بمعنى قلت أو حفت أو انتهت .

(٤) راجع (ابن حوقل : صورة الأرض جـ ٢ ص ٥٦ (نشر دي خوية ، ليدن ١٨٧٣)

(٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام : القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

مكناس، للمولى عبدالرحمن ابن زيدان ، مايفيد بأن أمراءبرغواطة قد امتدنفوذهم إلى شمال الرباط وأنهم استولوا على مدينة المعمورة (١) (المهدية الحالية) من أيدي بني يفران الزناتيين حكام سلا ، وأنهم خربوها فيما خربوه من المدن (٢) .

أكثر من ذلك ، إذا نحن صعدنا شمالا إلى منطقة سبتة وطنجة ، نجد أن هذه البلاد كان يحكمها بعض مماليك الحموديين ، الذين كانوا في الأصل من سبي برغواطة ثم ولاهم الحموديون بعض أعمالهم في سبتة ، فانتهز أحدهم واسمه سقوت أوسواجات البرغواطي ، فرصة ضعف الحموديين ، واستبد بحكم سبتة ، وعين ولده الحاجب ضياء الدولة على طنجة ، وطرد الحموديين من هذه المنطقة ، ولم تلبث قبائل غمارة أن دانت له بالطاعة (٣) .

ويحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت ثمة علاقة بين هذه الامارة البرغواطية الشمالية وبين دولة برغواطة التي كانت في جنوبها ؟

النصوص القليلة التي لدينا في هذا الصدد تربط بين هاتين الدولتين وتؤكد وجود اتصال بينهما ومثال ذلك قول صاحب كتاب مفاخر البربر .

« وكان ظهور برغواطة في سنة ١٢٥ ﻫ في خلافة هشام بن عبد الملك ، ولم يزل الملك فيهم إلى أول ظهور الملثمين وخروجهم من الصحراء وآخر ملوك برغواطة هو الحاجب البرغواطي ضياء الدولة صاحب سبتة وطنجة (٤)

كذلك يقول ابن خلدون حين يصف شعوب تلك المنطقة :

---

(١) مدينة المهدية الحالية بالمغرب الأقصى كانت تعرف قديماً بحلق الوادي (سبو) أو المعمورة ثم سميت بالمهدية أيام المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢ ﻫ (١٦٨١م) عندما ضيق على الجيش الأسباني المرابط فيها ، فخرج اليه قائد الجيش مستسلماً وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها المهدية . والمدينة تقع على ساحل المحيط عند مصب وادي سبو بالقرب من القنيطرة .

(٢) راجع (عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج ٢ ص ٧٢ ، الرباط ١٩٣٠)

(٣) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٢٢١) .

(٤) كتاب مفاخر البربر ، نشر ليفي بروفنسال ص ٤٧ .

« ويعضد ذلك اتصال مواطن غمارة بمواطن برغواطة من شعوب المصامدة على ساحل البحر الغربي وهو المحيط » (1)

كل هذا يفهم منه أنه كان هناك استمرار أو اتصال سياسي بين الدولتين وان كنا نشك في أن يكون سقوت البرغواطي وزملاؤه قد اتبعوا ديانة برغواطة المارقة بحكم اتصالهم بالحموديين الأشراف الأدارسة منذ صغرهم ؛ وقد يؤيد ذلك ما رواه ابن عذاري من أن سقوط البرغواطي ، طلب من أبي الوليد بن جهور أمير قرطبة قارئا للقرآن . فعلق ابن جهور على هذا الطلب بقوله : « جاهل يطلب قارئا » ثم وجه إليه قارئا من طلبة قرطبة اسمه عون الله بن نوح(2) .فهذه العبارة وإن كان فيها شيء من الاحتقار بشخصية سقوت إلا إنها لا تنكر كونه مسلما .

ولكن على الرغم من ذلك فان معظم المؤرخين قد أجمعوا على أن سقوت البرغوطي كان رجلا مفسداً على غرار أسلافه البرغواطيين ، وأن أساطيله قد عاثت فساداً في مضيق جبل طارق ، وأضرت بمصالح المسلمين في منطقة العدوتين ، ومثال ذلك قول بن بسام : « ... من رجل استعان بالشر ، وتهاون بالأمر ، لاسيما في البحر ، فانه أضرم بلجحه ناراً ولقى ريحه إعصارا أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف إلى كُلٍّ رعباً ، فضحت منه الأرض والسماء ، والتقت الشكوى عليه والدعاء ... إلى أن أذن الله لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين .... الخ (3) .

مما تقدم نرى أن المغرب في هذه الفترة التي سبقت مجيء المرابطين ، كان يعاني محنة كبيرة من جراء هذه الدولة البرغواطية التي يبدو أن خطرها كان أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ ، خصوصا بعد أن تبين لنا اتصالها وتعاونها مع قبائل غمارة في جبال الريف .

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٦ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(2) ابن عذارى : البيان المغرب ج/٣ ص ٢٥٠ ، نشر بروفنسال (باريس ١٩٣٠) .

(3) نقل هذا النص ، صاحب مفاخر البربر ص ٥٥ — ٥٦ .

الطائفة الثالثة وهي الدول الزناتية :

ونعني بذلك قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفران وغيرها من القبائل الزناتية التي تداولت حكم المغرب قبل مجيء المرابطين . وهذه الدول الزناتية ، كانت في نظر المؤرخين ، ولاسيما بعد زوال نفوذ الأدارسة ، هي القوة الشرعية الحاكمة في المغرب على اعتبار أنها كانت سنية مسلمة .

وعلى الرغم من المنازعات والمنافسات الداخلية التي قامت بين هذه القبائل الزناتية فانها قامت بدور ايجابي فعال في جهاد برغواطة ، ونلاحظ ذلك بوضوح من المواضع أو المراكز التي استقرت فيها هذه القبائل الزناتية ، إذ نجد أنها كانت تكون نطاقاً أو تضرب حصاراً حول التكتلات السابقة ولا سيما برغواطة . ومن أهم تلك المراكز الزناتية نذكر :

إمارة سلا وكان يحكمها بنو يفران ، وفاس وتحكمها مغراوة ، وتادلا ويحكمها بنو يفران واغمات وتحكمها مغراوة ، ثم سجلماسة في أقصى الجنوب ويحكمها بنو خزرون المغراويون . وكانت إمارة سلا في أيام أميرها أبي الكمال تميم اليفراني — في أوائل القرن الخامس الهجري — من أشد الامارات وطأة على برغواطة . يروي صاحب القرطاس والسلاوي الناصري في هذا الصدد : « وكان أبو الكمال تميم اليفراني ، مستقيما في دينه ، مولعاً بجهاد برغواطة ، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي سنة ثمان وأربعين واربعمائة وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، قتل ابنه في حرب لمتونة ، فجاؤا به ليدفنوه إلى جانب قبر ابيه تميم . فسمعوا من قبره تكبيراً وتشهدا كثيرا ، فنبشوا قبره ، فألفَوْه لم يتغير منه شيء ، ثم رآه بعض قرابته في النوم ، فقال له : ما هذا التكبير والتشهد الذي سمعناه من قبرك قال : تلك الملائكة ، وكلهم الله بقبري ، يكبرون ويهللون ويسبحون ، ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيامة . قال وبم نلت ذلك ؟ قال بجهادي برغواطة [1] . هذا الرواية وان

---

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ/١ ص ٢٢١

كانت تتسم بطابع قصصي ، الا أنها تبين أن حرب برغواطة كانت في نظر المسلمين واجباً دينياً وجهاداً في سبيل الله .

وعلى الرغم من تلك الجهود الطيبة التي قامت بها بعض هذه الدويلات في جهاد برغواطة ، إلا أنها كانت عاجزة تماما في القضاء عليها ، وصار الأمريتطلب قوة أخرى جديدة تحل محلها في هذا الميدان الذي أخفقت فيه .

الطائفة الرابعة من روافض الشيعة والوثنيين :

هذه الطائفة عبارة عن أقليات مبعثرة من روافض الشيعة والوثنيين الذين استقلوا بحكم بعض النواحي في أقصى جنوب المغرب في بلاد السوس .

اما الشيعة ، فقد انتشروا بصفة خاصة في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا يعرفون باسم البجليين [1] . وقد اختلفت الآراء حول مذهبهم وتاريخ تشيعهم : فصاحب القرطاس ومن نقل عنه مثل السلاوي الناصري ، يرون أن هؤلاء الشيعة كانوا اسماعيلية وأنهم ينتسبون إلى علي بن عبدالله البجلي الرافضي الذي نزل بلاد السوس أيام حركة الخليفة عبيدالله المهدي بافريقية ، وهناك في بلاد السوس نشر مذهب الرافضة وتوارثوه عنه جيلا بعد جيل [2] . أمـــا ابن حوقـــل وكذلك الادريسي ، فيذكران أن هؤلاء الشيعة كانوا موسوية أي اثنا عشرية يقولون بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ولا يعترفون بامامة أخيه اسماعيل أمـــــام الاسماعيلية . ويضيف ابن حوقـــل أن هؤلاء الشيعـــة كانوا ينتسبون إلى رجل يدعى محمد بن ورصند البجلي ، وأنهم كانوا على عداء مع جيرانهم المالكية في السوس ، وأن القتال والثأر متصل بينهم ليلا ونهاراً ، وأنه كان لهم مسجد واحد يصلي فيه الفريقان فرادي ، فاذا صلى هؤلاء أتوا هؤلاء وهكذا ، ثم يصف ابن

---

(١) قال القلقشندي في كتابه نهاية الأرب في معرفة انسياب العرب ص ١٧١ : وبنو بجلة بفتح الباء واللام وسكون الجيم بينهما ، بطن من بهثة (بضم الباء) العدنانية . وبجله أمهم نسوا اليها وهي بجلة بنت هناءة بن مالك بن فهم الأزدى . والنسبة اليهم بالتسكين .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ح ٢ ص ٢١ ، السلاوى : الاستقصا ح ٢ ص ١٣

حوقل طباع هؤلاء القوم سواء أكانوا مالكية أو موسوية فيرميهم بالجهل والجفاء وغلظ الطبع .. الخ (١) .

أما البكري وابن حزم ، فروايتهما تناقض هذه الروايات السابقة من حيث المذهب. فيقولان بأن هذه الطائفة كانت تنسب إلى رجل من أهل نفطة من أعمال قفصة جنوبي تونس ، يسمى الحسن بن علي بن ورصند البجلي ، وأن هذا الرجل رحل إلى بلاد السوس قبل وصول ابي عبدالله الشيعي الداعي إلى افريقية وان مذهبه كان شبيهاً بمذهب الروافض ، إلا أنه كان يقول بأن الامامة لا تكون الا في سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب وليس الحسين كما تقول الاسماعيلية والاثنا عشرية ولهذا كانت أمامة البجليين في سلالة الأدارسة . وقد رماهم ابن حزم بالكفر والالحاد (٢) أما الرحالة المقدسي ، فانه انفرد برواية خاصة سمى فيها هذه الطائفة بالأدريسية وقال إن مذاهبهم كانت قريبة من مذهب القرامطة ، ثم ربط بين المعتزلة والشيعة وقال بأنهم جميعاً يقولون بمذهب الاسماعيلية (٣) .

ومهما يكن من شيء ، فان اختلاف المؤرخين حول تحديد مذهب هذه الطائفة ، لم يحل دون اتفاقهم جميعاً على أن هؤلاء البجليين كانوا من روافض الشيعة وأنهم كانوا أعداء ألداء للمذهب السني في المغرب .

أما من جهة العناصر الوثنية التي كانت أيضاً تقيم في تلك الجهات الجنوبية ،

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٦ — ٦٦ الادريسى : وصف أوريقيا الشمالية والصحراوية (من كتاب نزهة المشتاق في احتراق الآفاق) نشر هنري بيريس ص ٣٩ الجزائر سنة ١٩٥٧) .

(٢) البكرى : المغرب في وصف افريقية والمغرب ص ١٦١ ، نشر دى سلان (الجزائر ١٩١١) ابن حزم : كتاب الملل والنحل حـ ٤ ص ١٨٣ .

(٣) راجع (المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٨ (نشر دى خوية ١٨٧٧) هذا وقد أشار اليعقوبي والا دريسي الى أن مملكة الأدارسة كانت موطناً للاعتزال وأن عبدالله والد المولى ادريس ، كان يعتبر من الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة ، وأن قبيلة أوربه التي ساندت المولى ادريس كانت تدين بالا عتزال راجع مقالنا (الموحدون والوحدة الاسلا مية في مجلة التربية الوطنية المغربية العددان ١ ، ٢ ، مارس ، ابريل ١٩٦٢) .

فمرجعنا فيها هو كتاب البكري الذي أشار إلى قبيلة مجاورة للبجليين ، كانت تقيم في جبل وعر بنواحي الأطلس الكبير ، وكان أفرادها يعبدون الكبش ، ويتسترون عند دخول الأسواق (١) . ومن المعروف أن الكبش كان الها في مصر الفرعونية ويسمى بالاله خنوم ، فهل هذه العبادة كانت من رواسب مؤثرات مصرية قديمة ؟

من هذا العرض العام لهذه الدويلات الطائفية ، يتبين لنا أن المغرب في ذلك العهد ، كان يعاني محنة دينية وسياسية خطيرة ، وأنه كان في حاجة إلى معجزة تنقذه من هذا الموقف العصيب ، وهنا يأتي دور المرابطين . ولا شك أن المرابطين كانوا على علم تام بخطورة الحالة في المغرب ولاسيما بخطورة برغواطة ، أقوى دولة طائفية في المغرب في ذلك الوقت . وقد سبق أن أشرنا إلى أن شيخ المالكية بالقيروان أبا عمران الفاسي ، جينما رسم خطة قيام دولة الملثمين مع زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالي أوصاه بحرب برغواطة بصفة خاصة . وقد يؤيد ذلك أيضاً أن الفقية الذي أختير لمهمة هداية الملثمين وتوحيد صفوفهم وهو عبدالله بن ياسين ، كان على علم تام بأحوال برغواطة قبل دخول الصحراء ، وقد وصف ابن عذاري رحلة هذا الفقية في بلاد المغرب وصفا مدعما بالأرقام ، وأغلب الظن أنها كانت رحلة استطلاعية تتعلق بالمهمة التي وكلت اليه ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : « ثم نزل عبدالله ابن ياسين بلاد المغرب الأقصى فمر بتامسنا ، فوجد فيها أمما لاتحصى ، أكثرهم تحت أمراء البرغواطة وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنضاف اليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل ، أزيد من عشرين الفا من جراوه وزغاره ومطغره والبرانس وركونه وغيرها » (٢)

كذلك يشير صاحب القرطاس إلى اهتمام المرابطين بأمر برغواطة بقوله : فلما

---

(١) البكرى ص ١٦١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب أو البيان المرابطى : وهي قطعة خاصة بتاريخ المرابطين نشرها المستشرق الأسباني ميراندا في مجلة (Hésperis Vol. 11, 1961, P. 48)

علم عبدالله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الضلال ، رأى أن الواجب الديني يقتضي تقديم جهادهم على غيرهم » [١] .

وفي هذا المعنى يقول لسان الدين بن الخطيب :

« وظهر أمر اللمتونيين ، ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين ، فجعلوا من برغواطة جهاداً قريباً » [٢] .

ثم يأتي صاحب كتاب الاستبصار فيقولها كلمة صريحة :

« وكان خروج هذه القبائل الصحراوية لقتال برغواطة المرتدين عن ديـــانة الأسلام » [٣] .

وواضح من كل ما تقدم من نصوص أن المرابطين كانوا أصحاب رسالةسامية وأن خروجهم من الصحراء كان مرسوما وفق خطة موضوعة تقوم على القضاء على أهل الزيغ والضلالة من البرغواطيين وغيرهم . كذلك كان للمرابطين الى جانب هذا سياسة اصلاحية لم تلبث أن ظهرت نتائجها واستقرت أوضاعها في المغرب منذ بداية دولتهم إلى يومنا هذا ، وهذه السياسة تقوم على عدم السماح بتعدد المذاهب الدينية التي انتشرت بشكل ملحوظ في المغرب كالخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والمالكية ، مما جعل البلاد عرضة للفتن والخلافات المذهبية . ولما كان المغرب كالأندلس ، يعتبر ثغرا للاسلام في أقصى الغرب ، فقد حرص المرابطون على الاكتفاء بسياسة المذهب الواحد وهو المذهب المالكي الذي قامت عليه دولتهم ، فتمسكوا به واتخذوه أساساً في كل ما يرجعون اليه من أمور دينية ودنيوية . وكان الأندلس قد سبق المغرب في هذا المضمار منذ أيام هشام بن عبد الرحمن الأموي في القرن الهجري الثاني ، إذ يروي المقدسي في هذا الصدد أن فريقين من الحنفية والمالكية تناظراً يوماً بين يدي السلطان فقال لهم : من أين كان أبو حنيفة ؟قالوا :

---

(١) ابن زرع : روض القرطاس حـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) ابن الخطيب : كتاب أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ص ١٨٦

(٣) كتاب الاستبصار ، نشر سعد زغلول ص ٢٠ .

من الكوفة فقال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة، قال عالم دار الهجرة يكفينا ، فأمر باخراج أصحاب أبي حنيفة وقال : لا أحب أن يكون في عملي مذهبان » [1] . ولا شك أن هذه السياسة قد حفظت لهذه الثغور الاسلامية سلامتها ووحدتها الروحية فكانت لذلك درعا حاميا للاسلام في أقصى الغرب .

ومن الطريف أن الممالك المسيحية التي كانت متاخمة للمسلمين في هذه المنطقة واعني بذلك اسبانيا، قد اتبعت هي الأخرى سياسة المذهب الديني الواحد باعتبارها هي الأخرى ثغرا للمسيحية في هذه المنطقة ، فاقتصرت على المذهب الكاثوليكي وتعصبت له حتى ضرب بها المثل فقيل إنها أكثر تعصباً للبابوية أي للكاثوليكية من البابا نفسه « Mâs Papista que el Papa »

وهذه العبارة تذكرنا بموقف أهل الأندلس من المذهب المالكي عند قول المقدسي على لسانهم « وهم يقولون ولا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك [2] .

غزو المرابطين للمغرب :

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الديني عبدالله بن ياسين ، وقائدهم الحربي أبو بكر بن عمر اللمتوني . فاتجهوا أولا إلى بلاد السوس واستولوا على قاعدتها تارودانت ، وقضوا على الشيعة والوثنيين كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة [3] .

ثم اتجهوا بعد ذلك إلى بلاد الحوز واستولوا على عاصمتها أغمات ، وقد ترتب على هذا الفتح أن قتل أمير أغمات لقوت المغراوي ، وتزوج الأمير أبو بكر بن عمر ارملته زينب النفزاوية التي أشاد المؤرخون بجمالها وذكائها .

---

(١) راجع, Al Muqaddasi: Description de l'Occident musulmane au IV = X siècle, texte arabe et traduction française par Charles Pellat. P. 44 (Alger 1950).

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٠

(٣) روض القرطاس ج ٢ ص ٢١ — ٢٤

ونظراً لأهمية أغمات كمدينة متحضرة من جهة ، ولقربها من الصحراء من جهة أخرى ، فقد اختارها المرابطون عاصمة مؤقتة لهم إلى أن يتم لهم بناء عاصمتهم الجديدة مراكش التي أسسها أميرهم أبو بكر بن عمر سنة ٤٦٢ ﻫ (١٠٧٠) [١] .

وتحركات المرابطين بعد استيلائهم على اغمات ، نجدها تتجه نحو هـذه التكتلات الرئيسية المارقة : برغواطة وغمارة . اتجه عبدالله بن ياسين وأبو بكر بن عمر اللمتوني نحو برغواطة ، بينما اتجه القائد يوسف بن تاشفين بعد ذلك نحو غمارة . ويبدو من تحركات جيوش المرابطين ، أن العمليات العسكرية الرئيسية التي قاموا بها قد دارت في الشمال والغرب بصفة خاصة. فبالقرب من مدينة الرباط الحالية في منطقة زعير دارت معركة عنيفة بين المرابطين والبرغواطيين ، استشهد فيها زعيم المرابطين عبد الله بن ياسين [٢] سنة ٤٥١ ﻫ (١٠٥٩م). مات هذا الزعيم على الرغم من نصائحه ومبادئه التي كان يرددها دائماً من أن حياة الجيش تتوقف على حياة قائده ، إذ يروى أنه غضب يوما على الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ، وضربه بالسوط على رجله لأنه عرض حياته للخطر أثناء القتال وقال له : « أن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة جنده ، وهلاكه هو هلاكهم » [٣] ولكن تشاء الأقدار أن يقع هو نفسه في هذا المحظور. ودفن عبدالله بن ياسين على ربوة قريبة من الرباط تطل على وادي كريفلة أحد فروع وادي أبي الرقراق ، ولا يزال قبره هناك في هذا المكان ويسميه أهالي تلك الناحية سيدي عبدالله مول الغارة [٤] .

وتولى الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني زعامة المرابطين الروحية والعسكرية ، وأخذ يعمل على توحيد صفوفه من جديد بعد تلك الكارثة التي حلت بجيوشه من جراء وفاة زعيمهم الروحي عبدالله بن ياسين ، فيروي ابن الأثير أن أبا بكر بن عمر صلى بجنوده ، ثم دعا ربه بدعاء سمعه معظم جيشه : « اللهم أن كنا على حق

---

(١) راجع مقالنا حول أهمية كتاب الحلل الموشية في مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠)

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٣٠

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الخاص بالمرابطين في (Hespéris, Vol. II, 1961)

(٤) راجع (Jacques Caillé : La Ville de Rabat, tome I p. 43).

فانصرنا ، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا» ثم اندفع بجنوده نحو برغواطة فاستأصل شأفتهم ومحا دعوتهم وأسلم الباقون منهم إسلاماً جديداً (١) .

أما الحملة التي قام بها يوسف بن تاشفين في بلاد غمارة ، فأنها اتخذت نفس الهدف والاتجاه ، إذ يفهم من كلام المؤرخين أن يوسف بن تاشفين قد تحاشى الاصطدام بالقوات الزناتية ، وأنه دخل فاس صلحا سنة ٤٥٠ هـ وترك فيها حامية صغيرة ثم تقدم صوب الشمال إلى بلاد غمارة ، ففتح جبالها وبلادها من الريف إلى طنجة واستعان في مهاجمتها بحصون وقلاع أسسها في مواجهتها مثل حصن تاودا أو بني توده وحصن Amergo أمرجو ، وقد أشاد المؤرخون بمناعة تلك الحصون وبالدور الهام الذي قامت به في فتح هذه البلاد وتطهيرها من الفساد المنتشر فيها ، ومثال ذلك قول صاحب كتاب الاستبصار :

« وكانت تاودا مدينة كبيرة ، أسسها الملثمون ليتملكوا منها جبل غمارة ، وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر وكانت في أيامهم معمورة بالمباني الحسان والقصور المنيعة ، وهي على وادي ورغه ، وعليها جبل منيف ، فيه حصن كبير من بناء الملثمين يسمى أمرجو ، وهو مبني بالحجارة والجير ، لا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة »(٢) .

وما زالت أطلال مدينة تودا باقية إلى اليوم شمالي فاس بنحو تسعين كيلو مترا في طريق وزّان وتعرف الآن بقلعة فاس البالي (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل حـ ٩ ص ٢٥٩ ويفهم من روايات بعض المؤرخين أن القضاء النهائي على برغواطه لم يتم الا في عهد الموحدين على يد خليفتهم الأول عبد المؤمن بن علي الكومى راجع (ابن أبي زرع : روض القرطاس حـ ٢ ص ١٤٢ — ١٤٥) .

(٢) كتاب الاستبصار ص ١٩٠

(٣) هدمت تودا في أوائل أيام الموحدين ، ثم عادت فعمرت من جديد الى ان هدمها أول ملوك السعديين أبو عبدالله القائم بأمر الله في أوائل القرن السادس عشر ، وما زالت انقاضها تحتل مساحة كبيرة . ومن اطلالها جدر ارتفاعها ٣ الى ٥ متر وحمام مربع الشكل مقسم الى ثلاث غرف . راجع (الصديق بن العربي : كتاب المغرب ص ١١٩ ، عبد العزيز ابن عبدالله : مظاهر الحضارة المغربية حـ/٢ ص ٥٤) كذلك (Le guide Blue : Maroc. P. 395)

ومن الطريف أنه توجد في مصر الآن أسرة معروفة باسم التودي ،فلعلها تنتسب في الأصل إلى هذه المدينة المغربية المجاهدة .

وبينما كان يوسف بن تاشفين يحارب غمارة في الشمال ، إذا بالزناتيين في فاس يتكتلون ضده ويقتلون حاميته ويستولون على المدينة ، فاضطر يوسف أن يعود أدراجـــه وأن يقاتل الزناتيين وينتصر عليهم ثم يدخل فاس للمرة الثانية سنة ٤٦٢ هـ (١) .

ولقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يوسف بن تاشفين قد أخطــــأ خطأ حربيا جسيما باندفاعه نحو غمارة أولا ، وتركه للزناتيين يتكتلون وراءه ويقتلون حاميته في فاس ، وانتهوا إلى اتهام يوسف بن تاشفين بالطمع والاندفاع (٢) . والواقع أننا بعد أن بينا أهداف المرابطين التي قامت على تقديم جهاد المارقين قبل أي جهاد آخر ، ندرك لماذا بادر المرابطون إلى قتال برغواطة وغمارة قبل الزناتيين فخطة الغزو المرابطي نراها واضحة وسليمة ومدبرة تدبيراً محكماً .

مما تقدم نرى أن المرابطين قد نجحوا إلى حد كبير في تحقيق رسالتهم ، ولعل أبسط دليل على ذلك هو أن تلك المناطق التي كانت موطناً للمتنبئين وذوي العقائد الضعيفة ، قد أصبحت في القرنين السادس والسابع أي في عهد المرابطين ثم الموحدين بعدهم ، من أشد المناطق تديناً ، بل واغراقاً في الزهد والتصوف :

ففي جبال غمارة ، ظهر عدد كبير من الصلحاء والمتصوفة الذين أفرد لهم عبد الحق البادسي كتاباً خاصاً تحت عنوان : « المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف » (٣) . وحسبي أن أشير إلى بعض أقطابهم أمثال عبد السلام

---

(١) السلاوي الناصري : كتاب الاستقصا جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) راجع على سبيل المثال (دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٠٣) .

(٣) هذا الكتاب ألفه عبد الحق البادسي سنة ٧١١هـ (١٣١١ م) وقد ترجمه الى اللغة الفرنسية المستشرق الفرنسي g. s. Colin كولان في (Archives Marocaines XXVI, Paris 1926

ابن مشيش وتلميذه أبي الحسن الشاذلي [1] . كذلك يلاحظ أن عادة تربية الشعور بين رجال غمارة التي وصفها البكري في أوائل القرن الخامس الهجري ، قد اختفت بعد ذلك فحلق الناس رؤوسهم ، وورث ذلك الأبناء عن الآباء — وقد لاحظ هذا التغيير صاحب كتاب الاستبصار في القرن السادس الهجري وعلل ذلك بأنه نتيجة لتغلغل الاسلام [2] في بلادهم . أما المنطقة الغربية والجنوبية التي كانت مهداً للبرغواطيين فقد تحولت هي الأخرى إلى مسرح خصب لحركة صوفية شعبية قوية . ويكفي أن نشير إلى سلسلة الرباطات التي انتشرت على طول الساحل الغربي في آنفا وأزمور وآسفي وتيط وغيرها . هذا إلى جانب الصلحاء والمريدين والمتصوفة الذين ظهروا بكثرة في هذه المنطقة على عهد المرابطين والموحدين وقد أفرد لهم ابن الزيات التادلي كتاباً خاصاً تحت عنوان : « التشوف إلى رجال التصوف » [3] .

هذا ويلاحظ أن هذه الحركة الصوفية كانت في ذلك الوقت سليمة وبعيدة عن الشوائب والبدع ، لأن المشرفين على حكم المغرب في ذلك الوقت كانوا متشبعين بالروح الصوفية السليمة ، فلم يسمحوا لظهور أي بدعة في بلادهم . وقد عبر عن هذه الحالة ، الامام الزاهد أبو بكر الطرطوشي نزيل الاسكندرية ، عندما بعث برسالة إلى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين يذكره فيها بالحديث النبوي الشريف :

« لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » ثم يضيف معقبا : والله أعلم ، هل أراد كم بذلك رسول الله (صلعم) ، أو أراد أهل المغرب لما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع » [4] .

---

(١) هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الجبار الشاذلي (٥٩٣ — ٦٥٦هـ = ١١٩٧ — ١٢٥٨ م) راجع ما كتبه عنه الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ١٦١ (القاهرة ١٩٦٥) .

(٢) كتاب الاستبصار ص ١٩٣ .

(٣) هذا الكتاب ألفه ابن الزيات في القرن السابع الهجري ، وقد تحاشى ذكر الاحياء من معاصريه . وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي أدولف فور في الرباط سنة ١٩٥٨ م .

(٤) راجع : عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥ ، عبد العزيز ابن عبدالله : الفكر الصوفي بالمغرب ، مجلة البينة ، (الأعداد ، ٤ ، ٦ ، ٧ ، سنة ١٩٦٢) .

تأسيس مدينة مَرّاكُش [1] :

بعد أن انتهى الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني من فتح معظم بلاد المغرب الأقصى ، نزل مع اخوانه مدينة أغمات عاصمة الجنوب ليكون قريبا من موطنه الأصلي . وكانت هذه المدينة في الواقع عبارة عن مدينتين متقابلتين على سفح جبال أطلس : أغمات أَيْلان ، وأغمات وريكة ، [2] وكان بينهما خلاف مستمر لدرجة أن كل فريق كان يصلي في الجامع منفردا . ثم توالت على الأمير أبي بكر الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت مدينة اغمات بالوافدين وضج أهلها بالشكوى ، فقال لهم الأمير أبو بكر : « عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله » ، فأشاروا عليه أول الأمر بمكان على نهر تانسيفت [3] فلم يعجبه هذا المكان خوفا من تعرض هذا النهر للفيضان وقال : « اننا قوم صحراويون لا نستطيع العيش بجوار الأنهار» . وأخيراً أشاروا عليه بفحص مراكش ، وقالوا له : « قد نظرنا لك أيها الأمير موضعا صحراء رحب الساحة يليق بمقصدك ، يكون وادي نفّيس جنانها ، وبلا دُكَّالة فدانها ، وزمام جبل دَرَن (أطلس) بيدأميرها».

---

(١) مراكش اسم بربري قديم قد يكون مشتقاً من أوركش يعني ابن كوش ، وكوش بالبربرية معناها الأسود . وفي هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشي (المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٠) : وانما سميت بعبد أسود كان يستوطنها ويخيف الطريق اسمه مراكش. اما ابن خلكان فيرى أن معنى مراكش : « امش مسرعاً » في لغة المصامدة ، لأن موضعها كان مأوى للصوص وكان المسافرون يقولون لرفقائهم هذه الكلمة فعرف الموضع بها .

(٢) كانت أغمات ايلان تقع في شرق أغمات وريكه وبينهما عدة أميال. وقد نزل المرابطون ناحية أغمات وريكة . أما أغمات ايلان فكانت مدينة صغيرة يسكنها يهود تلك النواحي ولا سيما بعد بناء مدينة مراكش . فمن المعروف ان المرابطين منعوا اليهود من سكنى مراكش فكانوا لا يدخلونها الا نهاراً وينصرفون عنها عشية . راجع (الادريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٦٩ ٧٠ ، نشر وترجمة دوزي ودى خويه ليدن ١٨٦٦)

(٣) نهر عظيم من أنهار المغرب ينبع من جبال أطلس وتسقى مياهه حوز مراكش ، ويصب في المحيط الأطلسي بين أسفى والصويرة ويبلغ طوله نحو ٢٥٠ ك.م . ويصف الادريسي هذا النهر بقوله : وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير ولكنه دائم الجري واذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر» (الادريسي ص ٦٩)

فعند ذلك ركب الأمير أبو بكر في جيوشه حتى بلغ سهل مراكش ، وهو خلاء لا أنيس به الا الغزلان والنعام ، ولا ينبت إلا السدر والحنظل ، وكـان ذلك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م)فانتقلوا إلى تلك الرحبة ، فوجدوا في فحصها من المسرح الخصيب للجمال والدواب ما أثار غبطتهم . وافتتح الأمير أبو بكر عملية الانشاء والتعمير ببناء قصر الحجر أو دار الحجر وتبعه الناس في بناء الدور .

هذه الرواية السابقة أوردها كل من صاحب الحلل الموشية[١] ،وابن عذاري[٢] ، وهي تنص كما هو واضح على أن تأسيس مدينة مراكش قد تم على يد الأمير أبي بكر بن عمر في سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠م).

هناك رواية أخرى أوردها صاحب كتاب روض القرطاس [٣] ونقلها عنه ابن خلدون والسلاوي ، وهي لا تنسب تأسيس مدينة مراكش إلى أبي بكر بن عمر وانما إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين وتحدد تاريخ البناء في سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦١م).يقول صاحب القرطاس :

« ودخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وفيها تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجدا للصلاة ، وقصبة

---

(١) الحلل الموشية ص ٥ — ٦ نشر علوش (الرباط ١٩٣٦)

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب . القسم الخاص بالمرابطين نشره أويثي ميراندا في مجلةهسبريس ١٩٦١ Hespéris وقد أشار الى أهمية هذا النص المأسوف عليه المستشرق الفرنسي ليفي دروفنسال في آخر مقال كتبه قبل وفاته بعنوان

(Lévi Provençal : La Fondation de Marrakech (462 - 1070), Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occidental Musulmane, tome II, P. 117, Hommage a Georges Marçais, Alger 1957).

(٣) عنوان هذا الكتاب هو الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ويتناول تاريخ المغرب الأقصى من سنة ١٤٥هـ الى سنة ٧٢٦هـ وقد اختلف المؤرخون حول مؤلفه فالبعض ينسبه الى صالح بن عبد الحليم الغرناطي والبعض الآخر ينسبه الى ابي العباس أحمدبن أبي زرع ، وكلاهما عاشا وماتا بالمغرب في النصف الأول من القرن الثامن الهجري .ن

صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ، ولم يبن على ذلك سورا ، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعا منه وتورعا ، غفر الله له ونفعه بقصده ». (١)

ولا شك أن الرواية الأولى — وهي رواية ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية — هي الأصح لأنها مثل غيرها من الروايات التي أورداها ، مستمدة من أوثق المصادر المعاصرة للمرابطين ، على عكس صاحب القرطاس الذي كثيرا ما استسلم لخياله وملأ كتابه بالأخطاء التاريخية والجغرافية مما جعل المؤرخين القدامى والمحدثين ينتقدون رواياته ويتهمونه بالكذب والاختلاق . (٢)

ولعل مما يفند روايته بصدد تأسيس مدينة مراكش أن المؤرخ والجغرافي الأندلسي المعاصر أبا عبدالله البكري الذي تعرض في كتابه لأحداث قيام دولة المرابطين حتى سنة ٤٦٠ ﻫ (١٠٦٧ م) وهي السنة التي أتم فيها كتابه ، لم يذكر شيئاً على الاطلاق عن مدينة مراكش أو عن يوسف بن تاشفين . وصمت البكري هنا يعتبر تأييدا لرواية كل من ابن عذاري والحلل الموشية التي تقول بأن بناء مراكش لم يبدأ إلا في سنة ٤٦٢ ﻫ ، أي بعد أن فرغ البكري من كتابه بسنتين . فلو أن رواية القرطاس صحيحة وهي التي تقول بأن بناء مراكش كان سنة ٤٥٤ ﻫ وعلى يد يوسف بن تاشفين ، لما فات البكري أن يشير إلى ذلك . كل ما أورده البكري في هذا الصدد لا يعدو تلك العبارة المختصرة : وأمير المرابطين إلى اليوم ، وذلك سنة ستين وأربعمائة ، أبو بكر بن عمر . (٣)

---

(١) روض القرطاس ﺣ ٢ ص ٣٩ — ٤٠ (الرباط سنة ١٩٣٦) انظر كذلك (السلاوي : الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ﺣ ٢ ص ٢٢ — ٢٨)

(٢) من المؤرخين القدامى الذين انتقدوا ، صاحب كتاب القرطاس نذكر الكاتب المعاصر له وهو الخطيب أبو عبدالله بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن (مخطوط بخزائن الرباط رقم ١١١ ، ورقة ٩٩) ومن المؤرخين المحدثين نذكر دوري ، وأويثي ميراندا ، وبونس بويجس . راجع (دراسة المراجع في آخر الكتاب)

(٣) البكري : كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب ص ١٧٠ نشر البارون دي سلان (الجزائر ١٩١١)

ومن الطريف أن البارون دى سلان الذي قام على نشر كتاب البكري الخاص بالمغرب ، فقد انساق — فيما يبدو — وراء رواية القرطاس ، إذ أنه بني على عبارة البكري السالفة الذكر عدة افتراضات واستنتاجات ، نذكر منها اتهامه للبكري وللأندلسيين عامة بأنهم كانوا يجهلون أحداث المغرب في هذه الفترة وأثر الثورة المرابطية التي قامت فيه ، إذ كيف يجهل البكري اسم يوسف بن تاشفين الذي حكم المغرب منذ سنة ٤٥٢ هـ ، وأسس مدينة مراكش في سنة ٤٥٤ هـ ، واحتل فاس في السنة التالية ! ! (١) .

والواقع أننا بعد قراءة ما ورد في كل من الحلل الموشية والبيان المغرب نستطيع القول بأن البكري قد أصاب فيما قاله وأن هذه الأحداث كلها قد وقعت بعد أن فرغ من وضع كتابه ، وأن دى سلان قد أخذ برأي صاحب القرطاس ! !

فيوسف بن تاشفين لم يبدأ اسمه في الظهور إلا بعد أن قلده ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر نيابة حكم المغرب في سنة ٤٦٢ هـ ، وأنه لم يستقل بحكم هذه البلاد ويعلن نفسه أميرا للمسلمين إلا في سنة ٤٦٦ هـ ولم يجرؤ على نقش اسمه على السكة إلا منذ سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) أي منذ وفاة الأمير أبي بكر الحاكم الشرعي على البلاد . (٢)

أما اتهام دى سلان للأندلسيين بأنهم لم يكونوا على علم بأحداث المغرب وبثورة المرابطين ، فهو حكم باطن من أساسه ، وقد يكفي لتنفيذه قول صاحب المعجب : « .. وكان المعتضد ابن عباد في كل وقت يستطلع أخبار العدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه في ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه ، فلما بلغه نزولهم ، جمع ولده وجعل ينظر إليهم مصعدا ومصوبا ويقول : يا ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم ؟ فقال أبو القاسم (المعتمد بن عباد) من بينهم: جعلني الله

(١) راجع مقدمه الناشر في كتاب البكري المسالف الذكر ص ١٤ — ١٥ .

(٢) راجع كتاب الحلل الموشية ص ١٤ — ٢٠

فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزله بك ! فكانت دعوة وافقت المقدار ». [1]
ويضيف المقري أن المعتضد بن عباد لما علم بزحف المرابطين ، أمر بتحصين الجزيرة الخضراء وجبل طارق . [2]

فمثل هذه النصوص ، وان كان بعضها يتسم بطابع قصصي ، تدل على أن الأندلسيين كانوا يتتبعون أخبار المرابطين منذ أن بدأت طلائعهم تخرج من الصحراء وتتدفق شمالا شطر المغرب .

جهاد المرابطين في السودان الغربي :

لم تقتصر مآثر المرابطين على جهاد المارقين في بلاد المغرب شمالا ، بل امتدت إلى جهاد الوثنيين في بلاد السودان جنوبا ، وكان لها من النتائج الهامة مثل ما كان لجهادهم في الشمال .

وكان يحكم بلاد السودان الغربي في ذلك الوقت ، مملكة غانا التي تعتبر أقدم دولة في غرب افريقيا شمالي نطاق الغابات . وقد رجح المؤرخون أن تاريخ نشأتها يرجع إلى القرن الثالث الميلادي ، وانها كانت تسمى بامبراطورية بافور ، ثم أطلق عليها بعد ذلك اسم غانا وهو اللقب الذي كان يحمله ملوكها ، ثم توسعوا في استعماله حتى صار يشمل اسم الدولة والعاصمة معاً . ولقد اندرست مدينة غانا العاصمة واندرست معالمها ، الا أن الحفريات التي قام بها العلماء ، قد كشفت عن مدائن تمتد عدة كيلو مترات قرب مدينة النعمة في منطقة الحوض من موريطانيا على مسافة ثلاثمائة كيلومتر من باماكو ، وهي تشهد بحضارة دولة غانا ورقيها [3] .

---

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٠ (نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي)

(٢) أحمد المقرى : نفح الطيب حـ ٢ ص ١٧٥ ، حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٦٥

(٣) راجع ما كتبه قاسم الزهيري حول الممالك الاسلامية القديمة في أفريقيا السوداء في مجله دعوة لحق الاعداد (٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ سنة ١٩٦٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الا فريقية وغربيها ص ٥٤ — ٥٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

وكان ملوك هذه الدولة وعامة شعبها يدينون بالوثنية ، إلا أنه كانت توجد بينهم أيضاً أقلية إسلامية لها مساجدها وتتمتع بحرية تامة في مزاولة شعائرها الدينية وقد أعطانا المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب أمثال ابن حوقل والبكري . صورة واضحة عن مدى ما بلغته هذه الدولة من حضارة ورقي .

ويبدو أن هذه الدولة قد بلغت أوج عزها وعظمتها فيما بين القرن الثالث وأوائل الخامس الهجري ، وأن نفوذها قد امتد إلى تمبكتو شرقاً وبلاد التكرور أو السنغال غرباً ، وينابيع النيجر جنوباً ، وأغلب الصحراء الغربية (موريطانيا) شمالا .

ولم تكن العلاقة طيبة بين مملكة غانا وبين جيرانها الملثمين في الشمال . فقد كثرت المنازعات بينهما ، وحاول كل منهما أن يعتدي على أرض الآخر . وكثيراً استغلت غانا تفرق شمل هذه القبائل الصنهاجية ، كي تبسط سيطرتها على هذه المنطقة . على أن هذا الوضع السياسي لم يلبث أن تغير تماماً بعد هذه الانتفاضة الدينية التي وحدت شمل هذه القبائل ، وجعلت منها قوة يخشى بأسها على مملكة غانا نفسها ، والأحداث التاريخية التي تلت ذلك تدل على أن نهاية مملكة غانا كانت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وعلى يد هؤلاء الملثمين الصنهاجيين أو بتعبير أصبح المرابطين. وتفصيل ذلك أن الأمير أبا بكر عمر اللمتوني ، بعد أن وطد نفوذ المرابطين في المغرب ، وبنى لهم مدينة مراكش لتكون قاعدة لملكهم هناك سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) ترك الأمر هناك لابن عمه يوسف بن تاشفين ، واتجه عبر الصحراء جنوباً للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانا الوثنية. وفي سبيل هذا الهدف العظيم ، اضطر الأمير المجاهد أبو بكر بن عمر ، أن يترك زوجته وأهله ووطنه ، وأن يبيع نفسه من الله، يروي أنه قال لزوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها : يا زينب ، اني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر ، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي ، فان أنا مت ، كنت مسؤولا عنك ، والرأي أن أطلقك ثم طلقها، ويقال أنه قال لابن

عمه يوسف بن تاشفين : «تزوجها فانها امرأة مسعودة» فتزوجها يوسف»[١] ثم خرج أبو بكر بن عمر إلى غزو مملكة غانا ، وفي ذلك يقول السلاوي الناصري : ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة ، واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال ، وزحف اليهم فاتح المغرب الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني وفتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر ، وحمل الكثير منهم ممن لم يكن قد أسلم قبل ذلك ، على الاسلام ، فدانوا به ، ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية. ثم غلب أهل مـــالي على الأمم المجاورين لهم وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدي أهل غانة »[٢] .

وقال صاحب الحلل الموشية : « وأسلم أهل غانة ، وحسن إسلامهم عند خروج الأمير أبي بكر بن عمر اللتموني اليهم »[٣] .

كذلك يقول صاحب القرطاس : وخرج أبو بكر إلى غزو بلاد السودان ، فجاهدهم حتّى فتح من بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد بسهم مسموم بعد أن استقر له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان[٤] .

فمن هذه النصوص وغيرها ، نجد أن سقوط مملكة غانا ، وانتشار الإسلام بين أهلها ، ثم قيام مملكة مالي الاسلامية على أنقاضها ، كان ثمرة من ثمرات جهاد هذا الأمير وجنوده المرابطين[٥] .

---

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الخاص بالمرابطين (Hésperis - Tamuda Vol. II, 1961).

(راجع كذلك (روض القرطاس ـ ٢ ص ٣٣) .

(٢) السلاوى : الاستقصا ـ ٥ ص ١٠٠ .

(٣) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٧ (نشر علوش) .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس جـ ٢ ص ٣٥ ، ولعل المقصود بجبل الذهب هنا هو بلاد ونقارة التي كانت تقع خارج حدود غانة والتي كانت شعوب الماندنجو تستخرج منها الذهب وتستبدله بالملح والسلع الأخرى من غانة . راجع (حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة ص ٥٦)

(٥) يقال أن عدداً كبيراً من أهالي غانا فروا من الموت أمام زحف المرابطين ، وقصدوا ساحل الذهب وعمروها . ولهذا اختار الرئيس السابق نكروما اطلاق اسم غانا على دولته إحياء لذكرى هذه الدولة القديمة العريقة .

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد الكبير بالشهادة التي كان ينشدها ، فذكرنا بالشهيد عقبه .

أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بطل الزلاّقة :

يعتبر يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين لأنه هو الذي وطد أركانها وأعطاها كياناً دولياً ثابتا .

في بادىء الأمر حكم يوسف بن تاشفين دولة المرابطين كنائب لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر الذي فضل أن يغادر ملكه ويجاهد الوثنيين من أهل السودان الغربي .

وبعد استشهاد هذا الزعيم المرابطي سنة ٤٨٠ ه (١٠٨٧م) صار يوسف بن تاشفين هو الحاكم الشرعي لدولة المرابطين .

وفي خلال مدة حكمه كنائب أو سلطان ، قام يوسف بن تاشفين بسلسلة من الأعمال الداخلية والخارجية لتدعيم دولته الناشئة ، وتنظيم شؤونها ، واخراجها إلى حد كبير من طور البداوة الذي كانت تعيش فيه . ومن أمثلة ذلك :

أولا : عمل على اتمام فتح بلاد المغرب الأقصى ، وبنى أسطولا بحريا ساعده في احتلال الثغور الشمالية المطلة على مضيق جبل طارق مثل سبتة وطنجة ومليلة . كما عمل على ضم المغرب الأوسط وتوحيده مع المغرب الأقصى ، فاستولت جيوشه على تلمسان ووهران وتنس والجزائر حتى بلغت حدود أقربائه الصنهاجيين من بني حماد والزيريين في افريقية .وهكذا أصبح يوسف بن تاشفين سيدا على المغربين الأوسط والأقصى والصحراء .

ثانيا : أتم بناء العاصمة مراكش وأسس بها دارا للسكة ضرب فيها دراهم فضية ودنانير ذهبية ، كما أنشأ الدواوين والادارات المختلفة وبدأت الدولة تقيم نوعاً من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب والمشرق . كذلك اتخذ البنود والأعلام البيضاء المدبجة بالآيات القرآنية ، وأحاط نفسه بطبقة من الحشم والأتباع

وهم بمثابة الحرس الخاص بالأمير ويدخل في عدادهم العبيد السود الذين اشتراهم من السودان والمماليك الصقالبة الذين اشتراهم من اسبانيا وعرفوا باسم الاعلاج أو الروم. كذلك نظم مقابلاته واستقبالاته عن طريق الحجاب .

وصفوة القول إن يوسف بن تاشفين أعطى دولته لأول مرة طابع الملك ، ولم يلبث هو نفسه أن اتخذ ألقاب السلطنة مثل أمير المسلمين وناصر الدين ، وأعلم رعيته بذلك بمقتضى منشور دوري قرىء على المنابر في أول عام ٤٦٦ هـ (١٠٧٣م).[١] كذلك حرص يوسف بن تاشفين على أن يحيط ملكه بسياج شرعي ، فدعا للخليفة بغداد العباسي الذي أرسل إليه بدوره تقليده بحكم البلاد والعباد وما يفتحه من بلاد الأعداء .

وهكذا صار المغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية في ظل دولة المرابطين وزعيمها يوسف بن تاشفين ، في الوقت الذي كان فيه الأندلس يعاني من التفكك السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف .

ولا شك أن تاريخ بلاد العدوتين المغربية والأندلسية ، الذي هو وليد جغرافيتها ، يجعلنا ندرك تماما بأن هذه القوة الفتية الطموحة ، ما كانت لتقف وجها لوجه أمام الأندلس مكتوفة الأيدي عند هذا الحد الشمالي للمغرب ، لأن منطق الأحداث التاريخية ، من قبل ومن بعد ، كان يفرض عليها الانتشار والتوسع في العدوة الأندلسية المقابلة ، خصوصا بعد أن امتلك المرابطون ثغور المجاز المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلة ، وصار لا يفصلهم عن الأندلس سوى ذراع ضيق من الماء وهو مضيق جبل طارق . وقد يؤيد ذلك رواية صاحب المعجب التي أوردناها من قبل والتي تعبر عن مخاوف الأندلسيين من هذا الغزو المرابطي منذ أن بدأت طلائعه تخرج من صحراء شنجيط (موريتانيا الحالية) وتتدفق نحو المغرب الأقصى . إلا أنه يبدو أن الظروف السياسية قد خدمت المرابطين في هذه الناحية ، فجعلت الأندلس تحت ضغط الغزو المسيحي من الشمال هي السباقة في طلب المعونة من المغرب قبل أن تفرض عليها فرضا . وقد روي في هذا الصدد أن المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية

---

(١) راجع نص هذا الظهير الرسمي الذي صدر بشأن تلقيبه بهذه الأسماء في كتاب الحلل الموشية ص ١٨-١٩

وأقوى ملوك الطوائف في ذلك الوقت، حينما عزم على الاستنجاد بالمرابطين قال جملته المشهورة التي عبرت عن شعور المسلمين في ذلك العصر : « رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير ! ». [١] وهذا التصريح الجميل يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تماما بأن ملكه ضائع سواء على يد المرابطين في الجنوب أو الاسبان في الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الاسلامية بطبيعة الحال .

ولقد تحدث المؤرخون عن الكتب والوفود الكثيرة التي بعث بها أهل الأندلس وفقهاؤها وبعض أمرائها إلى يوسف بن تاشفين مطالبين بمساعدته ونجدته . كذلك أورد صاحب الحلل الموشية نص الخطابات السلطانية التي تبودلت بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين حول هذا الصدد أيضا [٢] . بل ويذهب البعض إلى أن المعتمد بن عباد ذهب بنفسه إلى العدوة المغربية واجتمع بيوسف بن تاشفين في مكان يسمى بليطه بالقرب من طنجه [٣] .

وكيفما كان الأمر فإنه يبدو أن الملك الاسباني الفونسو السادس كان على علم تام بأنباء هذه الاتصالات بين العدوتين بدليل أنه قد أرسل بدوره إلى الزعيم المغربي خطابا كله تهديد ووعيد محاولا تحديه وارهابه [٤] . وقد كان رد يوسف بن تاشفين على هذا التحدي واضحا وحاسما ، اذ أمر بأن يكتب له على ظهر كتابه العبارة الآتية : « أما بعد فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك والسلام على من اتبع الهدى » . ثم أردف ذلك ببيت لأبي الطيب المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) :

ولا كُتْبَ الا المشرفيةُ والقَنَا   ولا رُسْلَ إلاَّ بالخميسِ العرمرم [٥]

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٢ ؛ السلاوى : الاستقصا حـ ٢ ص ٣٥ . ويذهب بعض المؤرخين الى أن زعماء الأندلس فكروا في بادىء الأمر في الاستنجاد بعرب افريقية من بني هلال وسليم بدلا من المرابطين الا أنهم عدلوا عن هذه الفكرة خوفاً من أن يعمل العرب في الأندلس مثلما فعلوه في افريقية من خراب وتدمير . راجع (السلاوى : الاستقصا حـ ٢ ص ٣٧ ، ابن الأثير : الكامل حـ ١ ص ٦٢)

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ — ٣٥ .

(٣) عبد السلام الطود : بنو عباد ملوك اشبيليه ص ١٦٩

(٤) راجع نص هذه الرسالة في كتاب الحلل الموشية ص ٢٩ — ٣٠

(٥) الحلل الموشية ص ٢٩ — ٣٠ ، ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشر أحمد مختار العبادي ، مجلة معهد مدريد للدراسات الاسلامية ١٩٦٥ — ١٩٦٦ .

أخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للعبور بجيوشه إلى العدوة الأندلسية فأرسل عملاءه إلى الأندلس لشراء الأسلحة وآلات الحرب حتى عرف ذلك العام بعام افتناء العدد واتخاذ السلاح [١] . وقد عرف عن الأندلسيين أنهم كانوا يتقنون صنع الأسلحة ولهم مصانع لهذا الغرض في اشبيلية والمرية حيث يتوفر معدن الحديد . كذلك كانوا يستوردون السلاح من أوربا ولا سيما من فرنسا حيث اشتهرت مدينة برذيل (بوردو) بجودة سيوفها البرذليات ، وقد أشار المؤرخ الغرناطي ابن سعيد المغربي إلى شهرة هذه الأسلحة الفرنسية واقبال الأندلسيين على شرائها [٢] .

وإلى جانب اهتمام يوسف بن تاشفين باقتناء الأسلحة من الأندلس ، حرص كذلك على امتلاك بعض ثغور العدوة الأندلسية كي يسيطر على مضيق جبل طارق ويضمن الاتصال بوطنه في أي وقت يشاء سواء في حالة النصر أو الهزيمة والانسحاب . ولهذا بعث إلى المعتمد بن عباد يطلب منه تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء مفتاح اسبانيا من الجنوب ، قائلا له : « ولا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا ومتى شئنا » . واضطر المعتمد بن عباد إلى تنفيذ طلبه ، فأمر ابنه الراضي بإخلائها [٣] .

وفي منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (يونيو ١٠٨٦ م) عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه من مدينة سبتة مضيق جبل طارق ونزل الجزيرة الخضراء . واقتداء بما فعله طارق بن زياد من قبل ، قام يوسف بن تاشفين بتحصين الجزيرة الخضراء وما يتبعها من قواعد عسكرية أخرى على المضيق مثل جبل طارق وطريف ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٤

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٨

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨٢ ، ويروى الأمير عبدالله بن بلقين آخر ملوك بني زيرى في غرناطة في عصر ملوك الطوائف ، أن تسليم الجزيرة الخضراء لم يتم بسرعة وأن الراضي أخذ يسوف ويماطل الى أن داهمته قوات المرابطين فأسلمها لهم سنة ٤٧٩هـ . راجع (مذكرات الأمير عبدالله بن زيري الصنهاجي ملك غرناطة ، ص ٢٣٧ نشر ليفي بروفنسال)

لتكون رأس جسر لهجومه وخط رجعة لانسحابه . وهناك وافاه أكثر رؤساء الأندلس أمثال المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس بمن معهم من جنود وكل من رغب في الجهاد .

ثم زحفت جيوش المسلمين نحو اشبيلية ثم إلى بطليوس Badajoz في غرب الأندلس بغية لقاء العدو . وحينما علم الملك ألفونسو السادس بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقسطه ، وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم في الشمال من بطليوس عند فحص الزلاقة الذي تسميه المصادر الاسبانية Sacralias ويعرف اليوم باسم Sagrajas وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين في ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م) [١] .

ويفهم من سير المعركة أن الجيوش الأسبانية قامت في بادىء الأمر بهجوم مفاجىء على معسكرات الجيوش الأندلسية ، فأحدثت فيها اضطرابا شديدا ، ووقف لها المعتمد بن عباد كالأسد الورد حتى أثخن بالجراح ، واضطر الأندلسيون إلى التقهقر أمام العدو عدة أميال . وحينما علم يوسف بن تاشفين بهزيمة الرؤساء حمل بأتباعه على جيوش العدو ، ووضعوا سيوفهم ورماحهم في نحورهم وظهورهم فانهزموا وولوا مدبرين خاسئين فارين مدحورين . ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة ، قد أحدثت اضطرابا في صفوف خيالة العدو التي صارت تجمح براكبيها في المعركة . ويبدو أن عادة استخدام الطبول الضخمة أخذها المرابطون من زنوج افريقيا إذ لا يزال الطبل الكبير يعرف في المغرب حتى اليوم باسم طبل جناوه نسبة إلى غينيا Guinée [٢] . كذلك يبدو أن المرابطين استخدموا سلاحا جديدا لم يعرفه الاسبان وهي الخناجر المقوسة التي كان المرابطون يطلقون عليها اسم الطاس أو الاطاس . فيروى أن أحد عبيد يوسف بن

---

(١) راجع (عبد الواحد المراكشي المعجب : ص ١٣٢–١٣٥ ، السلاوى : الاستقصا حـ٢ ص٣٧–٤٦)
راجع كذلك (Huici Miranda : La Batalla de Zallaka, Hesperis 1953)
(٢) انظر (L. Brunot : Textes arabes de Rabat, II p. 469).

تاشفين استطاع أن يصل إلى الملك ألفونسو السادس ويطعنه في فخذه ، فصاح الملك مذعورا : « طعنني أحد العبيد بمنجل ! ! » [1]

وقد عقب صاحب كتاب الاكتفاء على انتصار الزلاقة بقوله : « ولجأ اللعين إلى جبل منيع في نحو ثلاث مائة فارس من رجاله، وكان قد وصل في ستين ألفا من أنجاد أبطاله. فلما جنّ عليه الليل، وأمن من أن تتبعه الخيل، انسلّ انسلال الأرنب ، أمام ذي المخلب، ولحق بطليطلة مهزوما جريحا حزينا مكلوما .

مُوَكّلاً بِيَفَاعِ [2] الأرضِ يَفْرَعُهُ [3]
مِنْ خفّةِ الخوفِ لا مِنْ خِفّةِ الطّرَبِ [4]

وابتدر المسلمون بقطع رؤوس المشركين ، وبنوها كالصوامع في صحون الجوامع ، وقام المؤذنون في أعلاها بالآذان ثلاثة أيام ، وتراجع إلى المحلة كل من سلم من المسلمين ، وتنفس بهذه الهزيمة مخنق الجزيرة ، وثبتت بسببها بلاد كثيرة » [5] .

لا شك أن انتصار المرابطين في الزلاقة قد أنقذ الحكم الإسلامي في الأندلس من سقوط محقق ، كما أنه في الوقت نفسه ثبّت أقدام المرابطين فيها ، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) يكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش .

---

(١) الحلل الموشية ص ٤٨

(٢) اليفاع : المرتفع

(٣) يفرعه بمعنى يعلوه ويشرف عليه

(٤) هذا البيت من قصيدة أبي تمام التي مدح بها الخليفة العباسي المعتصم بالله بمناسبة فتح مدينة عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنبـاء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

راجع (ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ، المجلد الأول ص ٧٤ ، مجموعة ذخائر العرب) .

(٥) راجع (عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشر أحمد مختار العبادي في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثالث عشر ١٩٦٥ — ١٩٦٦) .

مصادر اندلسية ومغربية

الفترة الاولى من تاريخ الاندلس ، فترة مضطربة غامضة لأن مصادرها لم تدون في اسبانيا مسرح الحوادث والعمليات الحربية . فالمسلمون الذين كانوا في اسبانيا في تلك الفترة الاولى كانوا جنوداً محاربين لاهم لهم الا القتال والجهاد وجمع الغنائم . أما الكتاب والمؤرخون فقد كانوا في الشرق حيث القيادة العليا . ولا سيما مصر التي كانت بحكم وضعها الجغرافي القاعدة العسكرية الكبرى لجميع العمليات الحربية في المغرب والاندلس : تمر جيوش الغزو منها ، كما يمر بها الجنود العائدون إلى أوطانهم . ومن ثم اصبحت مصر مركزاً لما كان يكتب من اخبار عن المغرب والاندلس .

والجدير بالذكر ان اهتمام المصريين بالأندلس ، بدأ قبل أن يغزو المسلمون هذه البلاد ، فأول ذكر للاندلس بين المشارقة ، هو ما كتبه عنها بعض العلماء اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ، وملاءوا كتب الاسلامي بأخبار مستمدة من مصادر الثقافة اليهودية القديمة مما اصطلح على تسميته بالاسرائيليات ، كالاحاديث المنسوبة إلى كعب الاحبار ووهب بن منبه ، وهي احاديث احتفظت بها كتب التاريخ المصري ، وتناقلها المؤرخون المصريون من قديم ، وان كان لا يستبعد أن يكون الكثير منها موضوعاً ، الا أنه من الثابت أن المحدثين المصريين تأثروا بها إلى حد كبير . ومثال ذلك بعض الاخبار الخاصة بالأندلس التي تروي عن

الصحابي المصري المعروف عبدالله بن عمرو بن العاص الذي توفي سنة ٦٥ هجرية أي قبل فتح الاندلس بنحو ربع قرن .

ثم تأتي بعد ذلك طبقة التابعين الذين دخلوا الاندلس ، وشاركوا في غزوها أمثال موسى بن نصير وعلي بن رباح وحنش الصنعاني وغيرهم . ويلاحظ ان عدداً كبيراً من التابعين عاشوا في مصر ، ودرسوا فيها على يد الصحابي عبدالله عمرو بن العاص . ولقد عاد معظم هؤلاء التابعين إلى مصر بعد انتهاء فتح الاندلس . وكان من الطبيعي أن يقصوا على تلاميذهم قصة الفتح وما شهدوه في الاندلس من عجائب . ولم تلبث هذه الاخبار السماعية أن أخذت تتناقل في المجالس الادبية والدينية في مصر واشتغل بها الفقهاء والمحدثون المصريون أمثال الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ) وعبدالله بن لهيعة (ت ١٧٤ هـ) .

الا أنه يلاحظ أن كل هذه الروايات بحكم كونها سماعية كان ينقصها الدقة وتسودها المبالغة والاساطير ، ولكنها على كل حال تدل أن المصريين كانوا أول من وضع أسس التاريخ الأندلسي [1] .

أولا : مؤرخو القرن الثالث الهجري (٩م) :

وأول كتاب عربي وصل الينا عن تاريخ المغرب والأندلسي ، كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم وعنوان كتابه :

فتوح مصر والمغرب والاندلس:

عاش ابن عبد الحكم في الفسطاط في القرن الثالث الهجري ، فهو معاصر للطبري والبلاذري . وقد اختصت اسرته بدراسة الفقه والحديث ونزل عندها الامام الشافعي ودفن في مقابرها . وقد درس على ابن عبد الحكم عدد كبير من المغاربة والاندلسيين ، وكتابه يعتبر من أحسن ما كتب المغرب والاندلس وابعدها عن

---

(١) محمود مكي : تاريخ عبد الملك بن حبيب ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية) بمدريد سنة ١٩٥٧ .

الاساطير . لهذا انتشر في الاندلس وأخذ عنه كثير من المؤرخين الاندلسيين المتأخرين أمثال ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الاندلس ، وابن خير في فهرسته والحميدي في جذورة المقتبس وغيرهم .

وقد اهتم المستشرقون بنشر هذا الكتاب مثل تشارلز توري Charles torrey الاستاذ بجامعة ييل Yale بولاية New haven بأمريكا . ومثل المستشرق الفرنسي البرت جاتو A. Gateau الذي اقتصر على نشر الجزء الخاص بفتح المغرب والاندلس فقط مع ترجمة فرنسية له بعنوان :

Gateau : Conquete de l'afrique du nord et de l'Espagne.

ومثل المستشرق الفرنسي هنري ماسية Henri Massé الذي نشر الجزء الخاص بمصر فقط في مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية ، في جزئين . كذلك نشر الكتاب كله حديثاً لستاذ مصري وهو عبد المنعم عامر..

أما أقدم كتاب كتبه الاندلسيون أنفسهم عن تاريخ بلادهم ، فهو :

كتاب مبتدأ خلق الدنيا المعروف بتاريخ عبد الملك بن حبيب الالبيري .

هذا المؤرخ عاش في مصر ، ودرس على علمائها ، ثم عاد إلى بلاده حيث اشتغل معلماً بمسجد قرطبة ، ولهذا جاء كتابه مصرياً في روايته ومصادره مما يجعلنا ندرجه في عداد الكتب المصرية . وتوفي ابن حبيب سنة ٢٣٨هـ اي سنة ٨٥٢م . وقد نشر القسم الاندلسي منه الدكتور محمود على مكي في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ .

واستمرت كتابة التاريخ الاندلسي في يد المصريين حتى القرن الرابع الهجري (١٠م) ثم اخذ بعد ذلك اثر المصريين في كتابة هذا التاريخ يضعف ويتضاءل . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الثقافة الاندلسية في ذلك الوقت كانت قد نمت وازدهرت واستقلت بشخصيتها الاندلسية عن المشرق ثقافياً وسياسياً أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وحفيده هشام المؤيد . فتولى الاندلسيون بأنفسهم كتابة تاريخ بلادهم .

ثانيا : مؤرخو القرن الرابع الهجري(١٠م) :

من أهم الكتب الاندلسية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري (١٠م) أيام ازدهار الخلافة الاموية بالأندلس نذكر :

١ — كتاب تاريخ افتتاح الاندلس ، لأبي بكر محمد القرطبي المعروف بأبن القوطية . وواضح من اسم المؤلف أنه كان من سلالة أمرأة قوطية أو اسبانية ، وهي الاميرة سارة حفيدة ملك اسبانيا غيطشة Witiza القوطي . وقد تزوجها عيسى ابن مزاحم مولى هشام بن عبد الملك عندما ذهبت إلى دمشق لبحث ميراث أبيها ثم عادت معه إلى اسبانيا ومن سلالتها جاء مؤلف هذا الكتاب الذي يعتبر بحكم هذا الزواج المختلط من طبقة المولدين . وقد تأثرت كتابته بتلك النزعة الوطنية الاسبانية فنراه يمدح الامير القوطي ارطباس بن غيطشة ويصفه بالسياسة والعلم بينما يهاجم القائد العربي الصميل بن حاتم ويصفه بالجهل والامية ويسوق في ذلك قصة المعلم الذي كان يقرأ على الصبيان الآية « وتلك الأيام نداولها بين الناس فقاطعه الصميل بأن الآية تقول « وتلك الأيام نداولها بين العرب » وبعد أن اقتنع الصميل بخطأ رأيه صاح قائلاً « سبحانك ربي أن تجعل الحكم في أراذل الناس دون العرب » !

فنزعة ابن القوطية في هذا الكتاب نلاحظ فيها تعصبا ضد الجنس العربي وضد السيادة العربية ، ولهذا يمكن أن نعتبرها النواة الاولى لحركة الشعوبية في اسبانيا ، وان كانت هذه الحركة لم تظهر بوضوح الا في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري (١١م) على يد ابن غرسية الشعوبي في رسالته المعروفة التي يهجو فيها العرب .

والمعروف أن الشعوبية لم تهاجم الاسلام كدين وانما هاجمت السيادة العربية على البلاد ، فأبن القوطية كان مسلما بل ومتعصبا للاسلام وضليعا في العلوم الفقهية واللغوية وله كتاب آخر في النحو يعرف بكتاب الأفعال ، انما كل هذا لم يمنعه من أن يظهر سخطه على العرب الذين سيطروا على مرافق البلاد وحرموا منها طبقة المولدين التي ينتمي اليها .

وكتاب تاريخ الاندلس لابن القوطية يتناول الاحداث التاريخية التي مرت بالاندلس منذ الفتح العربي حتّى وفاة الامير عبدالله الاموي سنة ٣٠٠هـ. ويفهم من سياق الاحداث ان الذي دون الكتاب هو أحد تلاميذه وليس ابن القوطية نفسه اذ ترد دائما عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قال ابن القوطية . وقد يؤيد ذلك ايضا أن المؤرخ القرطبي ابن الفرضي وهو من تلاميذ ابن القوطية لم يذكر هذا الكتاب في معجمه تاريخ علماء الاندلس ، مع انه ذكر مؤلفاته الاخرى مثل كتاب الافعال مثلا مما يدل على أن تاريخ ابن القوطية جمعه احد تلاميذه بعد وفاته بمدة من الزمان .

والكتاب نشره العالم الاسباني باسكوال دي جانيجوس P. Gayangos وترجمه الى الاسبانية المستشرق الاسباني خوان ريبيرا J. Ribera (مدريد ١٩٢٦)

٢ ـ كتاب أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها ، لمؤلف مجهول .

يبدأ بحروب العرب في بلاد المغرب والاندلس على عهد موسى بن نصير ، وقصة يوليان حاكم سبتة وعلاقة ابنته بملك القوط لذريق ، ويستمر في تاريخ هذه الفترة الاسلامية وينتهي بوفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠هـ. ه

ويعتبر هذا الكتاب مرجعا اساسيا في تاريخ تلك الفترة الاولى ، اذ أن مؤلفه قد تتبع اخباره من جميع مصادرها السماعية والكتابية ، وتوخى الدقة فيها بشكل جعل لرواياته قيمة تاريخية كبيرة . الا أننا نلاحظ أن الكتاب يتعصب للعرب وللسيادة العربية مما يدل على أن مؤلفه عربي صميم ، على عكس تاريخ ابن القوطية الذي يمثل وجهة نظر العناصر الغير عربية من الاسبان المسلمين .

وقد نشر كتاب أخبار مجموعة المستشرق الاسباني لافونتي الكنترا Lafuente Alcantara أما عن تاريخ تأليف هذا الكتاب فمختلف فيه ، فالبعض يجعله في القرن الرابع الهجري ، والبعض الاخر يجعله في القرن الخامس الهجري ، واستند كلا الفريقين على عبارة وردت في الكتاب وتتعلق بسياسة الخليفة الاموي

عمر بن عبد العزيز (ت١٠١هـ) وهي سياسة اقفال أو عودة الجيوش الاسلامية من أطراف الدولة مثل الهند وتركستان والدولة البيزنطية واسبانيا . فقد كان هذا الخليفة يرى استبدال سياسة العنف بسياسة الدعوة السلمية للاسلام وايقاف جميع العمليات الحربية في اطراف الدولة وعودة الجيش من هذه الجبهات ، ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه . فصاحب اخبار مجموعة يعلق على هذه السياسة العمرية بقوله في ص ٢٣ :

وكان رأيه انتقال اهلها منها (أي اسبانيا).... وليت الله كان ابقاه حتى يفعل ، فان مصيرهم (أي المسلمين) الى بوار ، الا أن يرحمهم الله».

هذا النص هو الذي اعتمد عليه المؤرخون في تحديد القرن الذي ألف فيه هذا الكتاب :

فالمستشرق الهولندي رينهارت دوزي R. Dozy (ت١٨٨٤م) يرى أن الفترة السيئة التي مرت بالمسلمين في الاندلس هي فترة ملوك الطوائف التي تفككت فيها الدولة بعد سقوط الخلافة الاموية بالأندلس . وعلى هذا الاساس افترض أن كتاب اخبار مجموعة ألف في القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي .

أما المستشرق الاسباني خوليان ريبيرا J. Ribera (ت ١٩٣٣م)، فيرى أن فترة الحروب الداخلية التي سادت الاندلس عقب وفاة الامير عبد الرحمن الثاني واستمرت حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر ، قد نتج عنها صهر جميع العناصر الاندلسية في أمة واحدة تحكم بيد أبنائها جميعا بحيث لم يعد للأرستقراطية العربية تلك المكانة المرموقة التي كانت لها من قبل . ولما كان صاحب كتاب أخبار مجموعة عربي قرشي صميم كما هو واضح من كتابته ، فان حالة المسلمين في نظره هو كانت سيئة في ذلك الوقت بعد أن فقد الجنس العربي نفوذه القديم . وعلى هذا الأساس افترض المستشرق الاسباني ريبيرا أن تأليف هذا الكتاب حدث في القرن الرابع الهجري في عصر عبد الرحمن الناصر .

وكيفما كان الامر فإن كتاب أخبار مجموعه يعتبر مرجعا اساسيا في تاريخ الأندلس .

٣ — كتاب وصف الأندلس لأحمد بن محمد الرازي ويعرف بأبن لقيط الكاتب (ت٣٤٤هـ) (٩٥٥م) وهو يصور خطط الاندلس ومدنها وحصونها أقسامها الادارية وصلة كل قسم بالآخر من الناحية الجغرافية . وهذا الكتاب مفقود للأسف ، ولكن لحسن الحظ أنه ترجم الى اللغة البرتغالية في القرن السابع الهجري (١٣م) بواسطة أحد القساوسة البرتغال اسمه خيل بـيرث Gil Perez وعن هذا الترجمة نقل الى اللغة الاسبانية بعنوان Cronica del moro Rasis كذلك نقل عن كتاب الرازي كثير من المؤرخين الاندلسيين المتأخرين مثل ابن غالب الغرناطي في كتابه فرحة الأنفس (نشره لطفي عبد البديع في مجلة معهد المحفوظات للجامعة العربية سنة ١٩٥٥) ومثل البكري وابن الأبار وابن الخطيب وابن الشباط وغيرهم .

٤ — تاريخ عيسى بن احمد الرازي :

يلاحظ انه ابن الجغرافي احمد الرازي السالف الذكر . وقد عاش عيسى في اواخر القرن الرابع الهجري واشتغل في البلاط الأموي بقرطبة ، وكتب تاريخا عاما للأندلس حتى نهاية عصر الخليفة الحكم المستنصر . وهذا الكتاب مفقود للأسف ، انما اعتمد عليه المؤرخون الذين جاؤا بعده أمثال ابن حيان وابن عذاري ، وابن الخطيب فحفظوا الكثير من هذا التراث الضائع .

٥ — مختصر تاريخ الطبري للمؤرخ والطبيب القرطبي عريب بن سعد
(ت. ٣٧٠هـ سنة ٩٨٠ م)

قد يبدو من عنوان هذا الكتاب أنه مجرد اختصار لتاريخ الطبري في حين أنه في الواقع ذيل على تاريخ الطبري ولا سيما في احداث المغرب والاندلس التي هي من كتابة عريب بن سعد ، اذ أن الطبري لم يتكلم الا عن تاريخ المشرق

خاصة . وقد نشر دي خويه الجزء الخاص بتاريخ المشرق من كتاب عريب [1] . أما الجزء الخاص بتاريخ المغرب والاندلس . فلا نعلم عنه سوى ما قاله دوزي من ان ابن عذاري قد نقل قطعا منه في الجزء الثاني من كتابه البيان المغرب [2] .

لقد كان عريب بن سعد طبيبا للحكم المستنصر الى جانب كونه كاتبا ومؤرخا . وقد كتب كتابا في امراض النساء ، وكتابا آخر سماه تقويم قرطبة ، وهو تقويم حسابي فلكي يتناول علاقة الشمس بالمحاصيل الزراعية في فصول السنة المختلفة . وقد نشره دوزي كملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذاري تحت عنوان : تقويم قرطبة سنة (٩٦١م)
Le Calendrier de Cordoue de l'année 961.

٦ – تاريخ علماء الاندلس :

للمؤرخ القرطبي أبي الوليد بن محمد الازدي المعروف بأبن الفرضي المتوفي سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م) قتله البربر في فتنة الامويين بقرطبة .

ويقع الكتاب في جزأين وهو عبارة عن تراجم لعلماء الاندلس حتى عصره ، يذكر فيها اخبارهم وآثارهم وسيرهم وبلدانهم وانسابهم ومواليدهم ووفياتهم بصورة مختصرة وقد نشره العالمان الاسبانيان كوديرا وريبيرا في مدريد .

٦ – كتاب القضاة بقرطبة لمحمد بن حارث الخشني (ت.٣٦٠هـ)

عاش هذا العالم في مدينة القيروان ثم انتقل الى الاندلس بدعوة من الخليفة الاموي الحكم المنتصر الذي طلب منه تأليف هذا الكتاب وأباح له الاستفادة من مكتبة القصر الملكي التي كانت عامرة بالكتب والمراجع .

---

(١) راجع (عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ، نشر دي خويه De Goeje (ليدن ١٨٩٧) .

(٢) عندما نشر دوزي كتاب البيان المغرب كتب في الصفحة الأولى : « الجزء الأول واختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطان والجزء الثاني واختلطت به قطع من تاريخ عريب بن سعد .

وعلى الرغم من ان هذا الكتاب لا يعتبر كتابا تاريخيا بمعنى الكلمة ، الا أنه مهم جدا في معرفة الحياة الاجتماعية في الاندلس في العصر الاموي ، اذ كثيرا ما يشير الى عادات الاندلسيين ولباسهم ولغتهم ، مثل اشارته الهامة الى انتشار اللغة الاعجمية أو الرومانسية أي الاسبانية القديمة Romance بين الاندلسيين عموما الى درجة أن بعض القضاة كانوا يتقنونها ويناقشون المتهمين بها اثناء المحاكمة (١) . كذلك يعطينا الخشني في كتابه معلومات قيمة عن نظام القضاء في الاندلس ويقارن بينه وبين نظام القضاء في المشرق . فكبير القضاة في الاندلس كان يسمى بقاضي الجماعة ولكن نفوذه كان قاصرا على العاصمة فقط ، فلم يكن له سلطان على بقية القضاة في الاقاليم الاندلسية فهم مستقلون بأنفسهم والخليفة هو الذي يعينهم أو يعزلهم ، ولا يمتاز قاضي الجماعة عنهم الا من الناحية الادبية باعتباره قاضي العاصمة ومستشار الخليفة . أما في المشرق فكبير القضاة في مصر أو العراق مثلا كان يعرف بقاضي القضاة وكان نفوذه أوسع بكثير من قاضي الجماعة في الاندلس ، فهو الذي يعين ويعزل القضاة في جميع الاقاليم فهو قاضي الدولة كلها ومن سواه في الولايات نواب عنه .

نشر هذا الكتاب وترجمه الى الاسبانية المستشرق الاسباني ريبيرا Ribera .

ثالثا : مؤرخو القرن الخامس الهجري (١١م):

اذا انتقلنا الى القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي نجد أيضا نخبة ممتازة من المؤرخين الاندلسيين نذكر منهم :

١ — ابو مروان بن حيان القرطبي (ت سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)

ويعتبر من اعظم مؤرخي اسبانيا الاسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط ، فهو بمنزلة الطبري بالمشرق . وقد امتازت رواياته بالدقة والعمق والنظرة

(١) راجع أمثلة على ذلك في الصفحات ٩٦ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٨٧ — ١٨٨ من هذا الكتاب .

التحليلية الصائبة ، كما امتازت عباراته بالقوة والمرونة حتى صار اسلوبه معروفا بطابعه الخاص .

وقد كتب ابن حيان مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين ، ضاعت كلها تقريبا ولم يبق منها الا اجزاء يسيرة نذكر منها كتابه المع وف باسم :

المقتبس في اخبار بلد الاندلس :

ويتناول تاريخ الاندلس من الفتح العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري أي حتى قبيل عصر ابن حيان . ولهذا اضطر ابن حيان الى اقتباس مادة كتابه من كتب المؤرخين الذين سبقوه وخصوصا عيسى الرازي ، ولهذا سماه ابن حيان بالمقتبس .

ولقد وصل الينا من كتاب المقتبس أربع قطع منفصلة :

القطعة الاولى : وتتناول عصر الحكم الربضي وجزءا من عصر عبد الرحمن الاوسط وقد نشرها الدكتور محمود مكي (تحت الطبع).

والقطعة الثانية : وتتناول عهد الامير عبدالله الاموي ، ونشرها الراهب الاسباني ملتشور انطونيا Melchor Antuna الذي قتلـه الشيوعيون في الحرب الاهلية الاسبانية الاخيرة .

والقطعة الثالثة : وتتناول معظم عهد عبد الرحمن الناصر وقد اكتشفت حديثا في خزانة القصر الملكي بالرباط ولا تزال مخطوطة .

والقطعة الرابعة : وتتناول عصر الحكم المستنصر ، ونشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي .

الى جانب كتاب المقتبس ألف ابن حيان كتابا آخر أسماه المتين ، وهو يؤرخ الفترة التي عاش فيها المؤلف وشاهد احداثها بنفسه . وهذا الكتاب مفقود للأسف ولكن المؤرخين الذين جاؤا بعده نقلوه عنه ، وحفظوا لنا في كتبهم جزءا

ولقد اعتنق ابن حزم المذهب الظاهري الذي نشأ بالمشرق على يد داود بن علي الاصبهاني ، ويرمي التمسك بظاهر القرآن أي بمعناه اللفظي . وطاف ابن حزم بدول الطوائف مدافعا عن مذهبه ، فاصطدم بفقهاء المالكية الذين تعاونوا مع الحكام وكونوا دكتاتورية مالكية في الاندلس . وكانت النتيجة ان اصطدم بهم ابن حزم وهاجمهم بشدة وعنف ، فأعلنوها عليه حربا شعواء ، وألبوا عليه الناس ، فامتنعوا عن سماع دروسه في جامع قرطبة ثم أمر المعتضد بن عباد لملك اشبيلية بحرق كتبه وتحريم قراءتها . وقد قال ابن حزم في هذا الصدد :

ان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل أن أنزل ويدفن في قبري .

وعندما فشل ابن حزم في نشر مذهبه ، اعتزل الناس في بيته الريفي بضواحي مدينة لبله Niebla بالقرب من اشبيلية في غرب الاندلس . وهناك ألف عدة كتب لم تتخطى عتبة داره كما يقول معاصره ابن حيان . وتوفي ابن حزم في بيته سنة ٤٥٦هـ عن واحد وسبعين سنة .

كان ابن حزم اديبا ومؤرخا وفقهيا ، ولهذا جاءت مؤلفاته خليطا من هذا وذاك ، فهي كلها تصور حياته في تقلباتها المختلفة ، ومن أهمها نذكر : —

١ — كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف :

هذا الكتاب كما يقول ابن حزم في مقدمته عبارة عن رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة .

ألف ابن حزم هذا الكتاب في ايام شبابه سنة ٤١٠هـ، فهو يصور حياته المرحة ، والايام السعيدة التي قضاها في قرطبة أيام صباه . ولم يعتمد ابن حزم في كتابه على ما كتبه الاقدمون من اشعار الغزل وأخبار العشاق وبكاء الاطلال

والدمن ، بل سلك طريقا مستقلا يبين نضجه واصالته واعتداده بنفسه . وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه :« ودعني من ذكر أخبار الاعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الاخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي ». ويقول ايضا :

أنا الشمس في جو العلــوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعيَ الغربُ .

ولقد اهتم المستشرقون بكتاب طوق الحمامة لأنه يعتبر اول دراسة نفسية تحليلية لعاطفــة الحبّ والمحبين ، فترجموه الى لغات عديدة مثل بتروف Petrof الروسي ، ونيكل Nykle الامريكي ، وبرشيه Bercher الفرنسي ، وغرسية غومز Garcia Gomez الاسباني .

٢ ــ كتاب الفِصَل في الملل والاهواء والنحل :

هذا الكتاب يختلف تماما عن كتاب طوق الحمامة : اذ أنه يتناول دراسة الاديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة ومقارنة بعضها بالبعض الآخر .

ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة وهو « التاريخ المقارن للأديان »، لم يوجد في اوروبا الا في القرن التاسع عشر الميلادي ، وهذا يرينا أهمية كتاب الفصل الذي ألفه ابن حزم في القرن الحادي عشر الميلادي .

نشر هذا الكتاب في القاهرة من قديم سنة ١٣٢١ﻫ وكتب على هامشه كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي عاش بعد ابن حزم بنحو قرن من الزمان . وقد ترجم كتاب الفصل الى الاسبانية في خمسة اجزاء بواسطة الراهب الاسباني المشهور اسين بلاثيوس Asin Palacios الذي خصص الجزء الاول ونصــف الجزء الثاني كدراسة تفصيلية هامة عن ابن حزم .

٣ ــ كتاب جمهرة انساب العرب :

ويتناول الكلام عن الأسر العربية والبربرية والاسبانية الاصل التي عاشت

في الأندلس . نشره ليفي بروفنسال في مجموعة ذخائر العرب سنة ١٩٤٨ .

٤ ـ نَقْطُ العروس في اخبار بني أمية بالأندلس :

وهو عبارة عن تراجم متفرقة لخلفاء بني أمية في الاندلس مع الاهتمام بالأحداث الغريبة النادرة التي وقعت في عهدهم .

وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني زيبولد Seybold سنة ١٩١١ ، ثم أعاد نشره الدكتور شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٤ . كما ترجمه الى الاسبانية المستشرق الاسباني لويس سيكو دي لوثينا L. Seco de Lucena .

٥ ـ رسالة الأخلاق والسير في مداواة النفوس :

وهي بمثابة مذكرات شخصية تعبر عن مشاعره النفسية في تلك الفترة الاخيرة . وقد ترجم هذا الكتاب الى الاسبانية المستشرق الاسباني آسين بلاثيوس سنة١٩١٦ .

ولقد انتشر مذهب ابن حزم الظاهري بعد وفاته بمدة . فمن المعروف أن المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين من مزج بعض تعاليم ابن حزم في دعوته ولا سيما ما يتعلق منها بمحاربة التقليد والاحتكار المذهبي وكان هدفه من ذلك هو محاربة نفوذ المالكية الذي كان قد ازداد في عهد دولة المرابطين .

وبعد سقوط دولة الموحدين في القرن السابع الهجري (١٣م) اضمحلت مدرسة ابن حزم وان كانت آثارها ظلت باقية في المغرب عدة قرون . ويروي ابن الخطيب في هذا الصدد ان الفقيه عبد المهيمن الأشجعي البلذودي (بلذود من أعمال مالقة) كان يقلد مذهب أبي محمد بن علي بن حزم الفقيه الظاهري ويصول بلسانه على من نافره بالأندلس والمغرب وانتهى الأمر بقتله في فاس سنة ٦٩٧هـ من جراء هجوه لشاعر بني مرين أبي فارس (١) عزوز .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة لوحه ٢٧٧ .

والى جانب كل هذا كان ابن حزم موضع مديح الكثيرين من فلاسفة المسلمين أمثال الغزالي وابن رشد ومحيي الدين بن عربي .

٣ ـ أبو بكر الطرطوشي : (ت سنة ٥٢٠هـ ـ ١١٢٦م)

هذا العالم المتصوف ابو بكر الطرطوشي عاش معظم حياته في القرن الخامس الهجري ، وينتسب الى بلدة طرطوشة Tortosa في شمال شرق اسبانيا . وعلى الرغم من كونه اندلسيا الا أنه لم يشارك في الاحداث السياسية التي مرت ببلاده كما فعل معاصره ابن حيان وابن حزم لأنه رحل الى المشرق في شبابه وطاف بانحاء العراق والشام ومصر ، واستقر اخيرا في مدينة الاسكندرية أيام الفاطميين الى أن مات بها . ولا يزال قبره يزار هناك في شارع الباب الاخضر في منطقة الجمرك .

وقد ترك لنا الطرطوشي كتابا بعنوان «سراج الملوك» ، ألفه في مصر واهداه الى وزيرها المأمون البطائحي في عهد الخليفة الآمر الفاطمي . وهو كتاب في الآداب السلطانية ، اذ يتناول الصفات التي يجب أن يتحلى بها الملوك ، والاعمال التي ينبغي أن يقوموا بها في اوقات السلم والحرب . ويتعرض الطرطوشي في معرض كلامه للنظم الحربية والخطط العسكرية التي اتبعتها الجيوش الاندلسية على عهد الامويين. وهذا هو النص الوحيد الذي لدينا تقريبا حول هذا الموضوع ، ومن هنا تظهر أهمية كتاب سراج الملوك [١] .

والكتاب طبع في القاهرة سنة ١٣٥٤هـ.

وقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب واستخدموا مادته في كتبهم ونذكر على سبيل المثال المستشرق الهولندي دوزي . الذي نقل اجزاءا كبيرة منه في الجزء الثاني من كتابه المعروف باسم :

Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne (Amesterdam 1965)

---

(١) راجع أمثلة على ذلك في الصفحات ٢٢٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣١ من هذا الكتاب (الطبعة المصرية) .

وكذلك المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في كتابه :

L'Espagne Musulmane au Xème siècle, Paris 1932.

وهناك ايضا المؤرخ الاسباني الاركون Alarcon الذي ترجم الكتاب برمته الى الاسبانية بعنوان Lampara de los Principes

وللطرطوش كتاب آخر صغير لا يخلو من معلومات مفيدة في الحياة الاندلسية عنوانه «الحوادث والبدع» نشره محمد الطالبي بتونس سنة ١٩٥٩ .

٤ ــ مذكرات الامير عبد الله بن زيري الصنهاجي ملك غرناطة (١٠٧٣ ــ ١٠٩٠م)

هو آخر ملوك غرناطة في عصر ملوك الطوائف بالأندلس وقد انتهى حكمه على يد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين . ويلاحظ أن هذا الملك ينتمي الى قبيلة صنهاجة التي ينتمي اليها المرابطون ايضا . وفي هذا الصدد يروى أن والدة هذا الملك عبدالله قالت له حينما دخل المرابطون غرناطة : «انزل وسلم على عمك يوسف بن تاشفين». ولعل هذه القرابة هي التي شفعت له عند المرابطين فلم يقتلوه كما قتلوا بعض ملوك الطوائف لتعاونهم مع العدو وتخاذلهم عن تأييد المرابطين ، فاكتفوا بنفيه هو والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية الى مدينة اغمات في جنوب المغرب .

ويلاحظ أن اغمات في ذلك الوقت كانت مركزا حضاريا وعلميا ممتازا اذا ما قورنت بالعاصمة مراكش التي بناها المرابطون لتكون قاعدة عسكرية لجيوشهم ولعل هذا هو السبب الذي جعل يوسف بن تاشفين يرسل كلا من المعتمد بن عباد ، وعبدالله بن زيري الى اغمات لتوفير سبل الراحة لهما لأن مراكش كانت مدينة عسكرية جافة غير صالحة للسكنى وتسمى تاجرارت ومعناها بالبربرية المحلة العسكرية .

ولقد امضى المعتمد بن عبد بقية حياته في المنفى بقول شعرا حزينا ، بينما

عكف عبدالله بن زيري على كتابة مذكراته الخاصة التي تضمنت معلومات تاريخية هامة عن عصر ملوك الطوائف بصفة عامة . وقد اطلع عليها بعد ذلك الوزير الغرناطي ابن الخطيب اثناء زيارته لأغمات في القرن الثامن الهجري وأشار الى اهميتها .

ونشر هذه المذكرات حديثا المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة الأندلس الاسبانية سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ثم نشرها بعد ذلك في كتاب مستقل بالقاهرة تحت عنوان مذكرات الامير عبدالله بن زيري آخر ملوك غرناطة .

رابعا : مؤرخو القرن السادس الهجري(١٢م) :

اذا انتقلنا الى القرن السادس الهجري ، نجد عددا من الموسوعات الأدبية التاريخية ، ومن كتب التراجم المختلفة التي تضمنت سير الملوك والعلماء والشعراء... الخ . وهي كتب مهمة جدا للدراسات التاريخية . ومن أهم هذه الموسوعات والكتب :

١ ـ كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي حسن علي بن بسام الشنتريني (نسبة الى شنترين Santaren في غرب الاندلس البرتغال) (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م هذا الكتاب كما قلنا موسوعة ادبية تاريخية تضمنت تراث القرن الخامس الهجري (١١م) وهي الفترة العلمية المزدهرة التي جمعت بين عصري الخلافة الاموية وملوك الطوائف . ولما كان المؤلف ، ابن بسام ، أديبا وليس مؤرخا ، فقد اعتمد في الجزء التاريخي من كتابه على ما كتبه المؤرخ المشهور ابن حيان في كتابه المتين ، فحفظ لنا الشيء الكثير من هذا الكتاب الضائع .

وكتاب الذخيرة ينقسم إلى أربعة أقسام على حسب الاقاليم الجغرافية الاندلسية كل قسم منها يتكلم عن تاريخ هذا الاقليم وعن ملوكه وأمراءه وشعرائه ... الخ . فالقسم الاول : يتناول قرطبه وما يجاورها من بلاد وسط الاندلس وقد نشر معظم هذا القسم في لجنة التأليف والنشر بالقاهرة .

القسم الثاني : يتناول اشبيليه ومنطقة غرب الاندلس . ولا يزال هذا القسم مخطوطاً في جامعة اكسفورد .

القسم الثالث : يتناول بلنسبة وشرق الاندلس Levante . ولا يزال هذا القسم مخطوطاً وتوجد منه نسخ في الاكاديمية التاريخية بمدريد وفي مكتبة الجامعة العربية بالقاهرة .

القسم الرابع : ويتناول الكلام عن الغرباء الذين وفدوا على الاندلس من المشرق أو من المغرب . وقد نشر جزء منه في القاهرة .

٢ — والى جانب ابن بسام نذكر ايضاً الفتح بن خاقان الغرناطي الذي قتل سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م) وقد ترك لنا كتابين من هذا النوع من المختارات الادبية والتاريخية وهما : قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس . وتجدر الاشارة إلى أن هذا الاديب الاندلسي هو غير ابن خاقان المشرقي الذي كان وزيراً للخليفة العباسي المتوكل والذي توفي سنة ٢٦٣هـ (٨٧٧م) .

٣ — وهناك ايضاً العالم الاشبيلي ابن خير (المتوفي ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) .

وقد كتب كتاباً بعنوان : الفهرس للكتب المصنفة في ضروب العلم وانواع المعارف . والكتاب كما هو واضح من عنوانه يتضمن اسماء المؤلفات والدواوين التي ظهرت في الاندلس حتى أيامه أو بمعنى آخر يتناول حركة التأليف في الاندلس . ويقع في جزأين . نشره العالمان الاسبان كوديرا وريبيرا في مدريد .

٤ — كذلك نذكر العالم المرسي االضبي (المتوفي سنة ٥٩٨هـ أ ١٢٠٢م) .

وقد ألف كتاباً بعنوان « بغية الملتمس في تاريخ علماء الاندلس .
ويتضمن تراجم الملوك وعلماء الاندلس والوافدين عليها حتى اواخر القرن السادس الهجري .

٥ — كذلك نذكر المؤرخ القرطبي ابن بشكوال (وهو تحريف للإسم الاسباني Pascual) المتوفي سنة ٥٧٧هـ ؛ ١١٨٢م وله كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، ويقع في جزئين :

وواضح من عنوان الكتاب انه صلة أو تكملة لكتاب آخر وهو تاريخ علماء

الاندلس للمؤرخ القرطبي ابن الفرضي السالف الذكر في طبقة علماء القرن الرابع الهجري . وقد سار ابن بشكوال على نهج ابن الفرضي في طريقة تأليفه اذ يقول هو هو نفسه في مقدمة كتباه « : ورتبته على حروف المعجم ككتاب ابن الفرضي وعلى رسمه وطريقته .

٦ — وهناك مؤرخ كبير عاش في القرن السادس الهجري ايضاً وهو عبد الملك بن محمد بن احمد الباجي الشهير بابن صاحب الصلاة (توفي سنة ٥٧٨هـ — ١١٨٢م) وعنوان كتابه طويل جداً نذكر منه : « تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور المهدي بالموحدين » .

والكتاب مهم جداً في دراسة تاريخ دولة الموحدين في المغرب والاندلس وقد نشره الاستاذ عبد الهادي التازي . (بيروت ١٩٦٤)

٧ — ونختم علماء القرن السادس بعالم جغرافي مشهور وهو الشريف أبو عبدالله محمد الادريسي (٤٩٣ — ٥٤٨هـ — ١١٠٠ — ١١٥٤م) وواضح من اسمه انه من سلالة الادارسة (ابن حفيد ادريس الثاني الحمودى صاحب مالقة) ولد بمدينة سبته في المغرب الاقصى ودرس بقرطبة وطاف بانحاء العالم الاسلامي والاوروبي مطلعاً على احوال تلك البلاد وعادات أهلها ثم استدعاه الملك النورماندي روجر أو روجار الثاني صاحب صقلية ، فلبى الادريسي دعوته ورسم له صورة أو خريطة للعالم المعروف في عصره على دائره فضية مسطحة Planisphere طولها ثلاثة أمتار ونصف وعرضها متر ونصف كذلك ألف لـه كتاباً لوصف هذه الخريطة وهو كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ويعرف ايضاً بالكتاب الروجاري أو كتاب روجار ، لأن روجار هو الذي طلبه منه .

ولقد اهتم المستشرقون بهذا الكتاب القيم وعملوا على نشر اجزائه وترجمتها إلى اللغات المختلفة . ومن أهمها القسم الخاص بالمغرب وأرض السودان ومصر والاندلس الذي نشره وترجمه إلى الفرنسية العالم الهولندي دوزي .

خامسا : مؤرخو القرن السابع الهجري (١٣م) :

في القرن السابع أي على عهد الموحدين كان المغرب والاندلس يكونان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش التي ازدهرت فيها الحياة الفكرية والعلمية وظهرت فيها نخبة من كبار الفلاسفة والاطباء امثال ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وغيرهم . كذلك ظهر عدد من كبار المؤرخين نذكر منهم :

١ ــ عبد الواحد المراكشي :

كتب في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م تاريخه المعروف باسم :

« المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ويقع في جزء واحد . والمقصود بكلمة المغرب هنا هو بلاد المغرب والاندلس معاً . ومعظم هذا الكتاب يتناول تاريخ دولة الموحدين التي نشأ المؤلف في كنفها ولكنه على سبيل الاستطراد قدم له بمقدمة موجزة في تاريخ المغرب والاندلس منذ الفتح العربي فصار الكتاب تاريخاً عاماً للاندلس له قيمة تاريخية وأدبية عظيمة ولا سيما فيما يتعلق بالموحدين لأنه بقلم رجل معاصر . وقد نشر هذا الكتاب في عدة طبعات نذكر منها طبعة دوزي القديمة ، وطبعة سعيد العريان الحديثة .

٢ ــ ابو العباس احمد بن عذارى المراكشي (كان حياً سنة ٧١٢هـ)

صاحب كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب . وهو تاريخ عام للمغرب والاندلس منذ الفتح العربي حتى بداية عصر بني مرين ويقع في عدة اجزاء :

الجزء الاول والثاني يتناولان المغرب والاندلس إلى سقوط الخلافة الاموية . نشرهما دوزي سنة ١٨٥٠ . ثم جاء ليفي بروفنسال فأعاد نشرهما مع اضافة جزء ثالث تضمن عصر الطوائف سنة ١٩٣٠ . ثم نشر المستشرق الاسباني أويثي ميراندا وابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت جزءاً رابعاً عن تاريخ الموحدين وبداية عصر بني مرين . واخيراً نشر أويثي ميراندا في مجلة هسبرس Hesperis سنة ١٩٦١ ، قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين من البيان المغرب .

هذا وتوجد طبعة تجارية لبنانية للجزأين الاول والثاني ولكنها بدون تحقيق أو تعليقات.

٣ — ابن سعيد المغربي : (ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد المتوفي سنة ٦٨٥هـ سنة ١٢٧٤ م) :

ينتمي إلى أسرة من المؤرخين هي اسرة بني سعيد التي حكمت قلعة يحصب أو قلعة بني سعيد من أعمال غرناطة في القرنين السادس والسابع الهجري ، وتسمى اليوم Alcala la Real .

وقد تضافر أفراد هذه الاسرة على كتابة تاريخ شامل للأندلس في مدة استغرقت أكثر من مائة سنة . وعنوان هذا الكتاب هو المغرب في حلى المغرب ، وكان ابو الحسن علي بن سعيد هو آخر افراد هذه الاسرة الذي أكمل هذا الكتاب وأخرجه في صورته النهائية .

ولد ابن سعيد في قلعة يحصب بغرناطة ، وتعلم في اشبيليه ثم غادر الاندلس وهو في سن الثلاثين ورحل إلى المشرق حيث ادى فريضة الحج وطاف بأنحاء العراق والشام ومصر وتونس وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٨٥هـ ، وان كان البعض يرى انه مات بتونس .

وكتاب المغرب في حلى المغرب ضاع معظمه ولم يبق منه سوى اجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الاندلس من العصر الاموي حتى نهاية عصر الموحدين . وقد نشر الدكتور شوقي ضيف بعض هذه القطع في جزئين من مجموعة ذخائر العرب بالعنوان نفسه « المغرب في حلى المغرب » . كذلك نشر العالم الاسباني جارثياً جومث قطعة من هذا الكتاب بعنوان رايات المبرزين Las banderas de las Campeones تناولت الكلام عن بعض شعراء الاندلس من القرن العاشر إلى الثالث عشر الميلادي . وكان ابن سعيد قد أهداها إلى حاكم القاهرة على أيامه موسى بن يغمور في عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه تورانشاه . ولما كانت مصر في تقسيم ابن سعيد الجغرافي تدخل في نطاق المغرب الاسلامي فقد خصها بنصيب كبير في تاريخه . ومن بقايا هذا التاريخ قطعة

بعنوان « العيون الدعج في حلى دولة بني طغج وهي تتناول تاريخ الدولة الاخشيدية في مصر ، نقلها ابن سعيد عن الحسن بن زولاق المصري . وقد طبعت هذه القطعة في ليدن .

هذا وقد حفظ لنا المؤرخون المتأخرون أجزاء كثيرة من كتاب المغرب لابن سعيد أمثال المقريزي في خططه ، ابن خلدون في تاريخه ، واحمد المقري في كتابه نفح الطيب من غصن اندلس الرطيب . والجزء الاول من هذا الكتاب الاخير يحتوي على فقرات طويلة من كلام بن سعيد .

٤ ـ محمد بن عبد الملك المراكشي (ت سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م).

ألف موسوعة تاريخية بعنوان : كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة وواضح من عنوان هذا الكتاب انه تذييل لكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ، وكتاب الصلة لابن بشكوال .

لا نعرف شيئاً كثيراً عن حياة هذا المؤرخ الكبير . وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين الذين جاءوا بعده قد نقلوا من كتبه ، الا أنهم لم يهتموا بكتابة ترجمة مفصلة لحياته . كل ما نعرفه عنه جاء في اشارات متفرقة وردت في كتاب الديباج المذهب لابن فرحون ، وكتاب درة الحجال لابن القاضي ، والمرقبة العليا للحسن النباهي ، وصلة الصلة لابن الزبير .

نشأ محمد بن عبد الملك في مدينة مراكش وتولى قضاءها ثم رحل إلى الاندلس واقتصر على زيارة الجزيرة الخضراء ثم عاد إلى وطنه . وكان في طبعه حدة وعنف ونقد لاذع مبني على الصراحة والحجة الدامغة . وربما كان هذا من اسباب عزله عن خطة القضاء ونفيه عن البلاد . يروي أنه لجأ إلى بني عبد الواد ملوك تلمسان رغم العداء القائم بينهم وبين بني مرين ملوك فاس . وهناك في تلمسان توفي سنة ٧٠٣هـ .

ويعتبر كتابه الذيل والتكملة قاموساً عاماً لرجال الاندلس ومن رحل اليها من

المغاربة والمشارقة حتى آخر القرن السابع الهجري . والكتاب مرتب على حروف المعجم وكان يقع في تسعة اجزاء ، سبعة لأهل الاندلس ، واثنان للغرباء الذين دخلوا الاندلس ثم ينهي الكتاب بتراجم للنساء الاندلسيات والمغربيات اللاتي زرن الاندلس .

ولقد ضاعت بعض اجزاء هذا الكتاب ، أما الاجزاء الباقية فيقوم بنشرها الاستاذان احسان عباس ومحمد بن شريفة ، وقد صدر بعضها فعلاً في بيروت .

٥ — المؤرخ البلنسي ابن الابار (محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)

وكلمة الابار تعني صانع الابر . والابرة هي مسلة الحديد والجمع ابر وابار . ولد ابن الابار في مدينة بلنسيه بشرق الاندلس سنة ٥٩٥هـ ودرس على والده وعلى غيره من علماء المدينة . ولما حاصر ملك أراجون خايمي الفاتح مدينة بلنسية ، فر ابن الأبار منها إلى سلطان تونس ابي زكريا الحفصي أقوى ملك بالمغرب في ذلك الوقت ، وطلب نجدته بقصيدة سينية مشهورة ، يقول في مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً　　　إنّ السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست　　　فلم يزل منك عز النصر ماتمسا

وقد بادر أبو زكريا باغاثة المدينة وامداد اهلها بالأموال والاسلحة والاقوات ولكن بعد فوات الاوان اذ سقطت المدينة في يد ملك اراجون سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) قبل ان تصلها النجدة .

واضطر ابن الابار وأسرته إلى الهجرة إلى تونس حيث عينه السلطان كاتباً له . ثم حدث ان غضب عليه السلطان فترك ابن الابار تونس واستقر في مدينة بجاية بحيث كتب كتابه « إعتاب الكتّاب » ذكر فيه من عوتب أو أعتب من الكتاب وعفى عنهم ، ثم رفعه إلى السلطان ابي زكريا مستشفعاً بولي عهده المستنصر بالله ، فعفا عنه السلطان وأعاده إلى الكتابة .

ولما مات السلطان ابو زكريا وخلفه ابنه المستنصر بالله سنة ٦٤٧ﻫ ، عاد ابن الأبار بغطرسته وكبريائه إلى اثارة غضب السلطان الجديد . وانتهز اعداؤه هذه الفرصة وأخذوا يكيدون له بشتى الوسائل ، فنسبوا اليه قصيدة فيها طعن في الخليفة يقول في مطلعها :

طغا بتونسَ خلقٌ سمّوه ظلماً خليفة

فغضب منه الخليفة المستنصر وأمر بقتله وحرقه سنة ٦٥٨ﻫ (١٢٦٠م) .
ولقد ترك ابن الابار عدة مؤلفات نذكر منها :

أ ـ كتاب التكملة لكتاب الصلة : أي تكملة لصلة ابن بشكوال السالف الذكر وهو عبارة عن تراجم لأسماء الملوك والعلماء الاندلسيين مرتبة حسب حروف الهجاء وفي آخر كل حرف يذكر المؤلف اسماء الغرباء الذين وفدوا إلى الاندلس من المشرق أو المغرب .

والكتاب نشر على عدة مراحل : نشره أول الأمر المستشرق الاسباني كوديرا في جزأين ضمن المكتبة العربية الاسبانية سنة ١٨٨٧ . ثم عثر على نسخة خطية أخرى في مكتبة سليمان باشا اباظة بالقاهرة تزيد على النسخة التي اعتمد عليها كوديرا ، فقام العالمان الاسبانيان Palencia, Alarcon بنشر ملحق خاص بهذا الجزء الزائد من كتاب التكملة سنة ١٩١٥ وعلى الرغم من ذلك ظل الكتاب ناقصاً من أوله أسماء الاعلام التي تبدأ بحروف أ،ب،ت، ، وأخيراً عثر الاستاذ محمد شنب الجزائري على هذا الجزء الناقص في مكتبة الاستاذ عبد الحي الكتاني ، فنشره في المجلة الافريقية Revue africaine 1923

ولا شك أن الكتاب يحتاج إلى طبعة جديدة تضم كل هذه المحاولات والمجهودات السالفة كي يسهل على الباحث الاطلاع عليها .

ب ـ كتاب المعجم لأصحاب الصدفي :

والصدفي ، هو أبو علي الحسين بن محمد السرقسطي الاندلسي . وكان قاضياً

ومحدثاً كبيراً وتوفي سنة ٥١٤هـ . وقد أهتم القاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ) ، بدراسة حياة هذا المحدث الكبير فألف معجماً أو فهرسة لشيوخ الصدفي . ثم جاء ابن الابار وكتب معجمه هذا الذي يحتوي على تراجم لتلاميذ الصفدي بغض النظر عن موطنهم ، ورتب أسماءهم حسب حروف الهجاء .

وللأسف معجم القاضي عياض مفقود ولكن معجم ابن الابار موجود ونشره كوديرا ضمن مجموعة المكتبة العربية الاندلسية .

حـ) كتاب الحلة السيراء :

أي الثوب المخطط كناية عما يتضمنه من أدب وشعر وتاريخ . والكتاب يتناول اخبار المغرب والاندلس منذ الفتح الاسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري وهو مقسم إلى قرون مستقلة تبدأ بالقرن الاول الهجري فيتكلم فيه عن موسى بن نصير وغيره من ولاة المغرب والاندلس وما قالوه من شعر ونثر . ثم ينتقل إلى القرن الثاني الهجري فيتكلم عن عبد الرحمن الداخل وغيره من امراء المغرب والاندلس وما تركوه من تراث أدبي ، ويستمر هكذا إلى نهاية الكتاب إلى المائة السابعة . والكتاب نشره دوزي في أول الامر ثم الألماني مولر ثم الدكتور حسين مؤنس حديثاً في جزأين (القاهرة ١٩٦٣) .

د) ولابن الابار كتب اخرى ادبية مثل اعتاب الكتاب الذي نشر معظمه السيد صقر (القاهرة ١٩٤٧) ، وكتاب تحفة القادم الذي عثر على مختصر له وهو مقتضب تحفة القادم الذي نشره بطرس البستاني في مجلة المشرق [1] .

سادسا : مؤرخو القرن الثامن الهجري (١٤م) :

اذا انتقلنا إلى القرن الثامن الهجري أو الرابع عشر الميلادي ، نجد أن مدن الاندلس وولاياتها قد سقطت كلها في ايدي الاسبان حتى انحصر ملك المسلمين

---

(١) راجع (عبد العزيز عبد المجيد : ابن الا بار حياته وكتبه ، تطوان (١٩٥١) .

هناك في رقعة ضيقة من الارض وهي غرناطة واحوازها في جنوب شرق اسبانيا . وبذلك انتقل الاسلام في الاندلس إلى مرحلته الختامية .

ولاشك أن هذه المحن والخطوب التي مرت بالمغرب الاسلامي قد جعلت المؤرخ فيه يتجه اتجاهاً فلسفياً عميقاً فيتعرف على علل الحوادث واسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران فيها ونحو ذلك . وهذا ما فعله فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه التي لم يكتب مثلها في الاسلام على الاطلاق .

وما يقال عن ابن خلدون يقال ايضاً عن معاصره وصديقه لسان الدين بن الخطيب وزير مملكة غرناطة في ذلك الوقت . فقد حاول هو الآخر تفسير الاحداث التاريخية بدراسة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية في الاندلس ، بل انه في بعض الأحيان كان يستعين بالآثار فينقل النقوش المكتوبة التي على شواهد القبور أو المنشآت الملكية . وقد سهل له منصبه كوزير مهمة الاطلاع على الوثائق الرسمية بديوان الانشاء بالقصر السلطان أي قصر الحمراء . فكتابة التاريخ في القرن الثامن الهجري لم تقتصر على الروايات الاخبارية ، بل تطورت إلى الاهتمام بالشؤون العامة للجماعات ، وتعليل الحوادث والنفاذ إلى اسرارها. ومن أهم مؤرخي هـذا العصر نذكر : —

١ — لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦هـ — ١٣١٣ — ١٣٧٤م)

ولد في لوشه Loja ، ودرس في غرناطة وشغف بالعلوم الطبية والفلسفية وأقبل يدرسها على العالم المشهور يحي بن هذيـل كما ظهرت براعته في قرض الشعر وتجلى علمه الواسع بالأدب العربي في سن مبكرة . ولم يلبث ابن الخطيب بفضل مهارته وذكائه أن دخل الوزارة ونال حظوة كبيرة عند ملوك بني نصر أو بني الأحمر، فصار وزيرهم الاول في عهد ابي الحجاج يوسف الاول وابنه محمد الخامس الغني بالله .

ولم يقتصر نشاط ابن الخطيب السياسي على مملكة غرناطة فحسب بل امتد

مؤثراً في سياسة دول المغرب مثل دولة بني مرين في فاس ودولة عبد الواد في تلمسان ودولة الحفصيين في تونس . كذلك اثرت سياسته في الممالك الاسبانية المسيحية مثل قشتاله واراجون والبرتغال ومحفوظ لدينا رسائل عديدة باللغات العربية والقشتالية تبودلت بين هذا السياسي الداهية وبين ملوك تلك البلاد جميعاً .

والى جانب هذا النشاط السياسي ، كان لأبن الخطيب عقلية موسوعية ستوعيت جميع انواع المعارف والفنون المعروفة في عصره وفي هذا يقول هو نفسه :

الطبُ والشعرُ والكتابــه سماتُنا في بني النجابه

وقد عرف عن ابن الخطيب أنه كان يخصص الليل للقراءة والتأليف يساعده في ذلك أرق اصابة ، بينما كان يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة ، ولهذا لقب بذي العمرين . ومن الغريب أن هذا المجهود الشاق الذي بذله ابن الخطيب في هاتين الناحيتين لم يحد من نشاطه وحيويته كوزير وعالم . كذلك نلاحظ أن حياته العلمية قد اختلطت بحياته السياسية وافادت كل منهما الاخرى . فمركزه السياسي كوزير أتاح له فرصة الاتصال بسفراء الدول المختلفة ومعرفة اخبار بلادهم ، وعادة ما كان هؤلاء السفراء من العلماء . كذلك اتاح له منصبه كوزير فرصة الاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة بقصر الحمراء ، واستخدام مادتها في مؤلفاته التاريخية .

وفي نفس الوقت ، كانت مواهب ابن الخطيب العلمية من اهم العوامل التي ساعدت على تقوية مركزه السياسي كوزير وذلك عن طريق الرسائل والقصائد والحكم والنصائح التي كان يرسلها إلى ملوك عصره من المسلمين والمسيحيين ؛ فكان لها تأثير كبير عليهم ، وكثيراً ما استجابوا لنصيحته ، فنجحت بذلك معظم اهدافه السياسية وحسبنا أن نشير إلى تلك النصائح التي ارسلها ابن الخطيب إلى ملك قشتاله بدور الاول (القاسي) باللغة الاسبانية ، والتي اوردها المؤرخ المعاصر لوبث دي أيالا في تاريخه لملوك قشتاله Lopez de Ayala : Cronica de les Reyes de Castilla J p. 483 - 493.

وفي سنة ٧٦٠ﻫ (١٣٥٩) حدث انقلاب في مملكة غرناطة أدى إلى خلع سلطانها محمد الغني بالله وتوليه اخيه اسماعيل بن يوسف مكانه . وقد تمكن السلطان المخلوع من الفرار إلى المغرب الاقصى والالتجاء إلى سلطانه أبي سالم ابراهيم المريني . وصحب السلطان محمد الخامس إلى المغرب بعض افراد حاشيته مماليكه ووزرائه نخص بالذكر منهم وزيره لسان الدين بن الخطيب .

وقد رحب بهم سلطان المغرب وانزلهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية . ودامت مدة النفي في المغرب ثلاث سنوات (٧٦٠ — ٧٦٣ﻫ) لم يخلد فيها ابن الخطيب إلى الراحة والخمول في العاصمة كما فعل مواطنوه ، بل عكف على القراءة والتأليف وقرض الشعر والتنقل بين البلدان المغربية لمشاهدة آثارها والاتصال بعلمائها . ثم انتهى به المطاف إلى مدينة سلا (بجوار مدينة الرباط) حيث استقر بها وبضاحيتها شاله Chella مرابطاً بجوار أضرحة ملوك بني مرين :

وتشاء الاقدار ان يصاب ابن الخطيب في أقرب وأعز الناس عليه، فتموت زوجته وأم اولاده التي كانت تقيم معه في بلد الغربة . وهنا تشتد آلامه وتغمره موجة من الحزن والتصوف تظهر اثارها بوضوح في نظمه ونثره . وفي هذا يقول : وصدر عني مما كتب على ضريحها :

رُوِّع بالي وهـــاج بلبـــالي	وسامني الثكـــل بعـــد اقبـــال
ذخيرتي حيـــن خانـــي زمني	وعدتي في اشتـــداد اهـــوالي
حفرت في داري الضريـــح لهـــا	تعللا بالمحـــال في الحـــال
وغبطـــة توهـــم المقام معـــي	وكيف لي بعدهـــا بامهـــال
قد كنت ما لي لما اقتضى زمنـــي	ذهاب مالي وكنـــت آمـــالي
امـــا وقد غاب في تراب ســـلا	وجهك عني فلست بالســـالي
فانتظريني فالشـــوق يقلقنـــي	ويقتضي سرعتـــي واعجـــالي
ومهدي لي لديـــك مضطجعـــا	فعن قريب يكـــون ترحـــالي

غير أن هذه الكارثة الفادحة لم تحد من حيوية ابن الخطيب ولا من قدرته على

التأليف ، اذ استمر في منفاه يقرأ ويكتب في شتى نواحي العلوم والفنون .

ومن أهم مؤلفاته في هذه الفترة :

أ ــ كتاب اللمحة البدرية في الدولة النصرية : ويتناول الكلام عن مملكة غرناطة وصفات أهلها وعاداتهم وتاريخ ملوكها ويقع في جزء واحد طبع في القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ .

ب ــ كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : وهو يصور حياة ابن الخطيب في هذه المدة التي قضاها في المنفى . ففيه نجد وصفاً لمشاهداته في البلاد المغربية مع ذكر الاحداث السياسية التي مر بها المغرب في تلك الفترة . وهذا الكتاب يقع في ثلاثة اجزاء ، كان معروفاً منها الجزء الثاني فقط وهو الذي قمت بنشره وتحقيقه في القاهرة ١٩٦٧) ثم عثر اخيراً في مكتبة الرباط على الجزء الثالث من هذا الكتاب القيم .

حـ ــ كتاب معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار : وهوعبارة عن رسالة في وصف بعض مدن المغرب والاندلس، كتبت في اسلوب فن المقامات المعروف في الأدب العربي. وقد نشر الجزء الخاص بالأندلس المستشرق الاسباني سيمونيت Simonet ونشر الجزء الخاص بالمغرب المستشرق الألماني مولر Muller وكذلك مطبعة أحمد يمني بفاس . ثم أعدت نشر الرسالة كلها من جديد ضمن مجموعة من رسائل ابن الخطيب تحت عنوان : « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس » (الاسكندرية ١٩٥٨) .

د ــ كتاب الحلل المرقومة في اللمع المنظومة : وهو ارجوزة أو ألفية في اصول الفقه . وهذا الكتاب مفقود غير أنه توجد بعض الشروح التي كتبت حوله مثل شرح ابن خلدون وشرح ابي سعيد بن لب المسمى بالطرر المرسومة على الحلل المرقومة .

هـ ــ كتاب رقم الحلل في نظم الدول : وهو أرجوزة تاريخية تتناول تاريخ الدول الاسلامية ، وقد اهداه إلى سلطان المغرب أبي سالم ابراهيم المريني .

والكتاب مطبوع في تونس في جزء واحد (١٣١٦ — ١٣١٧هـ) .

و — كتاب كناسة الدكان بعد انتقال السكان : وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية من املاء ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة وموجهة إلى سلطـــان فاس . وقد نص ابن الخطيب في بعض رسائله وكتبه انه جمعها بمدينة سلا في ذلك الوقت (١) . وقد نشر هذا الكتاب حديثا في القاهرة .

وفي سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه في غرناطة بعد حروب وخطوب شد ازره فيها ملك قشتاله بدرو القاسي وملك المغرب أبو سالم ابراهيم المريني . كذلك عاد ابن الخطيب ، بناء على طلب سلطانه . إلى سابق منصبه كوزير لمملكة بني الأحمر .

وباشر ابن الخطيب من جديد عمله السياسي في غرناطة ، ولكنه في الوقت نفسه عكف على القراءة والتأليف وكتب عدة مؤلفات نذكر منها :

كتاب الاحاطة في تاريخ غرناطة .

وهو عبارة عن تراجم للملوك وامراء وعلماء غرناطة وجميع الذين وفدوا عليها من المشرق والمغرب ، مرتبة اسماؤهم على حروف المعجم .

وقد ذكر ابن الخطيب ان الدافع الاساسي لتأليف هذا الكتاب هو حبه لوطنه غرناطة ، ورغبته في كتابة تاريخ لبلده كما فعل ابن عساكر في تاريخ دمشق ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عبد الحكم في تاريخ مصر .

وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ مبعثرة وناقصة بين مكتبات الغرب واسبانيا ومصر . وقد نشر عبدالله عنان الجزء الاول منه ، كما توجد طبعة مصرية قديمة غير كاملة في جزأين .

كذلك يوجد مختصر لكتاب الاحاطة كتبه في اواخر القرن الثامن الهجري

---

(١) راجع مقالنا (عن مؤلفات ابن الخطيب في المغرب ، (
Hespéris 1959, 3-4 Trimestres)

اديب مصري اسمه بدر الدين البشتكي وسماه « مركز الاحاطة » . وهو لا يزال مخطوطاً وتوجد منه نسخة في مكتبة الجامعة العربية . وهو مهم من حيث انه كتب من واقع النسخة الكاملة لكتاب الاحاطة ، ولذا احتفظ بأجزاء ضاعت من الاصل الموجود من كتاب الاحاطة .

والواقع ان نشر كتاب الاحاطة يحتاج إلى لجنة من الادباء والمؤرخين الجغرافيين ، لان المجهودات الفردية لا تكفي لنشر مثل هذه الموسوعة الضخمة المعقدة التي تحتاج إلى مجهود جماعي لتحقيق ما ورد فيها من اعلام وأماكن ، وشرح اسلوبه على أساس علمي صحيح .

كتاب ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب :

هذا الكتاب جمعه ابن الخطيب ايضاً في هذه الفترة ، وهو عبارة عن المراسلات السلطانية التي دارت بين ملوك غرناطة ، ومعظمها من انشاء ابن الخطيب وبين ملوك الدول المجاورة . وقد نشر منه فقط المراسلات التي دارت بين ملوك غرناطة وملوك فاس من بني الحق أو بني مرين في القرن الثامن الهجري . نشرها العالم الاسباني جاسبار رميرو مع ترجمة اسبانية تحت عنوان :

Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV.

وباستثناء هذا الجزء ، فان كتاب الريحانه لا يزال مخطوطاً ولم ينشر بعد .

ولقد رسم ابن الخطيب لغرناطة طوال حكمه كوزير مستبد ، سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب قوامها الارتباط بعجلة فاس ومحاولة ارضاء سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة غرناطة ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه» (١) .

وقد أثارت هذه السياسة معارضة الكثيرين من رجال الدولة ، فكثرت الدعايات ضده ، وتلبد الجو بينه وبين سلطانه محمد الخامس . واضطر ابن الخطيب آخر

(١) المقري : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣٤ .

الامر إلى الهروب إلى المغرب والالتجاء إلى سلطانه أبي فارس عبد العزيز المريني الذي رحب به وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب وذلك سنة ٧٧٣هـ (١٣٧١ م) .

على أن موضع الاهمية هنا ، هو ان ابن الخطيب الذي كان يلمس قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، رأى بعد ان استحكم العداء بينه وبين ملك غرناطة ، أن يسير في سياسته التقليدية المغربية إلى اقصى حدودها خطورة ، ألا وهي تحريض سلطان فاس على الاستيلاء على غرناطة ليصل بذلك إلى هدفه الرئيسي وهو تحقيق الوحدة مع المغرب . ويبدو أن هذه السياسة صادفت هوى في نفس السلطان عبد العزيز — لا سيما بعد أن ضم المغرب الاوسط إلى مملكته — فوعد بتنفيذها .

ولكن الظروف سرعان ما تغير الاحوال ، اذ يموت السلطان عبد العزيز بعد هذا الوقت بقليل سنة ٧٧٤هـ ويخلفه على عرش المغرب ابنه ابو زيان محمد السعيد وكان طفلا في الرابعة من عمره ، فاستبد بالأمر وزيره ابو بكر بن غازي ، وانقلبت الاوضاع السياسية في المغرب رأسا على عقب .

ورأى ابن الخطيب أن يتقرب الى السلطان الطفل ووزيره ، فألف كتابا مناسبا لهذا الوضع الجديد أسماه : « كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، وما يجر ذلك من شجون الكلام » .

وهذا الكتاب ربما كان آخر انتاج علمي لابن الخطيب ، وهو عبارة عن تاريخ عام للعالم الاسلامي وينقسم الى ثلاثة أقسام : —

القسم الاول : يتناول تاريخ المشرق الاسلامي من السيرة النبوية حتى عصر المماليك وهو لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد .

القسم الثاني : عبارة عن تاريخ عام للأندلس من الفتح العربي حتى عصر المؤلف أي حتى القرن الثامن الهجري . وقد اضاف اليه ابن الخطيب مختصرا لتاريخ الممالك المسيحية الاسبانية مثل قشتالة وأراجون والبرتغال . فهو أول تاريخ

شامل لاسبانيا وقد نشره المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٤ .

القسم الثالث : ويتناول تاريخ المغرب العربي من احواز برقة شرقا الى المحيط الأطلسي غربا حتى بداية عصر الموحدين ، وهي نهاية غير طبيعية بالنسبة للقسمين الاول والثاني التي بلغت عصر المؤلف نفسه مما يجعلنا نعتقد ان ابن الخطيب قد قتل قبل أن يتم هذا القسم الثالث والاخير من كتابه .

وقد قمت بنشر وتحقيق هذا القسم بالاشتراك مع الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني سنة ١٩٦٤ . نهاية ابن الخطيب كانت مأساة اذ تمكن سلطان غرناطة محمد الخامس من التدخل في شئون المغرب والقبض على ابن الخطيب وقتله وحرقه بعد امتحانه وتعذيبه ومصادرة امواله سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) لقد كان فقدان ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، اذ انقطع بموته أهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة .

٢ ــ عبد الرحمن بن خلدون : (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ ــ ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦م)

ولد في تونس ، ولكن اجداده أندلسيون من اشبيلية . وقد درس على عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين هاجروا الى تونس واستقروا فيها . وفي شبابه اجتذبه بلاط بني مرين في فاس للخدمة فيه ، وهناك اتصل ابن خلدون بالوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما نفي مع سلطانه الى المغرب ، وتوطدت بينهما صداقة متينة تظهر بوضوح في تلك الترجمة الدقيقة التي أفردها له ابن الخطيب بعد عودته الى وطنه في كتابه الاحاطة ، قال فيها :

«وأما المترجم به (أي ابن خلدون) فهو رجل فاضل حسن الخلق ، جم الفضائل ظاهر الحياء ، اصيل المجد ، وقور المجلس ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، شديد البحث صحيح التصور ، كثير الحفظ ، حسن العشرة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية . شرح البردة شرحا بديعا دل على غزارة حفظه ، وتفنن ادراكه ، ولخص كثيرا من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أبي سالم في العقليات تقييدا مفيدا في المنطق ،

ولخص محصل الامام فخر الدين الرازي ، وبه داعبته ، فقلت له : لي عليك مطالبة ، فانك لخصت محصلي (لأن الرازي كان يسمى أيضا بابن الخطيب)، وألف كتابا في الحساب ، وشرع في هذه الايام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال [١] . (يشير بذلك الى كتابه الحلل المرقومة في اللمع المنظومة وهو ألفية في اصول الفقه).

وفي سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) سافر ابن خلدون الى اسبانيا في مهمة رسمية تتعلق بتأكيد صلح بين ملك المغرب وملك قشتالة بدرو القاسي الذي كان مقيما في اشبيلية مقر اجداد ابن خلدون . وقد عرض عليه الملك الاسباني أن يبقى في اشبيلية وان يرد عليه املاك اسرته ، ولكن ابن خلدون اعتذر شاكرا ثم رحل الى غرناطة حيث لقي صديقه ابن الخطيب ، وتسري بجارية اسبانية تدعى هند . وبعد اقامة قصيرة عاد ابن خلدون الى المغرب حيث انغمر في حياة سياسية حافلة بالأحداث سواء في بلاط المريتيين بفاس ، أو الحفصيين في تونس ، أو بني عبد الواد في تلمسان .

وحينما حلت بأبن الخطيب تلك المحنة التي اودت بحياته ، لم يتردد ابن خلدون في العمل على انقاذ حياة صديقه ، اذ يقول هو نفسه في هذا الصدد : —

«وبعث الي ابن الخطيب من محبسه مستصرخا بي ومتوسلا ، فخاطبت في شأنه أهل الدولة ، وعولت فيه منهم علي ونزمار ، وابن ماساى ، فلم تنجح تلك السعاية وقتل ابن الخطيب في محبسه ، وكان ذلك في سنة ٧٧٦هـ. [٢]

وتشير الـ وايات الى أن ابن خلدون بعد هذا الحادث ، مل السياسة والحياة العامة، وآثر الاعتزال والانطواء أربع سنوات (٧٧٦–٧٨٠هـ) قضاها في قلعة بني سلامة أو قلعة تاوغزوت التي تقع على بعد خمسة كيلومترات من مدينة فرندة

---

(١) المقري : نفح الطيب حـ ٨ ص ٢٧٧ — ٢٨٦ .

(٢) راجع (ابن خلدون : التعريف بأبن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٢٧ .)

الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر [1] .

على أن المهم هنا ، هو أن ابن خلدون في خلال تلك الخلوة الطويلة ، كتب مقدمة تاريخه الخالدة ، التي — على حد قوله — سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها ، على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ».

وعاش ابن خلدون بعد ذلك مدة طويلة تقرب من الثلاثين سنة ، انتقل خلالها الى الشام ومصر حيث ولي منصب قاضي القضاة المالكية في القاهرة ست مرات . وتشير المراجع الى انه لما حاصر تيمورلنك المغولي مدينة دمشق تصادف أن كان ابن خلدون بداخلها ، فاستعمل الحيلة حتى خرج منها وقصد تيمورلنك راجيا انقاذ المدينة وحدثه حديثا عذبا كله اطراء ومديح ، فأعجب به تيمور وقرر أن يستبقيه في خدمته ، فلم يرفض ابن خلدون ، وانما استأذنه في أن يذهب الى القاهرة ليعود بأهله وكتبه ، فأذن له ، ورحل ابن خلدون الى مصر وهو لا يكاد يصدق بالنجاة .

ولقد درس على ابن خلدون عدد من المؤرخين المصريين نخص بالذكر منهم تقي الدين احمد المقريزي الذي صاهره وتأثر به في بعض كتاباته . وتوفي ابن خلدون بمصر سنة ٨٠٨هـ. ومن أشهر مؤلفاته :«كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر».

طبع هذا الكتاب في بولاق سنة ١٨٦٧ ، في سبعة اجزاء ، والجزء الاول منه هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على أنه فرع من الحكمة أي الفلسفة ، وأن باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها . ومن ثم لا بد من دراسة طبائع البشر والعمران حتى يستطيع الانسان تفهم الحوادث ونقدها واستقصاء عللها وأسبابها . هذا ، وقد تضمنت

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨ وما زالت اطلال هذه القلعة باقية ويقال انه توجد بها مغارة كبيرة يظن ان ابن خلدون كتب مقدمته فيها .

المقدمة أيضا معلومات هامة عن حضارة المغرب والاندلس وأنظمة الحكم فيها أو ما يسمى بالخطط (بضم الخاء) Institutions أما بقية اجزاء التاريـــخ فهي تتناول اخبار العرب وأجيالهم منذ بدأ الخليقة الى عصره ثم اخبـــار البربر واجيالهم ودولهم بديار المغرب .

كذلك كتب ابن خلدون كتابا آخر تضمن اخباره ورحلاته في المشرق والمغرب بعنوان : «التعريف بأبن خلدون ورحلته غربا وشرقا» نشره محمد بن تاويت الطنجي .

٣ ــ كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، لمؤلف مجهول (القرن الثامن الهجري)

مؤلف هذا الكتاب لم يذكر اسمه على كتابه ولكنه يشير الى أنه فرغ من تأليفه في يوم الخميس ١٢ربيع الاول سنة ٧٨٣ﻫ (١٣٨١م) أي في عهد كل من السلطانين محمد الخامس ــ الغني بالله ــ ملك غرناطة ، وابي زيد بن عبد الرحمن ابن ابي الحسن المريني ملك المغرب.

ولقد نسب بعض المؤرخين المغاربة المحدثين تأليف هذا الكتاب الى أديب مالقي اسمه ابو عبدالله بن أبي المعالي بن السماك العامري ، كان حيا في أواخر القرن الثامن الهجري . غير أن هؤلاء المؤرخين للأسف لم يذكروا لنا الدليل الذي اعتمدوا عليه لاثبات صحة هذه النسبة [١] .

ويقع كتاب الحلل الموشية في جزء واحد ، وقد طبع أولا في تونس بواسطة البشير الفرتي سنة ١٩١٠ م. ونسبة هذا الناشر خطأ الى الوزير الغرناطي لسان

---

(١) راجع على سبيل المثال (سليمان الحوات : البدور الضاوية في مناقب الزاوية الدلائية لوحه ١٢ مخطوط بخزانة الرباط رقم ١ ، ٢ D. 261 ، محمد بن عبد الله بن المؤقت المسفيوي المراكشي : السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج ٢ ص ١٧٧ (مطبوع على الحجر بفاس) عباس بن ابراهيم المراكشي : الأعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ج ١ ص ٢٣ (فاس ١٩٣٦) راجع كذلك

(Lévi Provençal : Les Historiens des Chorfa p. 385-386).

الدين بن الخطيب الذي توفي قبل تاريخ هذا الكتاب بنحو سبع سنوات !!.
وقد أعاد طبع هذا الكتاب الاستاذ س . علوش Allouch ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط سنة ١٩٣٦ ، وان كانت هذه الطبعة لم تسلم هي الاخرى من التحريف . ولقد ترجم المستشرق الاسباني أويثي ميراندا Huici Miranda كتاب الحلل الموشية الى اللغة الاسبانية ، وطبعت الترجمة بمعهد مولاي الحسن بتطوان .

ويبدأ كتاب الحلل الموشية بتأسيس مدينة مراكش على يد أمير المرابطين ابي بكر بن عمر المتوفي في سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩م) ويتناول عصر المرابطين والموحدين في شيء من التفصيل ، ثم يستعرض الحوادث التاريخية التي وقعت في عصر بني عبد الحق أو بني مرين الى سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م).

ولقد استمد المؤلف مادته التاريخية من كتب اصيلة معاصرة نص على اصحابها صراحة ، بعضها موجود والبعض الآخر مفقود . والكتاب على وجه العموم قيم ومفيد جدا لأنه تضمن حقائق تاريخية ثابتة صححت لنا الكثير من الاخطاء التي وردت في الكتب الاخرى ، حول تاريخ بناء مدينة مراكش ، وأصل تسمية الرابطين ، والنظام الحربي المغربي على عهد المرابطين والموحدين [1] .

٤ — الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

لقد اختلف المؤرخون حول هذا الكتاب ، فالبعض ينسبه الى ابي العباس احمد بن ابي زرع ، والبعض الآخر ينسبه الى صالح بن عبد الحليم الغرناطي وكلا المؤرخين عاشا وماتا بالمغرب في النصف الاول من القرن الثامن الهجري(١٤م)

والكتاب يتناول تاريخ المغرب الاقصى من سنة ١٤٥هـ الى سنة ٧٢٦هـ أي انه يشمل تاريخ الدول الخمس التي تداولت حكم المغرب في هذه الفترة وهي

(١) راجع مقالنا (دراسة حول كتاب الحلل الموشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠) .

دولة الادارسة ، ودولة زناتة (المغراويين ، اليفرانيين) ثم دولتا المرابطين والموحدين ، واخيرا دولة بني عبد الحق أو بني مرين التي انهى المؤلف في عهدها كتابه واهداه الى السلطان الخامس من ملوكها وهو أبو سعيد عثمان المريني (٧١٩ — ٧٣١هـ).

ولقد طبع هذا الكتاب على الحجر بفاس مرارا أولها سنة ١٨٨٥ ، ثم طبع طبعة حديثة بالرباط سنة ١٩٣٦ ولكنها للأسف غير كاملة إذ تنتهي عند عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدي . كذلك اهتم المستشرقون الاوروبيون بنشر هذا الكتاب وترجمته ، فهناك طبعة في جزئين للعالم السويدي تورنبرغ Tornberg مع ترجمة لاتينية (ابسالا ١٨٤٢—١٨٤٦) ، وهناك ترجمة المانية لدومباي Dombay سنة ١٧٩٤ ، وترجمة الى البرتغالية للأب مورا Moura بلشبونة سنة ١٨٢٨ ، وترجمة فرنسية للمستشرق Beaumier باريس ١٩٦٠ .

على أنه يلاحظ أن بعض المستشرقين ترجموا كلمة القرطاس بمعناها اللفظي Papier مع أنه في الواقع اسم لحديقة بضواحي فاس غرسها الزعيم المغربي زيري بن عطية المغراوي الذي حكم المغرب في اواخر القرن الرابع الهجري لدرجة أنه كان يعرف باسم القرطاس ايضا . (مفاخر البربر ص ٣٧) وعلى هذا الاساس نرى أن كلمة القرطاس ينبغي ان تبقى كما هي عند نقلها الى لغة اجنبية اخرى باعتبارها اسم علم جغرافي .

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذا الكتاب ، فاننا نلاحظ أنه مليء بالأخطاء التاريخية والجغرافية مما جعل بعض المؤرخين القدامى والمحدثين ينتقدون صاحبه ويتهمونه بالكذب والاختلاق . ويكفي أن تشير الى تعليق الكاتب المعاصر له وهو الخطيب ابو عبدالله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن في آخر ورقة ١٩ (مخطوط رقم ١١١بخزانة الرباط) حيث يقول : «فبنو مرين اعزهم الله أعلام زناته ورؤساؤها وكبار قبائلها وعظماؤها ، وقد وقفت قديما على رفع نسبهم الى زناته وقرأت بين يدي المولى المرحوم (أبو الحسن المريني) ما كتبه ابن ابي زرع في ذلك ، ومنهم سمعت قدس الله روحهم ، أن كثيرا

من اخبار ابن ابي زرع انكرها والدهم المرحوم المولى ابو سعيد عثمان ، وأكذبه فيما أدركه مما حكاه على خلاف ما وقع عليه»

كذلك لم يسلم صاحب القرطاس من نقد المؤرخين المحدثين من أمثال دوزي وبونس بويجس ، وأويثي ميراندا وغيرهم ، فاتهموه بأنه كثيرا ما استسلم لخياله (١) .

٥ ــ تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (المعروف برحلة بن بطوطة) :

صاحب هذه الرحلة هو ابو عبدالله محمد الطنجى اللواتي (نسبة الى قبيلة لواتة البربرية) ويلقب بشمس الدين ويعرف بابن بطوطة (ت سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٨م).

ولد في مدينة طنجة سنة ٧٠٤هـ (١٣٠٤م)، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، قام برحلاته الواسعة التي شملت معظم ارجاء العالم المعروف في ذلك الوقت ، وهي تنحصر في ثلاث رحلات : ــ

الرحلة الاولى : غادر فيها طنجة مسقط رأسه سنة ١٣٢٥م وطاف بانحاء المغرب الاقصى ثم اتجه نحو الشرق عبر الجزائر وتونس وليبيا ثم مصر . ومن هناك سافر الى الصعيد (جنوب مصر) وسار في طريق الحج الجنوبي الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر كي يبحر من هناك الى ميناء جدة في الحجاز .

ولكنه لم يستطع الابحار من عيذاب بسبب حرب قامت بين اهالي هذه المنطقة وأمراء المماليك حكام مصر . فاضطر ابن بطوطة الى العودة الى القاهرة ومتابعة رحلته الى الحجاز عن طريق الشام .

وبعد تأديته لفريضة الحج اتجه الى العراق وايران وبلاد الاناضول (آسيا

---

(١) راجع على سبيل المثال (Huici Miranda : La Salida de los Almoravides del desierto, Hesperis 1959 & Pons Boigues : Historiadores y Géografos Arabigo — Espanoles p. 240).

الصغرى) ثم عاد الى الحجاز وحج للمرة الثانية، وبقي مجاورا في مكة مدة سنتين.

وفي سنة ١٣٢٩ م غادر الحجاز متجها نحو الجنوب ، فزار اليمن وبلاد الخليج العربي مثل البحرين والاحساء ، ثم عاد الى مكة وحج للمرة الثالثة .

واتجه ابن بطوطة بعد ذلك الى الدولة البيزنطية عبر مصر والشام وآسيا الصغرى، واستقر في العاصمة مدينة القسطنطينية مدة مكنته من وصفها وصفا دقيقا .

ومن القسطنطينية اتجه الى اقصى المشرق حيث زار خوارزم ، وخراسان وتركستان ، وفغانستان ، والسند والهند . وكان الاسلام منتشرا في شمال الهند حتى سلسلة جبال فندهياس في جنوب دهلي (دلهي). وكانت هذه المنطقة الاسلامية تعرف بهندوستان وعاصمتها مدينة دلهي التي وصفها ابن بطوطة بالحسن والحصانة ، كما وصف ماوك البريد الذين كانوا يشرفون على حالة الأمن في البلاد ، ويتعرفون على كل شخص غريب يصل اليها ، مثل جهاز المخابرات اليوم . كذلك لاحظ أن الاهالي كانوا يخرجون من باطن الارض ارزا اسود اللون مخزونا منذ مائة سنة على عهد السلطان بلبان لمقاومة حصار المغول . وقد أكل ابن بطوطة منه وقال ان طعمه طيب .

هذا وقد استطاع ابن بطوطة ان يجتذب محبة سلطان الهند محمد شاه ، فعينه قاضيا في بلاده ثم ارسله مرافقا لبعثة هندية الى ملك الصين ، فمر في طريقه بجزيرة سرنديب (سيلان) وجزيرة سومطرة ، وجزائر الهند الشرقية ثم الصين . وقد وصف كل ما رآه وعاينه وصفا دقيقا ممتعا واهتم بصفة خاصة بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية .

وعاد ابن بطوطة بعد هذه الرحلة الطويلة الى مكة حيث حج للمرة الرابعة ، ثم واصل سيره عائدا الى بلاده عبر مصر وتونس والجزائر فوصل فاس سنة١٣٤٩م.

الرحلة الثانية :

اقام ابن بطوطة في المغرب حوالي سنة ثم قام برحلته الثانية الى الاندلس سنة

١٣٥٠م. والمقصود بالأندلس في ذلك الوقت هو مملكة غرناطة آخر مملكة اسلامية في اسبانيا.وقد وصف ابن بطوطة خط سيره من جبل طارق الى مدينة رندة Ronda ثم الى بلدة مربلّة Marbella ، وسهيل Fuengirola ، على الساحل الشرقي الاسباني. وقد وقعت له في بلدة سهيل غارة بحرية معادية كاد أن يقتل فيها لولا انه لجأ الى برج المدينة . ثم واصل سيره بحذاء الساحل الشرقي الى مدينة مالقة فوصف فواكهها كالعنب والتين والرمان ، كما وصف الفخار المذهب الذي اشتهرت بصناعته . ثم غادر مالقة الى العاصمة مدينة غرناطة . وهناك لم يستطع مقابلة السلطان ابي الحجاج يوسف الاول لانه كان مريضا ، ولكن والدة السلطان بعثت اليه بدنانير ذهبية كرسم للضيافة .

وقد وصف ابن بطوطة مدينة غرناطة كما وصف الزوايا والروابط الصوفية التي كانت منتشرة في الجبال المحيطة بها مثل رابطة العقاب وزاوية بني المحروق . وقد لاحظ وجود جالية ايرانية كبيرة (منْ العجم) في غرناطة ، وهي ظاهرة اجتماعية مهمة .

ويشير الوزير الغرناطي ابن الخطيب في كتابه الاحاطة الى انه اجتمع بابن بطوطة في بستان القاضي ابي القاسم بن عاصم بغرناطة ، وباتوا معه ليلتين حدثهم فيها احاديث غريبة عن رحلاته . وعاد ابن بطوطة الى فاس سنة ١٣٥١م.

الرحلة الثالثة :

اقام بن بطوطة في بلاده عاما واحدا ثم استأنف رحلته الثالثة الى بلاد السودان الغربي سنة ١٣٥٣ . وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات عاد بعدها الى فاس حيث استقر في حاشية السلطان أبي عنان المريني يخبر الناس بما رآه من العجائب والغرائب .

ولقد أشار كل من ابن الخطيب وابن خلدون الى ان بعض الناس كذبوا ابن بطوطة ، فقال ابن خلدون : واستغرب به السامعون ، وتناجى الناس بتكذيبه . ولقيت أيامئذ الوزير المغربي فارس بن وردار ففاوضته في هذا الشأن فقال لي

الوزير : «اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول بما انك لم تراه». ثم يعلق ابن خلدون على ذلك بقوله :« ان الانسان ينبغي ان يهيمن على نفسه فيميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، فما دخل في نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه .

وواضح من كلام ابن خلدون انه كان يشك في احاديث ابن بطوطة . والواقع ان هذا الرحالة الطنجي كان صادقا في اقواله مصيبا في احكامه ، وقد اثبتت الحوادث وأقوال المؤرخين والرحالة الاوروبيين صدق روايته . فوصفه للقسطنطينية ايدته الحوليات البيزنطية ، ووصفه لمصر حينما قال بأن المراكب التي كانت تمر في نيلها بين شطري الوادي بلغ عددها ثلاثين ألفا وأن عدد السقائين على الجمال بلغ اثنا عشر ألفا ، لم يكن مبالغا فيه ، لأن مثل هذه الارقام ذكرها الرحالة الايطالي فريسكو بالدي Frescobaldi الذي زار مصر بعد ابن بطوطة بنحو خمسين سنة .

هذا ويلاحظ أن ابن بطوطة لم يكتب رحلتــه بنفسه بل قدمها على شكل مذكرات أو مسودات الى السلطان ابي عنان فارس المريني الذي أمر كاتبه الاديب الغرناطي عبدالله ابن جزي بصياغتها بالشكل التي هي عليه الآن . وقد انتهى ابن جزي من كتابتها في ثلاثة أشهر فقط .

هذا ، ويلاحظ ايضا أن ابن بطوطة في الجزء الخاص بوصف المغرب من رحلته ، قد تغلبت عليه العاطفة الوطنية بحكم كونه مغربيا ، فجعل المغرب في قمة البلاد التي زارها من حيث الرخاء ورخص الاسعار ، وكثيرا ما قارن بين المغرب والبلاد الاسلامية ولا سيما مصر في هذه النواحي الاقتصادية والاجتماعية . ولم ينس ابن بطوطة أن يضمن كلامه بأبيات شعرية تعبر عن حبه لوطنه مثل قوله :

بلاد بهـــــا نيطت عـــلى تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

وقوله :

الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى اليه

كذلك افرد ابن بطوطة جزءا كبيرا من كلامه في مدح سلطان المغرب على ايامه ابي عنان فارس المريني ، فعدد أعماله العمرانية كبناء المارستانات(المستشفيات) في كل بلد ، وتعيين الاطباء فيها ، وبناء المدارس العنانية في فاس التي امتازت عن مدارس المشرق بالاتساع وكثرة المياه .

كذلك يشير ابن بطوطة الى اهتمام السلطان ابي عنان ببناء الاساطيل البحرية وكيف انه كان يذهب بنفسه الى غابات جاناته بنواحي مدينة الرباط ليشرف بنفسه على قطع الاشجار الخاصة ببناء السفن . كذلك بلغ اهتمامه بجبل طارق الذي كان تابعا للمغرب في ذلك الوقت ، أن أمر الصناع بعمل هيكل مصغر لهذا الجبل بأسواره وأبراجه ومخازنه وابوابه . ووضع هذا المجسم في قصره بالمشور السعيد وذلك لشدة اهتمامه بهذا الثغر العظيم ، وما كان يؤمله في اعادة فتح بلاد الاندلس التي سقطت في يد الاسبان .

توفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٨م) وقبره يزار في طنجة وقيل انه قبر أمه .

والرحلة نشرها مع ترجمة فرنسية العالمان Defremery et Sanguinetti في اربعة اجزاء ، وجزء خامس للفهارس . كذلك هناك طبعات عربية عديدة مثل طبعة الازهر ، ووادي النيل في القاهرة ، وطبعة سلسلة الروائع اللبنانية تحقيق فؤاد أفرم البستاني . كذلك ترجمت هذه الرحلة الى معظم لغات العالم .

سابعا : مؤرخو العصر الحديث من المغاربة :

١ ــ الحسن الوزان أو يوحنا ليون الافريقي (١٤٨٨ ــ ١٥٣٢م) :

في بداية العصر الحديث أي في القرن السادس عشر الميلادي ، ظهر رحالة مغربي آخر اسمه العربي هو الحسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي ، واسمه الأوربي هو ليون الافريقي Leon Africanus ولد في غرناطة سنة ١٤٨٨ م

(٨٩٣هـ) وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م هاجرت أسرته الى مدينة فاس بالمغرب . ومن هناك طاف الحسن الوزان في بلاد المغرب والسودان الغربي ثم ارتحل الى المشرق وزار مصر والشام والحجاز والأناضول والقسطنطينية ثم عاد الى مصر ليبحر منها عائدا الى المغرب . وفي الطريق أسره بعض قراصنة النصارى وحملوه الى روما وقدموه هدية الى البابا ليون العاشر . ويبدو أن البابا قدر فيه علمه وأخلاقه فعطف عليه واعتقه وصرف له معاشا سخيا . وتحت تأثير هذه المعاملة الطيبة ، أعتنق الحسن الوزان الديانة المسيحية وسمى نفسه ليون الافريقي (على اسم البابا). وفي روما اشتغل بتدريس اللغة العربية وانقطع للبحث والتأليف .

ومن أهم مؤلفاته كتابه المعروف باسم وصف افريقيا Description of Africa هذا الكتاب يتناول وصف المغرب وممالك السودان ، وهي البلاد التي زارها ودرسها عن كثب .

كتب الحسن الوزان هذا الكتاب باللغة الايطالية ، ولم يلبث هذا الكتاب أن ترجم الى معظم لغات العالم ما عدا العربية للأسف . وترجمه الى الانجليزية جون بوري John Pory سنة ١٦٠٠ ثم اعيد طبعه مع مقدمة وحواشي بواسطة روبرت براون Robert Brown في ثلاثة أجزاء سنة ١٨٩٢ بلندن . أما الترجمة الفرنسية فقام بها المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (١) ، أما الترجمة الاسبانية فكانت بواسطة معهد الجنرال فرانكو (الذي صار الآن معهد مولاي الحسن) بتطوان سنة ١٩٥٢ .

خاتمة الحسن الوزان غامضة ، وان كان من المعروف أنه في آخر حياته عاد الى وطنه واعتنق الاسلام من جديد ، وتوفي سنة ١٥٣٢ م.

٢ ــ أحمد المقري : (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م)

مؤرخ جزائري من مدينة مقرة (بتشديد القاف) من أعمال قسنطينة طاف

(١) Louis Massignon : Tableau géographique d'après Leou l'africain (Alger 1906).

ببلاد المغرب ، وعمل خطيبا بجامع القرويين بفاس ، وهو منصب علمي وسياسي كبير في ذلك الوقت . ثم رحل الى المشرق وطاف ببلاده ايضا .

وكان المقري من المعجبين جدا بشخصية الوزير والعالم الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب ، وكثيرا ما تحدث عنه في دروسه التي ألقاها بالجامع الأزهر في القاهرة ، وبالجامع الأموي في دمشق ، وبالمسجد الأقصى في القدس ، لدرجة أن بعض تلاميذه طلبوا منه تأليف كتاب عن ابن الخطيب . وبعد عودته الى القاهرة اختمرت هذه الفكرة في ذهنه ، فعكف على كتابة تاريخ لابن الخطيب يتناول حياته وانتاجه العلمي والأدبي من نظم ونثر وتاريخ . وبعد أن اتم المقري هذا الكتاب ، رأى أن يمهد له بتاريخ عام للأندلس ، فخرج الكتاب على شكل موسوعة كبيرة عن الأندلس ، نصفها الأول يتضمن التعريف بالأندلس بينما النصف الثاني التعريف بابن الخطيب . وأطلق المقري على هذه الموسوعة العنوان التالي :

«كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب». ويعيب على هذا الكتاب أنه غير منظم في سرد معلوماته . وقد يرجع ذلك الى أن المقري ألفه بعيدا عن وطنه وعن مكتبته التي تركها بالمغرب على حد قوله . على أن الكتاب يعتبر مصدرا أساسيا لجميع الباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب . لهذا اهتم به المؤرخون والمستشرقون ، فنشر دوزي القسم الأول منه الخاص بتاريخ الأندلس ، وألحق به فهارس دقيقة .

كذلك قام المستشرق الاسباني باسكوال دي جاينجوس — الذي كان سفيرا لبلاده في انجلترا — بترجمة المعلومات التاريخية التي تضمنها هذا الكتاب الى الانجليزية بعد ترتيبها ترتيبا زمنيا والتعليق عليها بحواشي مفيدة ، تحت عنوان :

Pascual de Gayangos : History of the Mohammadan Dynasties in Spain, 2 Vols. أي تاريخ الدول الاسلامية في اسبانيا

هذا ، وقد نشر كتاب نفح الطيب برمته في مطبعة بولاق في أربعة أجزاء

سنة ١٨٦٢ . ثم أعاد نشره حديثا الشيخ محيي الدين عبد الحميد في عشرة أجزاء .

وللمقري كتاب آخر عن الأندلس عنوانه :

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض .

والقاضي عياض (ت٥٤٤هـ) موضوع هذا الكتاب كان قاضيا لمدينة سبتة على عهد المرابطين وله شهرة علمية كبيرة ، ومؤلفاته في الأمور الفقهية عديدة مثل كتاب الشفاء ، وكتاب ترتيب المدارك في معرفة أعلام مذهب مالك .

غير ان المقري في كتابه أزهار الرياض لم يقصر كلامه على هذا القاضي السبتي فحسب ، بل تناول أحداثا هامة في الأندلس لم ترد في كتابه الآخر نفح الطيب وخصوصا ما يتعلق منها بمحاكم التفتيش وطرد المسلمين نهائيا من الأندلس سنة ١٦١٠ .

والكتاب نشر منه قسم كبير في ثلاثة أجزاء بعناية الاستاذين احمد السقا وابراهيم الابياري .

٣ - السلاوي الناصري (١٨٣٥ - ١٨٩٧م)

في القرن التاسع عشر ، ظهر مؤرخ مغربي آخر ، هو شهاب الدين ابو العباس أحمد السلاوي الناصري .

ولد في مدينة سلا بالمغرب الأقصى وتوفي بها ، ولهذا عرف بالسلاوي . أما تسميته بالناصري فلأنه ينحدر من سلالة الشيخ المتصوف احمد بن ناصر العاوي الجعفري مؤسس الزاوية الناصرية بتامجروت في وادي درعة جنوبي المغرب . ولهذا سمي هذا المؤرخ بالسلاوي الناصري .

ومن الطريف أنه طاف بانحاء المغرب ما عدا أجزائه الجنوبية موطن أجداده ، ثم عمل موظفا في المخزن أي الحكومة المغربية ، واختص بالشئون المالية والأحباس ، وخدم في الثغور المغربية مثلا سلا والدار البيضاء والجديدة . وقد أتاح له هذا العمل

فرصة الاتصال بالأوربيين والاستفادة من علمهم وكتبهم .

على أن شهرة السلاوي لم تأت من عمله الحكومي لأنه كان موظفا عاديا ، وانما جاءت من مؤلفاته العلمية التي نالت حظا وافرا من التقدير سواء في داخل المغرب أو خارجه .

وأهم كتاب ألفه السلاوي هو تاريخه المعروف باسم :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

وهو تاريخ عام للمغرب الأقصى حتى عصر المؤلف أي حتى أواخر القرن ١٩ . طبع هذا الكتاب أول الأمر في القاهرة في أربعة أجزاء سنة ١٨٩٤ أي قبل وفاة السلاوي بنحو ثلاث سنوات ثم اعيد طبعه حديثا في الدار البيضاء سنة ١٩٥٦ في تسعة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول : يتناول أحداث الفتح العربي للمغرب ويستمر الى نهاية دولة الأدارسة .

الجزء الثاني : يشمل تاريخ دولتي المرابطين والموحدين .

الجزءان الثالث والرابع : عن دولة بني مرين .

الجزءان الخامس والسادس : عن الدولة السعدية .

الثلاثة أجزاء الأخيرة : عن الدولة العلوية حتى بداية عهد سلطان الحسن ابن محمد سنة ١٨٨١ الذي أهدى له السلاوي هذا الكتاب .

والسلاوي يعتبر أول مؤرخ مغربي استعان بالمصادر الأوربية التي ظهرت في عهده مثل تاريخ مازاجان [١] الذي كتبه بالبرتغالية لويس البوكرك Louis Albuquerque ومثل كتاب تاريخ المغرب الذي كتبه بالاسبانية مانويل

---

(١) مازاجان هو تحريف لكلمة مازيغان الاسم القديم لمدينة الجديدة الحالية جنوب الدار البيضاء على ساحل المحيط الأطلسي بالمملكة المغربية .

كاستيلانوس Manuel Castellanos ولقد استعـــان السلاوي في ذلك ببعض المترجمين اليهود المقيمين في المغرب .

كذلك يلاحظ أن السلاوي اعتمد على من سبقه من المؤرخين المغاربة ولا سيما ابن خلدون ، الا أنه كان كثيرا ما يتناول الأحداث بالنقد والتحليل مع ابداء رأيه الخاص في بعض القضايا . فهو مؤرخ عصري الى حد كبير .

وقد ترجم معظم كتاب الاستقصا الى اللغة الفرنسية بواسطة عدد من الكتاب أمثال : كولان ، جرول ، فومي Colin, Graulle, Fumey

ثامنا : المصادر الغير عربية في تاريخ الأندلس :

تاريخ الأندلس ظل حتى القرن التاسع عشر مستمدا من مراجع أوربية قليلة القيمة أشهرها كتاب تاريخ العرب في اسبانيا للمؤرخ الاسباني كوندي Conde ويقع في ثلاثة اجزاء باللغة الاسبانية ، وترجم الى اللغة الانجليزية .

ولكن هذا الكتاب تنقصه الدقة والنقد وتحري الحقيقة .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهر مستشرق كبير هولندي الجنسية اسمه رينهارت دوزي Reinhart Dozy ، عكف على دراسة تاريخ اسبانيا من خلال المصادر العربية واللاتينية فكان ينشر الكتب العربية نشرا علميا دقيقا ، ويدرس ايضا التواريخ الاسبانية المسيحية التي كتبها الرهبان والقساوسة في العصور الوسطى وهي مصدر مهم من الناحية التاريخية ، ثم وضع في النهاية كتابا يعتبر أول كتاب عالج تاريخ اسبانيا معالجة علمية وهو :

Histoire des musulmans d'Espagne 3 Vol.

أي تاريخ مسلمي اسبانيا . وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزيه ، كما ترجمه الدكتور حسن حبشي الى العربية ، وصدر القسم الأول منه منذ عدة سنوات .

على أن تاريخ دوزي لم يتناول تاريخ العرب في اسبانيا حتى نهايته ، بل وقف عند عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري . كذلك عني دوزي بالناحية السياسية اكثر من عنايته بالناحية الحضارية والحياة الاجتماعية العامة .

ولكنه على كل حال يعتبر أول كتاب علمي لتاريخ العرب في اسبانيا .

الى جانب هذا الكتاب ، كتب دوزي كتابا آخر في مجلدين اسمه :
Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne 2 Vols.
أي بحوث في تاريخ العرب في اسبانيا .

وهو عبارة عن دراسات للوقائع التاريخية الغامضة ، أو الاماكن الجغرافية الغير معروفة ، أو الشخصيات الاندلسية المجهولة وهكذا .

كذلك صنف دوزي معجما عربيا في جزئين للكلمات التي لم ترد في المعاجم العربية سماه :
Supplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes,
أي اضافة الى المعاجم العربية .

وظلت كتب دوزي وبحوثه هي العمدة في تاريخ الأندلس حتى القرن العشرين . وفي هذا القرن ظهرت كتب كثيرة نذكر منها :
The moorish Empire in Europe by Scott, 3 Vols.
أي امبراطورية المسلمين في أوربا .

أصدر سكوت هذا الكتاب بعد أن عاش في اسبانيا عشرين سنة درس خلالها المصادر المختلفة . على أن الكتاب رغم ذلك فيه شيء كثير من الخيال لأن المؤلف كان مفتونا بالمدينة العربية وبالشخصيات العظيمة التي ظهرت في الأندلس . ولهذا جاء كتابه قصة ممتعة للقارىء ، ولكن ليس فيه اتزان ، اذا مدح شخصا صعد به الى السماء ، وهذا الاسلوب ليس هو الاسلوب الذي يجب أن يكتب به التاريخ .

في هذا القرن ايضا ظهرت كتب مدرسية تاريخية Text books ومن أشهرها كتب المؤرخ الانجليزي لين بول Lane - Poole عن مصر في العصور الوسطى ، وتركيا ، والهند ، وكذلك عن العرب في اسبانيا The moors in Spain ، ولكنه ليس مبتكرا في هذا الكتاب الأخير وانما مختصرا لكتاب دوزي ومتمما له. فهو قصة طريفة للقارىء الأوربي. وقد ترجمه الى العربية المرحوم الشاعر علي الجارم .

الاسبان ايضا نظروا الى هذه الفترة الاسلامية الاسبانية كحقبة مجيلة من تاريخهم ،ولهذا اهتموا بها ، واعتنوا بآثارها ، وفرضوا دراسة اللغة العربية في جامعاتهم وبعض مدارسهم ، كما كتبوا الأبحاث ونشروا المخطوطات في تاريـخ وحضارة الأندلس. فكتب سافدرا Saavedra رسالة في فتح العرب لاسبانيا ، وكتب جونثالث بالنثيا Gonzalez Palencia تاريخا لاسبانيا ، وتاريخا آخر للفكر الأنـدلسي ترجمه الدكتور حسين مؤنس . وكتب الراهب آسين بـلاثيوس Asin Palacios ابحاثا كبيرة عن فلاسفة الأندلس وفقهائها ومفكريها أهمها كتابه عن دانتي الايطالي وتأثره بقصة الاسراء والمعراج في كوميديته المقدسة ، وترجمته لكتاب الفصل لابن حزم مع مقدمة دراسية هامة عن هذا المفكر الأندلسي . كذلك نذكر جارثيا جومث Garcia Gomez الذي اهتم بالحياة الأدبية في الأندلس ، وسيكو دي لوثينا Seco de Lucena الذي تركزت كتاباته عن مملكة غرناطة ، وأويثي ميراندا Huici Miranda الذي كتب عن المرابطين والموحدين، وخوان بيرنيت Juan Vernet الذي اهتم بالنواحي العلمية في الاندلس كالفلك والرياضة والطب .. الخ .

كذلك ساهمت فرنسا في العناية بدراسة التراث العربي في اسبانيا ، وبرز منها عدد من كبار المستشرقين أمثال ليفي بروفنسال الذي يعتبر من أحسن المستشرقين الذين كتبوا في تاريخ وحضارة الاندلس حتى اليوم . وله تاريخ عام للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة ، جزءان للتاريخ وثالث للحضارة تحت عنوان :

Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes.

هذا الى جانب ما نشره هذا العالم من مخطوطات نادرة وأبحاث متفرقة .

ولا يتسع المجال لذكر جميع اسماء المستشرقين وأعمالهم في الحقل الأندلسي ، وانما نكتفي بمن أشرنا اليهم على سبيل المثال لا الحصر .

تاسعا : المصادر العربية الحديثة المعاصرة :

ـ ابراهيم العدوي :

الأمويون والبيزنطيون .

ـ أحمد المكناسي :

المدن المندرسة في شمال المغرب .

ـ أحمد توفيق المدني :

المسلمون في جز يرة صقلّية وجنوب ايطاليا (الجزائر ١٣٦٥هـ)

ـ احسان عباس :

ـ العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والأداب ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩م.

ـ أرشيبالد لويس :

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ـ ترجمة احمد محمد عيسى .

ـ أشباخ :

ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبدالله عنان .

ـ أماري ميشيل :

المكتبة العربية الصقلية ـ ليبسك ١٨٧٥ .

ـ جمال الدين الشيال :

تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي .

ـ جنثالث بالنثيا :

تاريخ الفكر الاسلامي ـ ترجمة حسين مؤنس .

ـ جورجي زيدان :

تاريخ التمدن الاسلامي .

ـ حسن أحمد محمود :

قيام دولة المرابطين – صفحة مجيدة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى .
– حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن :
النظم الاسلامية طبعة ١٩٦٢ .
– حسن ابراهيم حسن وطه شرف :
المعز لدين الله .
– حسين مؤنس :
فجر الأندلس .
غارات النورمانديين على الأندلس – مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الأول ١٩٤٩ .
المسلمون في حوض البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .
– خوان برنيت :
هل هناك أصل عربي اسباني لفن الخرائط الملاحية ؟
معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٣ – العدد الأول ترجمة : احمد مختار العبادي .
– خير الدين الزركلي :
كتاب الأعلام القاهرة (١٨٥٩م).
– رشيد رضا :
الخلافة أو الامامة العظمى – مطبعة المنار ١٩٢٣ .
– زكي حسن :
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .
– زيادة : د . محمد مصطفى :
بعض ملاحظات جديدة تاريخ دولة المماليك في مصر .
مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة–المجلد الرابع–الجزء الأول سنة١٩٣٦.

ــ ابن زيدان . عبد الرحمن بن محمد :

اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس .

طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ ــ ١٩٣٣).

ــ د . سعد زغلول :

تاريخ المغرب العربي :

العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب (مجلة كلية الاسكندرية ١٩٥٣).

الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول (نشر جامعة الاسكندرية).

ــ .د. سعيد عاشور :

أوربا في العصور الوسطى .

ــ سليمان الباروني النفوسي . (ت عام ١٣٥٩هـ ١٩٤٠)

الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية .

ــ شكري فيصل :

حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول الهجري .

ــ شكيب أرسلان . (ت١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م).

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية .

ــ العبادي : أحمد مختار العبادي

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٦٨)

سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس (صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧)

قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت ١٩٦٩).

الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣)

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين ــ مجلة كلية آداب الاسكندرية ١٩٦٧

دراسة حول كتاب الحلل الموشية ــ مجلة تطوان العدد الخامس ١٩٦٠ .
الموحدون والوحدة الاسلامية ــ مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية مارس وابريل سنة ١٩٦٢ .
سياسة ابن الخطيب المغربية ــ كمجلة البينة ــ الرباط مايو ١٩٦٢ .
ــ (العبادي عبد الحميد)
المجمل في تاريخ الأندلس . (القاهرة ١٩٥٨)
صور وبحوث من التاريخ الاسلامي . (الاسكندرية ١٩٤٨).
ــ عبد الحي الكتاني :
التراتيب الادارية في المدينة المنورة العلية . الـ (الرباط ١٣٤٦هـ).
ــ عبد السلام الهراس :
ابن اللبانة ــ مجلة البحث العلمي بالرباط (مايو ــ أغسطس ١٩٦٤)
ــ عبد السلام الطود :
بنو عباد باشبيلية (تطوان ١٩٤٦)
ــ عبد العزيز سالم :
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس .
تاريخ المغرب العربي الكبير .
ــ عبد العزيز بن عبدالله :
البحرية المغربية والقرصنة ــ مجلة تطوان العددان ٣ ــ ٤ (١٩٥٨ ــ ١٩٥٩).
ــ عبد العزيز الأهواني :
سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤هـ
مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ــ المجلد السادس عشر ، مايو ١٩٥٤ .
ــ عبد القادر الصحراوي :
جولات في تاريخ المغرب (الدار البيضاء ١٩٦١).

ـ عبدالله جنون :
مدخل الى تاريخ المغرب .
النبوغ المغربي في الأدب العربي .
ـ عبدالله عنان :
تراجم اسلامية شرقية واندلسية .
ـ عبد المنعم ماجد :
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر .
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .
ـ عبد الرحمن الجيلالي :
تاريخ الجزائر العام ١٩٥٥ .
ـ عبد الهادي التازي :
مهدية المولى اسماعيل ـ مجلة المغرب مايو ١٩٦٣ .
ـ ابن العربي : (الصديق)
دليل المغرب .
ـ علي مظهر :
محاكم التفتيش .
ـ عمر كمال توفيق :
تاريخ الامبراطورية البيزنطية .
ـ فتحي عثمان :
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري .
ـ كليكيا سارنلي :
مجاهد العامري : (القاهرة ١٩٦١).
ـ لسترنج :
بلدان الخلافة الشرقية .
ـ لطفي عبد البديع :

الاسلام في أسبانيا .
ـ محمد ابراهيم الكتاني :
شذرات من كتاب السياسة لابن حزم
(مجلة تطوان ١٩٦٠).
ـ محمد أحمد أبو زهرة :
المذاهب الاسلامية :
ـ محمد بن تاويت :
بزوغ الثقافة العربية بالمغرب ـ مجلة تمودا تطوان ١٩٥٦
دولة الرستميين : صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٨.
ـ محمد الخضري :
محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية . (القاهرة ١٩١٦م)
ـ محمد رضا الشبيبي :
أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية .
(مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)
ـ محمد بن شريفة :
أبو الطرف احمد بن عميرة المخزومي .
أسرة بني عشرة ، مجلة تطوان ، العدد العاشر ١٩٦٥ .
ـ محمد ضياء الدين الريس :
الخراج في الدولة الاسلامية .
ـ محمد عبد الرحيم غنيمة :
تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى .
ـ محمد العبدي الكانوني :
آسفي وما اليه .
ـ محمد عبد الهادي شعيرة :
الاسكندرية من العصر الاسلامي الى نهاية العصر الفاطمي

(كتاب الغرفة التجارية بمدينة الاسكندرية).
ـ محمد القاسي :
نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الأدبية ـ مجلة البينة ديسمبر ١٩٦٢ .
الاعلام الجغرافية ، مجلة البينة (مايو ١٩٦٢).
محمد المنوني :
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .
نظم الدولة المرينية ـ مجلة البحث العلمي ـ مايو سنة ١٩٦٤ الرباط .
ـ محمد ياسين الحموي :
تاريخ الأسطول العربي .
ـ محمود مكي :
التشيع في الأندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٤ .
تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالأندلس ـ نشر محمود مكي بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٥٧
عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الأندلس ـ مجلة العربي ، اكتوبر ١٩٦٧ .
ـ الميلي (مبارك بن محمد الهلالي) :
تاريخ الجزائر في القديم والحديث
ـ هونير باخ : (فلهلم)
البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ـ تطوان ١٩٥٤.

محتويات الكتاب